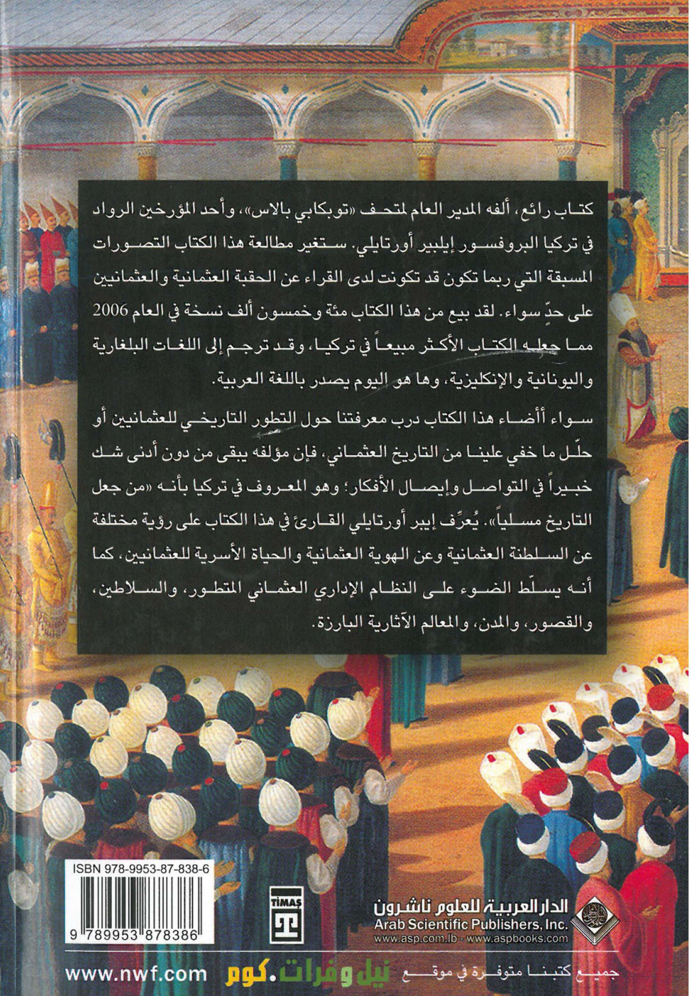


شكرا لمن رفع الكتاب على الشبكة، قمنا بتنسيق الكتاب وتخفيض حجمه
مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com
إعادة استكشاف العثمانيين
OSMANLI'YI YENİDEN KEŞFETMEK
إيلبير أورتايلي
İLBER ORTAYLI
30 طبعة
176 ألف نسخة
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



كتاب رائع، ألفه المدير العام لمتحف «توبكابي بالاس»، وأحد المؤرخين الرواد في تركيا البروفسور إيلبير أورتايلي. ستغير مطالعة هذا الكتاب التصورات المسبقة التي ربما تكون قد تكونت لدى القراء عن الحقبة العثمانية والعثمانيين على حدٍّ سواء. لقد بيع من هذا الكتاب مئة وخمسون ألف نسخة في العام 2006 مما جعله الكتاب الأكثر مبيعاً في تركيا، وقد ترجم إلى اللغات البلغارية واليونانية والإنكليزية، وها هو اليوم يصدر باللغة العربية.

سواء أأضاء هذا الكتاب درب معرفتنا حول التطور التاريخي للعثمانيين أو حلّل ما خفي علينا من التاريخ العثماني، فإن مؤلفه يبقى من دون أدنى شك خبيراً في التواصل وإيصال الأفكار؛ وهو المعروف في تركيا بأنه «من جعل التاريخ مسلياً». يُعرِّف إيبر أورتايلي القارئ في هذا الكتاب على رؤية مختلفة عن السلطنة العثمانية وعن الهوية العثمانية والحياة الأسرية للعثمانيين، كما أنه يسلّط الضوء على النظام الإداري العثماني المتطور، والسلاطين، والقصور، والمدن، والمعالم الآثارية البارزة.

ISBN 978-9953-87-838-6
9 789953 878386

TIMAŞ

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

إعادة استكشاف العثمانيين

OSMANLI'YI YENİDEN KEŞFETMEK

إيلبير أورتايلي

ترجمة

بسام شيحا

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الإنكليزية عن الأصل التركي
Re-Discovering The Ottomans
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع
Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
06030 Ulus/ANKARA/TURKEY
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-9953-87-838-6



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

اسطنبول: نسائم الماضي 7
سنان المعماري 19
تجنيد الفتيان 29
العائلة العثمانية 39
الباب العالي 51
الباروك في اسطنبول 61
السلطان محمد الفاتح 71
الغزو 81
المطبخ العثماني 91
كتب الرحّالة والسلطة العثمانية 101
القصور العثمانية وقصر توبكابي 107
أحياء العلماء في اسطنبول 117
السلاطين العثمانيون 127
الباشوات العثمانيون 137
القضاة العثمانيون 149
الديوان 159
السلطان أحمد 169
الولايات المستقلة ضمن النظام الإداري العثماني 179
الآثار العتيقة 187
القسم الداخلي 197
الإمبراطورية الرومانية الأخيرة 207

اسطنبول[1]: نسائم الماضي

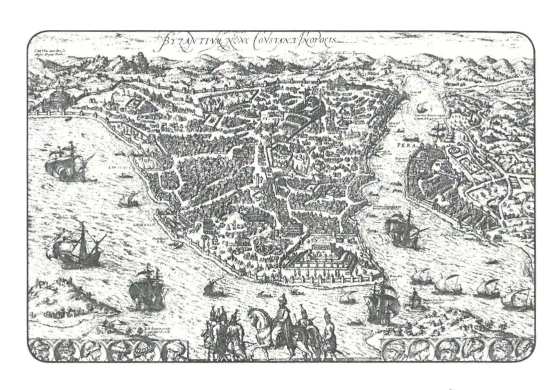
(القسطنطينية، الأرض المحمية)

«Be makam-ı Konstantiniyye el Mahmiyye»

لقرون عديدة، كانت المدينة التي ندعوها الآن اسطنبول تُسمَّى في مراسيم ووثائق السلطنة العثمانية، القسطنطينية؛ أي الأرض المحمية. في الواقع، في جميع أنحاء العالم العربي وعبر التاريخ الإسلامي، احتفظ مركز ما كان يُدعى بالأراضي المحمية بهذا الاسم بشكل جيد. لم ينبذ أحد قط أو يقلل من شأن اسم الحاكم الذي أسَّس هذه المدينة، وليس هناك أي شك في أن هذا الاسم الرسمي لم يكن يُستخدَم فقط لأغراض رسمية، فحتى سقوط السلطنة، كانت بعض الكتب تضع على صفحتها الأولى كليشيه يذكر اسم المدينة التي نشر فيها الكتاب، والتي كانت تسميها القسطنطينية. إن اسطنبول العثمانية لم تجد أي غضاضة في حمل اسم قسطنطين العظيم. من هنا، فلا داعي لأن نبالغ في الحساسية حيال هذا الاسم.

كان من الطبيعي أن يزعج اسم قسطنطين الأتراك خلال الأيام المضطربة لحرب الاستقلال، وذلك لأن اليونانيين، كإحدى القوى المحتلة، حاولوا وضع اسم الملك قسطنطين، حاكم اليونان آنذاك، بدلاً من اسم قسطنطين العظيم القديم. ولهذا السبب حُذف الاسم رسمياً. بالطبع، كانت هذه المدينة العظيمة تحمل الكثير من الأسماء الأخرى. منها، على سبيل المثال، *Nea Roma*، أي روما الجديدة. فالمدينة

(1) قال نابوليون بونابرت الأول في مدح اسطنبول: "لو كان العالم كله دولة واحدة لكانت اسطنبول عاصمته". (المدقق)



الوحيـدة الأخـرى فـي العالم التي كان يمكن مقارنتها من حيث الحجم باسطنبول -بعد تأسيس الأخيرة في القرن الرابع- هي روما في إيطاليا، وبمـا أن اسـطنبول نجحـت فـي أن تصبح مركز سـلطنة قويـة ومزدهرة ومسـتقرة فـي غضـون قرنين من الزمن فقط، فقـد خلَّفت روما الجديدة نظيرتهـا القديمـة بعيـداً وراءهـا؛ لقـد انهـارت رومـا القديمـة، وفَقُرت، وتفككت، وتناقص سكانها في حين بدأت روما الجديدة بالتطور.

بعد قرنين من تأسيس القسـطنطينية، لم تكن هناك أي مدينة أكبر منها، ولم يكن في وسع الإسكندرية المصرية وروما الإيطالية منافستها قطّ. والقدس، بالرغم من كونها مركزاً دينياً هاماً، إلا أنها كانت صغيرة الحجـم. كمـا أن أنطاكيـة لم تعد تُظهر عظمة سـوريا القديمة، في حين تحوّلـت أثينـا إلـى أوابد أثرية. لـم يكن بإمكان أي شـخص إيجاد مدينة بمثـل روعـة اسـطنبول في أي مكان فـي العالم؛ لربما كانت هذه المدن موجـودة فـي الماضـي، مثل دمشـق ما بعد الحكم الأمـوي وبغداد بعد الحكـم العباسـي، ولربمـا كان بالإمـكان اعتبـار مـدن أصفهـان، وقبلها

قزوين[2] ونيشابور، خلال أيام مجدها، مدناً عظيمة، ولكن، ما من شك في أنه لم تكن هناك أي مدينة تضاهي روعة اسطنبول على مدار ألف عام.

في منتصف القرن السادس، قام معماريان هما أنثيميوس من ميليتوس (ميليت جنوب تركيا اليوم) وإسيدوروس من تراليس (آيدن اليوم) ببناء مقام أو كاتدرائية على أرض كنيسة محروقة تُسمَّى هاجيا صوفيا، وتعني الحكمة المبجلة. ولولا أعمال الدعم والترميم الهامة التي قام بها المهندس المعماري سنان[3] في القرن السادس عشر، لربما لم يتمكن هذا المقام من البقاء حتى الآن. وكانت تلك هي المرة الأولى التي ينجح فيها الإنسان في تشييد قبة على أعمدة وقناطر، إذ لم يكن الرومان والبيزنطيون، دع عنك الحضارات الأخرى، قادرين على وضع مخطط بهذا الحجم. وإلى حين تنصيب المعابد العظيمة في القرن السادس عشر والسابع عشر، والتي أضفت جمالاً إضافياً على العاصمة العثمانية الرائعة، لم يكن باستطاعة أي بناء آخر مضاهاة هاجيا صوفيا من حيث ارتفاعها وحجم قبتها.

بالطبع، ينبغي لنا ألا ننسى الفن المعماري لعصر النهضة في إيطاليا، ولكن، على الأقل، استطاعت اسطنبول ومعبدها العظيم الاستحواذ على اهتمام الأمم الأخرى لما يقرب من ألف عام. كان الذهاب إلى اسطنبول يُعتبَر ضرباً من الحظ السعيد. لقد اعتبر بعض الأفراد المحظوظين من إيطاليا واليونان وبلاد الشام والقوقاز وشبه جزيرة القرم وأقاصي روسيا،

(2) تبعد 130 كيلومتراً غرب مدينة طهران، ترتفع 1800 متر فوق مستوى سطح البحر، وتتمتع بمناخ بارد ولكنه جاف. كانت المدينة موقع عاصمة الإمبراطورية الفارسية. وفيها أكثر من 2000 معلم معماري تاريخي (المدقق)

(3) هو سنان آغا أشهر معماري عثماني عاش في القرن العاشر الهجري في أوج العصر الذهبي للسلطنة العثمانية، يقول عنه هـ كوك استاذ العمارة في جامعة فيينا إنه "تفوق فنياً على مايكل أنجلو، صاحب أكبر اسم فني في الحضارة الأوروبية". (المدقق)

وحتى من اسكاندنافيا؛ التي كانت آنذاك مأهولة بمجتمعات تعيش على الصيد وجمع النباتات القابلة للأكل فقط، أن حصولهم على فرصة للسفر إلى اسطنبول هو بمثابة نعمة من الله. ودعونا لا ننسى جماعة الروس والسويديين -أو الفارانجيين كما يُدعَون- الذين كانوا جزءاً من الحرس الإمبراطوري في الإمبراطورية البيزنطية. وكذلك هناك أولئك الروس الذين جاؤوا إلى المدينة بغرض الزيارة الدينية وأعربوا عن إعجابهم وذهولهم الشديد بالمدينة.

في القارة الأوروبية بأكملها، لم تكن هناك مدينة واحدة قادرة على منافسة اسطنبول، أو القسطنطينية كما كانت تُعرَف حينئذ. كان عدد سكان مدينة كولونيا، في عصرها الذهبي، يبلغ عشرة آلاف فقط. ومع أن إيطاليا كانت موطناً لعدد من المدن المترامية الأطراف، ولكن حتى هناك، كان على البندقية الجميلة وبيزا وروما القديمة وفلورنسا الناشئة أن تنتظر حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر كي تنافس اسطنبول. لقد كان من المستحيل مضاهاة نُصُب اسطنبول التاريخية أيضاً، ولهذا السبب، كان الناس في زمن السلطنة العثمانية، يكتفون بالإشارة إليها بكلمة بوليس (*polis*)، الكلمة اليونانية المقابلة لكلمة مدينة، بالطريقة نفسها التي كانت تُسمَّى فيها المدينة في زمن أبعد في القدم أُربيس (*urbis*)، الكلمة اللاتينية المرادفة لها.

نتيجة لذلك، أصبحت كلمة ستينبولي (*Stinpoli*)، والتي تعني "إلى المدينة" أو "من المدينة"، الاسم القديم لاسطنبول، والذي ترسَّخ خلال حصار الأمويين للمدينة. ومع الوقت، بدأ الأتراك باستخدام كلمة أخرى مشابهة للاسم القديم للمدينة. ففي القرن الثامن عشر، استُخدم اسم إسلامبول في بعض النقوش وشواهد القبور، وبالتأكيد في بعض المراسيم والسجلات. وهذه كانت إشارة واضحة إلى أَسلَمَة المدينة، بيد أن هذا المصطلح كان يعكس الاهتمام الإثني الفريد للقرن الثامن

عشر ولم يعش طويلاً، إذ إنه اختفى من الاستعمال بحلول القرن التاسع عشر.

كانت اسطنبول العثمانية رائعة ومليئة بالأشياء المثيرة ما جعل انتباه الشرق والغرب ينصبُّ عليها. صحيح أنه كانت هناك مدن تعج بالسكان مثلها في إيران، وبصفة خاصة أصفهان، ودلهي في الهند المسلمة، وفي آسيا الوسطى، لكن غنى اسطنبول وفنها المعماري الأصيل ومكتباتها، وليس سكانها، كانت تجذب الانتباه إليها. كانت قوافل الجمال تنقل الكتب إلى المدينة بصورة دائمة ما جعل مكتباتها تفيض بالكتب.

أدى غنى اسطنبول إلى ظهور أسماء متنوعة للمدينة في لغات أمم مختلفة؛ دار السيادة، دار السعادة، الباب العالي، مقر الخلافة، وبوابة النعيم، كلها أسماء ظل الناس العاديون يستخدمونها حتى سقوط السلطنة. في الواقع، إن أسماء اسطنبول لا تُحصى. إن اسمها في اللغات السلافية هو تسارغراد، أي المدينة التي يعيش فيها القيصر أو السلطان. وعلى حدّ علمي، لا تزال لوحة مواعيد الرحلات في قاعة الانتظار في مطار صوفيا تشير إلى اسطنبول باسم تسارغراد.

ولأن كل هذه الأسماء استُخدمت من أجل المدينة الأعظم في العالم لمدة ألف عام، ينبغي لنا ألا نرفض أياً منها. أقوام كثيرة أرادت الاستيلاء عليها، لكن أسوارها العظيمة حالت دون تحقيق ذلك. لقد استولى العثمانيون على هذه المدينة باستخدام المدافع -أي الأسلحة الفردية للعصر الحديث- ثم دافعوا عنها. في البداية، حوَّلوا الكنائس الكبيرة القديمة إلى مساجد، وهو إجراء محافظ أنتجته الضرورة، ثم راحوا يبنون مساجد جديدة، وقد بلغت عملية البناء ذروتها في القرن السادس عشر.

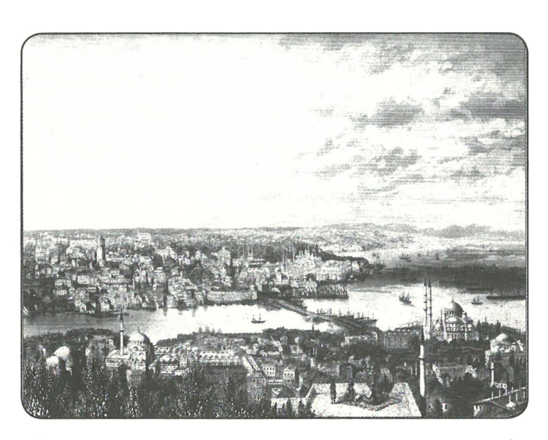
اتَّبعت اسطنبول سياسة إسكان تناسب احتياجاتها؛ فمن أجل زيادة

عدد سكانها، لم يُجلَب فقط المسلمون بالقوة من الأناضول، وإنما أيضاً المسيحيون اليونانيون الذين يتحدثون اللغة التركية من منطقة كارامان في الأناضول الأوسـط، وبعد ذلك جُلب الناطقون باللغة باليونانية، وأخيراً الأرمن. وعلى الرغم أن اسطنبول لم تكن تحتل مكانة خاصة في تاريخ الأرمن وسلطتهم الدينية، إلا أنها اتُّخذت مقراً لبطريركية الأرمن جميعاً، مع ما يسلتزم ذلك من ملحقات تنظيمية.

نتيجة للهجرة اليهودية الكثيفة في القرنين الخامس عشر والسادس عشـر، أصبحت اسـطنبول وسـالونيكي أهم مركزين لليهود في العالم. هنالك عدة أسماء لاسطنبول تدل على أن المدينة لا تزال موجودة في أسـاطير وحكايـات شـعوب مختلفـة، حتـى في يومنا هذا، ليسـت هناك مدينـة أخـرى تُذكَـر بهذا القدر في التراث الفولكلوري لأمم أخرى مثل اسطنبول؛ ينبغي بالتأكيد التشديد على هذا الجانب.

كانت اسـطنبول مدينة للاحتفال وإقامة المراسـم الرسـمية، إذ في الحقيقـة، ليـس هنـاك أي مـكان نجـد فيـه مـا يشـبه التقاليـد والطقوس الرسـمية التـي نجدهـا فـي اسـطنبول. فـي القـرن السـادس عشـر، كان البروتوكول الإسباني مهيمناً على جميع القصور الأوروبية، في حين لم تبدأ قواعد السـلوك الملكية الفرنسـية بالتأثير في الأمم الأخرى إلا في عهد الملك لويس الرابع عشر، واستمرت إلى نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر.

في أثناء حضوره اجتماعاً لمدراء الجامعات في أواخر الأربعينيات، قـال المديـر السـابق لجامعة اسـطنبول، أسـتاذي الراحل صدّيق سـامي أونـار: "جامعتـي هـي الجامعة الأقدم، وأنا أمثلهـا، لذا، فإن موقعي في البروتوكـول يجـب أن يُوضَـع على هذا الأسـاس". كان من الطبيعي أن تضطـر جامعـات مثـل السـوربون وبـراغ وكامبـردج إلى منح اسـطنبول



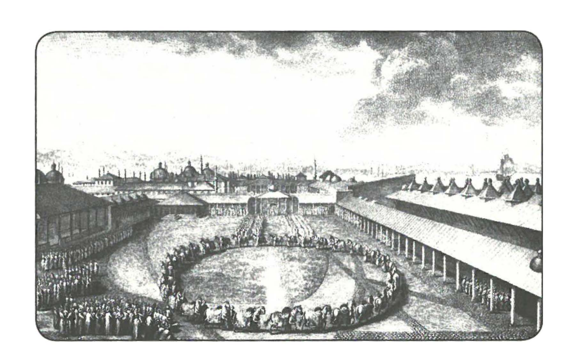
الأولويـة، وهـي التـي امتلكت جامعة منذ عهد ثيودوسـيوس الثاني، أي في القرن الخامس.

خلال العصور الوسـطى بأكملها، كانت القسـطنطينية، التي نعرفها أيضـاً باسـم الإمبراطوريـة البيزنطيـة، المـكان الوحيـد الذي يثير دهشـة الشـعوب الأخـرى التـي حاولـت بدورهـا مضاهاتها. أُلِّفـت كتب حول موضـوع المراسـم فـي هـذه المدينـة كي تطّلـع عليها الأقـوام الأخرى. حتى الأباطرة أنفسـهم ألَّفوا كتباً حول شـكل المراسـم، مثل كتاب *De Ceremoniis Aulae Byzantinae* الـذي كتبـه الإمبراطـور قسـطنطين بورفيروجينيتـوس فـي القـرن العاشـر. وليـس هنـاك شـك فـي أن هـذا البروتوكـول الإمبراطـوري اسـتمر ضمـن التقاليـد العثمانيـة مـن القـرن الخامس عشر فصاعداً.

كيـف كان الحاكـم يعيـش فـي هـذه المدينـة؟ كيـف كان تواصله اليومـي مـع رجـال السياسـة في البلاط؟ كيـف كان يأكل؟ وكيف كانت

تجري بعض المراسم في مناسبات محددة، وخاصة المراسم المصاحبة للمسير إلى صلاة الجمعة؟ كل هذه الأسئلة وهذه الأمور كتب عنها بشكل مفصل ودقيق. كانت هذه المراسم هامة جداً، ليس فقط بالنسبة إلى الشعب في السلطنة، وإنما بالنسبة إلى العالم الإسلامي بأسره أيضاً. كان يوم الجمعة، إلى جانب كونه يوماً للمراسم، اليوم الذي يظهر فيه وجه العدالة، حيث كان الناس من الطبقات الدنيا في المجتمع - غالباً من القرى البعيدة- يتصلون بالحاكم وزوّاره. ولم تكن طلبات الاسترحام -وكانت تُسمَّى الرِكاب السلطاني (*Rıkab-ı Humayun*)- التي كان الناس يقدِّمونها من خلال الإمساك بسرج حصان السلطان خلال مروره، تقتصر على الأتراك فقط، إذ كانت هنالك طلبات مكتوبة باللغات اليونانية والسلافية. وقد استمر هذا التقليد حتى القرن التاسع عشر، وهذه الالتماسات متوفرة في الأرشيفات.

إذاً، كما نرى، فالسلطنة كانت سلطنة عالمية مترامية الأطراف واسطنبول كانت عاصمتها، وكل واحدة من هذه المراسم كانت تمثل فرصة لإظهار هذه السمة. على سبيل المثال، كانت رواتب القوات الإنكشارية تُوزَّع كل ثلاثة أشهر من خلال مراسم احتفالية تُقام في قصر السلطان بالتحديد. كان راتب كل جندي إنكشاري يوضَع في حقيبة جلدية، وكان كبار الضباط والجنود من جميع الفرق يجتمعون في المكان. على الرغم من أن صيحة الحرب (*gülbank*) والصيحة التي كانت تُطلَق أثناء توزيع الرواتب (*gulgule*) كانتا تصدران من حناجر آلاف الجنود، إلا أنهما كانتا متناغمتين إلى حد كبير. تستخدم كلمة *gulgule* في اللغة التركية المعاصرة للإشارة إلى ضجيج أو جلبة غير منتظمة، لكن آنذاك، كانت الحالة مغايرة تماماً. لطالما أذهلَ هذا الاحتفال، والشعارات التي كانت تُنشَد خلال توزيع الرواتب، المبعوثين الأجانب المتواجدين في باحة القصر. أما بالنسبة إلى مراسم تتويج



السلطان، فقد كان يُحتفَل بها من خلال موكب يمر عبر المدينة؛ فبعد أن يضع السلطان سيفه في حي أيوب، يسير موكبه متَّبعاً طريقاً برياً أو مائياً يُفترَض أن يُرى من أي جزء في المدينة.

وفي منتصف شهر رمضان، كان السلطان، خليفة المسلمين، يقوم بزيارة شعائرية إلى القسم الذي يحتوي على الأمانات المقدسة في القصر، وبعد ذلك يسير موكب العباءة المقدسة وسط عرض احتفالي فخم. وبعد انتهاء هذه المراسم الدينية، كانت صواني البقلاوة الملفوفة بأقمشة حريرية والمعدة للتوزيع على صفوف قوات كابيكيولو[4] (*Kapıkulu Corps*) توضَع أمام المطبخ السلطاني، حيث كانت تُخصَّص صينية واحدة لكل عشرة جنود. وبعد أن يأخذ رئيس حاملي الأسلحة وحاشيته أول صينية من هذه الهدايا الرمضانية باسم السلطان، والذي يُعتبَر الجندي الانكشاري الأول، يأتي جنديان من كل فرقة ويأخذان واحدة من الصواني بطريقة انضباطية ثم يخرجان من البوابة يقودهما

(4) هذه القوات تمثل الجيش الدائم في الإمبراطورية، وكانت تتبع للسلطان مباشرة. (المترجم)

أفـراد بـارزون مـن قسـمهم مثل المشـرف على خدم وجـواري القصر، وحامل الماء، والمسؤول عن المراسم. ومن هناك يتجه موكب البقلاوة إلى الثكنات بصورة كرنفالية مهيبة وتحت وقع صيحات *gulgule*، مارّاً عبـر الحشـود المهلِّلـة المصطفة على امتداد شـارع الديـوان. وفي اليوم التالي، تعاد الصواني والأقمشة الحريرية إلى القصر من جديد.

كانت تُقام حفلات زفاف للسلطانات، أي بنات السلاطين، ولكن ليـس للأمـراء، مـع أن الأخيريـن كانـوا يحظون بحفلات باذخـة احتفاءً بختانهم. وهذه الحفلات كانت مناسبة أخرى لإطلاق صرخات *gulgule* وإقامة عروض مسـرفة لجنود المدينة وحرفييها وعلماء المسـلمين فيها. وفي سياق هذه الاحتفالات كان سكان اسطنبول العاديون يتدفقون إلى الشـوارع، وكذلك مقدمو الحركات البهلوانية والحرفيون، فيتجسـد نوع من المعرض لمنتجات الحرفيين بهذه الطريقة.

كل هذه كانت تقاليد شرقية عمرها ألف عام. كانت هناك احتفالات مشابهة تُقام في إيران والإمبراطورية البيزنطية، لكن الأكثر بذخاً وتعقيداً فيها هي التي كانت تجري في اسـطنبول العثمانية. غير أن هذه التقاليد تغيَّرت في القرن التاسـع عشـر، ودخلت اسـطنبول مرحلة جديدة اتخذ فيهـا تواصـل السـلطان مـع العامـة شـكلاً مختلفـاً، ولكن مع اسـتمرار التقاليد القديمة. على سبيل المثال، كان جميع الناس يشاهدون مراسم يـوم الجمعـة، ومـن بينهم النسـاء حيث كانت تُحضَّـر لهن غرف خاصة كـي يتمكَّـنَّ مـن مشـاهدتها. ولم يكن الجنود الذيـن يقدمون التحية في مراسـم يوم الجمعة من المسـلمين فقط، بل كان بينهم مجندون ورقباء وملازمون غير مسـلمين أيضاً. وذلك لأن السـلطان الذي يقود مراسـم يوم الجمعة كان يمثِّل، من الناحية الرمزية، الحاكم الأخير لجميع هذه الجماعات الأرضية. ونتيجة لذلك، كان يتوجب على هذه الجماعات أن تعبِّر عن امتنانها للحاكم. وفي الوقت نفسه، ترسَّخَ من خلال مراسم يوم

الجمعة بروتوكول سلطاني، وبذلك أصبح ممكناً بالنسبة إلى السفراء وحتى الأجانب الذين لا يملكون أي صفة رسمية أن يحضروا هذا الاحتفال.

على سبيل المثال، كان يمكن للمرء أن يرى سيدات أجنبيات ونساء تركيات غير مسلمات متجمعات في إحدى الزوايا يراقبن المراسم. ومن المراسم الهامة الأخرى، هناك ما يُسمَّى بموكب السيف. حاولوا تخيل موكب السلطان المقلَّد سيفه من حي أيوب إلى قلب المدينة حيث يوجد عرشه. ظل هذا الاحتفال عظيم الشأن حتى الأيام الأخيرة من السلطنة، لدرجة أنه كان موضع تقدير ليس فقط بالنسبة إلى المجتمع العثماني، وإنما بالنسبة إلى العالم بأسره أيضاً. خلال الحرب العالمية الأولى، تقلَّد السلطان الأخير سيفه في اليوم الذي تولى فيه العرش وشارك في مراسم التتويج. في تلك الفترة، كانت المدينة تتعرض للقصف من البريطانيين، وكان الناس يرمون المسامير والقنابل بأيديهم العارية. لكن السطان محمد وحيد الدين السادس أعلن من حي أيوب أن المدينة لن تُقصَف في ذلك اليوم، وهذا ما حدث بالفعل. ففي نهاية الأمر، كانت السلطنة العثمانية واحدة من الأمم العظيمة، مع أنها كانت الطرف المعتدي، إلا أن العدو كان يحترم الحاكم وعرشه. في الواقع، إن المراسم التي كانت تجري في اسطنبول، إضافة إلى البروتوكول السلطاني، كانت تمثل نظاماً محترماً من قبل العالم الشرقي كله؛ وهذا يجب التشديد عليه. لسوء الحظ، لم تجر بحوث كثيرة حول موضوع البروتوكول السلطاني، مع أن أهميته تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم.

حتى القرن التاسع عشر، كان في وسع اسطنبول أن تنظر باستعلاء إلى المدن الأخرى بسبب جمالها. لو استطاع الأتراك أن يوحدوا جهودهم، لربما سيصبح بإمكانها أن تفعل ذلك من جديد. فأين يمكن للمرء أن يجد مدينة أخرى بمثل هذا الجمال وهذه الإمكانية للتطوير؟

مدينـة تمتلـك مثـل هذا الإرث الغني؟ أي مدينة تمتلك مثل هذا الظل؟ إن جمـال اسـطنبول يفتـن العالم بأسـره، في حيـن أن فوضاها الداخلية تعذب قاطنيها. خلال السنوات الخمسين الماضية، فُعل كل شيء لتدمير جمالها، ومع ذلك فهي لا تزال جذابة.

لهذا السبب، يجب الحفاظ جيداً على المناطق التي كانت تجري فيها هذه المراسـم والاحتفالات في اسـطنبول؛ أي امتداد الشـارع الذي ندعوه شـارع الديوان من السـلطان أحمد وإلى سـاحة بيازيد ومنطقتيْ أكساراي والسليمانية على الأقل. لسوء الحظ، لم تتم المحافظة على هذه المناطق. وإن لم تكن هناك قدرة على حماية هذه الشـوارع والأماكن، فلن يكون بالإمكان حماية وفهم وإعادة إحياء تاريخ السـلطنة العثمانية الـذي يبلـغ سـتة قرون، خمسـة قـرون منها تركَّزت حول اسـطنبول، أو ألـف عـام من التاريـخ الروماني. وتقع على عاتق الأتراك مهمة الحفاظ على هذا التاريخ الطويل. أولئك الذين يملكون هذه الأرض لا يملكون امتيـازات معينة وحسـب، وإنما أيضاً واجبـات محددة ينبغي لهم الوفاء بهـا، وأعبـاء يجـب أن يتحملوهـا. إن حماية هذه المنطقة التي تقع على مساحة ثلاثة كيلومترات مربعة واجب ملزم.

سنان المعماري

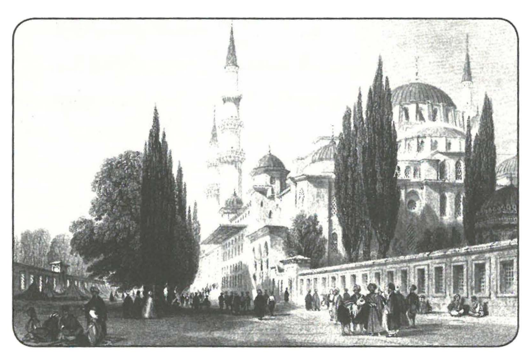
تُعـرَف حقبـة السـلطان سـليمان القانوني، أو سـليمان العظيم كما يُشار إليه في الغرب، بأنها ذروة السلطنة العثمانية، ولعلها الحقبة الأهم في التاريخ التركي بأكمله. يقدِّر بعضهم أن الحقبة الذهبية من السلطنة العثمانية دامت قرنين ونصف، ويقسِّـمون التاريخ المتبقي للسـلطنة إلى مرحلـة تأسـيس ومرحلـة انحـدار. ومـع أن تركيزنـا هنـا لا ينصبُّ على المزايـا الجغرافيـة والتاريخيـة للإمبراطوريـات، إلا أنـه مـن المؤكـد أن مرحلة حكم السـلطان سـليمان ليسـت المرحلة الوحيدة التي يُنظَر إليها بشـيء مـن الحنيـن. فقـد اعتُبر عهد السـلطان سـليمان الـذي دام أربعة وأربعيـن عامـاً نموذجـاً يُحتذى لقرون عديدة، وهـذه النظرة بقيت حتى اليوم بفضل أسـلوب وشـعور وحتى نقد الكثير من المؤرخين والكتاب المتنوعين في مجال السياسة.

أما بالنسـبة إلى الأدب، فقد أنتجت هذه المرحلة أعظم الشـعراء فـي التاريـخ الأدبي العثمانـي والتركي. ولا نزال حتى اليوم نحاول فهم حقيقـة هؤلاء الأشـخاص، واهتماماتهم، والمزايـا التي جعلتهم يحتلون هذه المكانة. غالباً ما نسـمع هذه العبارة المتأسـفة: "لم يعد هناك أحد يقرأ الكتب القديمة". ولكن، ليس خطأ هذه الكتب أنها لا تُقرَأ، بل خطأ أولئـك الشـبان الأتراك الذين يتحدثـون ويكتبون بمفردات لا تزيد على ألف كلمة (أغلبها من اللغة التركية الحديثة)، وخطأ البالغين والمعلِّمين الذين ربَّوا هؤلاء الشبان بهذه الطريقة. أنا من المعتقدين بشدة أننا، نحن الأتـراك، حالمـا نبدأ بمعرفة المزيد حـول أدبنا ولغتنا وبإجراء الأبحاث بفعاليـة أكبـر، فسـيُنظَر إلـى هذه الكتب القديمة على أنها كنوز تسـتحق

إعادة الاكتشاف. فكِّروا فقط في أن السلطان سليمان القانوني والسلطانة هوريم -السلطان الذي يستحق بحق لقب إمبراطور وزوجته المفضلة- أَلَّفا قصائد تحمل بعض القيمة خلال عصر أولئك الشعراء العظماء. في تلك الحقبة، عاش أيضاً بعض كبار الرسامين والفنانين البارعين في فن المنمنمات. وكانت آلاف الكتب تُنقَل عبر القوافل إلى اسطنبول من مختلف مناطق الشرق إلى أن امتلأت مكتبات المدينة بأهم المخطوطات الشرقية. لكن اسطنبول لم تقتصر على الاهتمام بالشرق فقط، إذ كانت تجمع الأعمال الفنية القيِّمة من الغرب أيضاً. لقد نجح إبراهيم باشا[5] -الذي كان واحداً من وزراء السلطان سليمان المفضَّلين، لكنه أصبح في نهاية المطاف خصماً له في السياسة فتحوَّل من "ابراهيم المقبول" إلى "ابراهيم المقتول"- إلى حدٍّ ما في جلب الذوق الفينيسي (نسبةً إلى فينيسيا) وعصر النهضة إلى اسطنبول. على سبيل المثال، عندما عاد ابراهيم باشا من حملة موهاكس في المجر (1526)، جلب معه مجموعة تماثيل لأبولو وهرقل وديانا من مقاطعة بودا وقام بتنصيبها أمام القصر الذي يحمل اسمه (يُستخدَم اليوم كمتحف للأعمال الإسلامية)، غير أن هذا التصرف كان مثيراً للجدل إلى حد بعيد ما أحدث تمرداً في نهاية الأمر.

خلال هذه الحقبة، أصبح الفن المعماري التركي أقل تأثُّراً بالخصائص المحلية وأكثر عرضةً للمَركَزَة. عندما تنظر، مثلاً، إلى جامع بُني خلال عهد محمد الفاتح (1432-1481) في اليونان اليوم، كما في موريا أو أثينا أو لونينا، فسترى تأثير المرحلة الأخيرة من الإمبراطورية البيزنطية، مرحلة سلالة باليولوجوس الحاكمة، بل يمكنك إيجاد جوامع مبنية وفق هذا الطراز في اسطنبول نفسها. ولكن، في القرن السادس

(5) باشا (*paşa*) لقبٌ يمنح السلطان مسؤولين مدنيين وعسكريين رفيعي المستوى إياه. (المترجم)



عشر، ظهرت جوامع ومدارس دينية ونوافير مبنية بأسلوب مميز في أنحاء مختلفة من السلطنة، من البوسنة إلى حلب في سوريا وصولاً إلى مصر، وكأنها بُنيت وفق مخطط نموذجي صادر عن وزارة الأشغال العامة. وقد لعب شخص عبقري دوراً محورياً في هذه العملية: إنه المعماري البارع سنان.

من هو المعماري سنان؟ نعرف أنه كان نصرانياً جُنِّد في الجيش السلطاني (دوشرمة). أولئك الفتيان الذين جُنِّدوا في سلاح الهندسة أو المجموعة المَلَكية للمهندسين المعماريين التابعة للجيش كانوا يبدأون خدمتهم العسكرية في وقت متأخر بالمقارنة مع المجندين الإجباريين الآخرين. وذلك لأنه كان يتوجب عليهم أن يصبحوا محترفين أو طلاباً في فن ما أو حرفة معينة. ومع أن الكثير كُتب حول الأصل العرقي لبعض هؤلاء الرجال، إلا أنه من غير الممكن تحديد أصلهم العرقي بطريقة لا لبس فيها. أما بالنسبة إلى سنان، فإنه كان معمارياً يعمل لصالح السلطنة العثمانية، وهو نفسه كان عثمانياً. وهذا ليس كلاماً فارغاً، لأن سنان -كما سنرى لاحقاً- تجاوز بالفعل كل الخصائص

المحلية والصفات العرقية.

بما أنه كان معمارياً مجنَّداً في المجموعة الملكية للمهندسين المعماريين، فهذا يعني بالطبع أنه كان جندياً، بل ضابطاً في الواقع. ولكن، لماذا كان سنان يسافر في أرجاء السلطنة؟ السبب هو أنه خلال الحملات الطويلة، كانت هناك دائماً جسور بحاجة إلى إصلاح. وكان ثمة حاجة دائمة أيضاً، إلى الحفاظ على المخازن والقواعد التي تأوي الجنود، وبالطبع، إضافةً إلى بناء أو ترميم المساجد. ولتنفيذ هذه المشاريع، كان المهندس المعماري مضطراً إلى تطوير المعرفة بالمواد والأشكال الفنية المحلية وتعلُّم كيفية تطبيقها. كما كانت هناك حاجة إلى استخدام حرفيين محليين أيضاً. ولهذا السبب، اكتسب المهندسون المعماريون بسرعة رؤية شاملة وحظوا بمعارف وفرص لا يسعُ طلاب الهندسة المعمارية، حتى في هذه الأيام، إلا أن يحلموا بها.

بالطبع، ليست هناك إمكانية اليوم لأخذ طلاب الهندسة المعمارية إلى إيطالية وإنجلترا ومصر والصين والهند، من أجل مناقشة أعمال فنية يرونها بأم أعينهم، وتقديمهم إلى المهندسين المعماريين والحرفيين العظام في هذه البلدان. من هنا علينا أن نقدِّر كم كان المهندسون المعماريون، مثل سنان، محظوظين ليتعلَّموا مهاراتهم على أرض السلطنة العثمانية، التي كانت تمتد في ذلك الحين على أراضي ثلاث قارّات وتضمُّ الكثير من الحضارات الكبرى في زمنها.

خلال فترة قصيرة جداً من الزمن، أصبح سنان ونظراؤه على دراية ممتازة بالظروف الجغرافية للسلطنة العثمانية بأسرها والمواد الموجودة فيها، وتعلَّموا الأنماط المميزة للحرفيين المحليين، ونجحوا في تطوير فن معماري خاص بهم، لدرجة أن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً في الهندسة المعمارية كي يعرف أن مسجد عثمان شاه في تريكالا في اليونان، والمساجد في حلب، وأبنية معينة في اسطنبول هي أعمال

مهندس معماري واحد، هو سنان. وامتلاك مثل هذا الأسلوب الفريد هو سمة من سمات العباقرة.

من خلال إسهامات سنان وآخرين، مرَّ الفن التركي عبر مرحلة أصبحنا ندعوها الفن العثماني. وهذه المرحلة تزامنت مع حقبة جديدة في إدارة الدولة، حيث شهد القرن السادس عشر تبني نمط في الإدارة أكثر تقليديةً ومحافَظَةً فيما يتعلق بالدين. بدأ الناس بالإقبال على أدب الشرق الأوسط القديم واتباع التعاليم الإسلامية، وذلك لأن أبو السعد أفندي، السلطة الدينية الأعلى في السلطنة (وظيفة سيُعهَد بها لاحقاً إلى شيخ الإسلام) كان يُعتبَر أيضاً السلطة الأعلى في المسائل الأدبية. في تلك الفترة، كانت شخصيات مثل الملا كعبي (*Kaabiz Molla*)، الذي كان يقدّم تفسيراً أشد محافظةً للحياة، تحظى بشعبية واسعة. انتشرت الصوفية في جميع فروع الأدب الشعبي، وكذلك في الشعر والنثر أيضاً. بالطبع، كان من المحتَّم أن يحمل الأدب في ذلك العصر درجة ما من العمق.

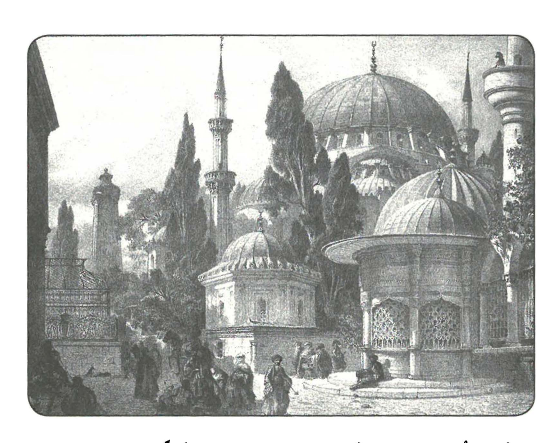
في الواقع، كان يُشار إلى المنطقة الواقعة ضمن حدود السلطنة بالعالم العثماني، وكان ذلك منصفاً في الواقع، إذ كانت حدود السلطنة تمتد من حدود هنغاريا اليوم في الغرب إلى جورجيا في الشرق، ومن سهول أوكرانيا في الشمال إلى مقاطعة هابيش في إثيوبيا المعاصرة. وفي القرن السادس عشر، أُضيفت أراضٍ جديدة هي الجزائر وتونس وليبيا، التي كانت تُسمَّى الولايات الغربية، والأرض الواقعة ضمن حوض البحر الأحمر حتى اليمن، والخليج العربي.

حاول أن تتخيل ذلك: السلطنة التي نتحدث عنها كانت تضم جميع الأديان وعدداً لا يُصدَّق من اللغات. أي شخص حكيم يملك فرصة التجوال في هذه السلطنة، بغرض المعاينة والتعلُّم، لا شك في أنه سيتحوَّل إلى شخص مبدع بصورة استثنائية. حتى في وقتنا الحالي، ليست

هنالـك مجموعـة من البشـر يمكن القول إنهـا تتمتع بمثل هذه الفرصة. كانت السلطنة العثمانية في القرن السادس عشر سلطنة عسكرية، ولكن، على الرغم من قيود الحياة العسكرية، إلا أنها منحت أقلية معينة الفرصة لاكتشاف الكثير من الأشياء وبالتالي التعلُّم بسرعة وابتكار أشياء جديدة. وهـذا المزيـج الهائـل مـن الأديان واللغات والأعـراق كان مختلفاً كثيراً عن حال الإمبراطوريات الاستعمارية في القرنين الثامن عشـر والتاسـع عشر، لأن السلطنة العثمانية كانت دولة كبيرة مؤلفة من مجموعة دول. كان الناس ضمن السـلطنة يتمتعون -نظرياً وعملياً- بمسـاواة عمودية، بمعنـى أن كل قاطـن في السـلطنة كان يملـك الفرصة للترقِّي والوصول إلى منصب في دائرة صنع القرار في مركز الدولة.

لقـد كان هنـاك عـرف يُطبَّـق إلى جانب القانـون الديني، وقد كان المسـيحيون واليهـود يعيشـون فـي ظل قوانين مجتمعيهمـا الخاصة. أما بالنسـبة إلى المجتمع الأرثوذوكسـي اليوناني، فقد بقي القانون البيزنطي بنصوصـه وفقهـه نافـذاً ومحترمـاً، ولهـذا السـبب إننا ندعو تلـك الفترة تركوقراطيـا. وعلـى الرغـم مـن حجم السـلطنة الهائـل، إلا أنه لم يكن هنـاك بـذخ فـي الحياة المدنيـة على النحو الذي سـتُظهره إمبراطوريات العصـر الحديـث. فـي الواقـع، كان مـن بواعث القلـق الكبرى في ذلك الزمـن هـو إمكانيـة أن تؤدي الموارد الهائلة التي جعلت السـلطنة ثريةً، واسـتغلال تلـك المـوارد، إلـى تبـدُّد هيبة المؤسسـات العامـة والحكام والإداريـين واعتيادهـم على أنماط معينة من السـلوك ورفضهم تغييرها. ولهذا السبب ربما، لم يكن قصر توبكابي، على الرغم من أناقته، أجمل مبنى في اسطنبول القرن السادس عشر وأكثرها زخرفةً، على الرغم من أن الجوامع والمدارس الدينية والأسواق المغطاة كانت جذابة بحق من الناحية المعمارية.

بحسـب المـؤرخ العثمانـي الكبير خليل إنالتشـيك، كانـت الدولة



والأرض تُداران من قبل أشخاص يملكون ثروة وأمناً. في القرن السادس عشر، كان دخل أحد المسؤولين عن إحدى المقاطعات (*sanjakbey*)[6] يبلغ 12,000 قطعة ذهبية، بينما كان ثمن عقار أغنى تاجر في بورصة يصل إلى 4,000 قطعة ذهبية. والأشخاص الذين ابتدعوا الأعمال الفنية التي ذكرناها كانوا يملكون هذه الإمكانية المالية. والأمر نفسه ينطبق أيضاً على أفراد فئة العلماء، الذين كانوا يتلقون رواتب كبيرة، واستخدموا ثرواتهم من أجل الترويج لمشاريع فنية جديدة.

لو كنت مهندساً معمارياً في السلطنة العثمانية فهذا لا يعني ببساطة أنك مجرد بنَّاء بارع. فكبير المهندسين المعماريين كان يملك سلطة تخوِّله تحديد ارتفاع المباني، وما إذا كان يمكن لشرفة ما أن تبرز فوق أحد الشوارع، وفي حال انتهاك قرار ما، فإنه كان يستطيع أن يأمر بهدم

(6) *Sanjakbey* لقب أحد البهوات (ضابط رفيع لكنه نادراً ما يكون جنرالاً) في القيادة العسكرية والإدارية لإحدى المقاطعات (*sanjak*). المترجم

المبنى المخالف. هكذا حوفظ على حظر تشييد مباني مرتفعة في ساحة السلطان أحمد، التي كانت مصممة لحماية خزانات المياه في الأسفل، حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولم تظهر مباني تنتهك هذا القرار إلا في القرن العشرين.

كانت المجموعة الملكية للمهندسين المعماريين، في ما يتعلق بمهامها وتنظيمها، جزءاً من الإنكشارية. كل من كان يدخل إلى هذه المنظمة كان يجد نفسه منغمساً في ثقافة معينة، ثقافة البلاط العثماني، ويطوِّر نوعاً متميِّزاً من الشخصية، ذلك النوع الذي أنتج عدة عباقرة عظام.

لا يزال عدد الأعمال الذي أنتجها سنان مثار جدل حتى اليوم. ولا يزال الناس يناقشون مبانيه التي اختفت، والمباني الأخرى التي لا تزال شاهدة على أسلوبه في التصميم. وعلى الرغم من أن أياً من تصاميمه الأولية لم تتمكن من البقاء، إلا أن دفاتر ملاحظاته تحوي بالفعل مخططات ورسوماً صغيرة. ونحن نعلم أيضاً أن سنان المعماري كان يبني يومياً مجسّمات باستخدام مواد تشبه المواد البلاستيكية التي تُستخدَم في ألعاب الأطفال اليوم، وكان يطور هذه المجسمات وفقاً للبيئة الثقافية التي سُتبنَى فيها. ويجب ألا ننسى أنه لم تكن هناك سكك حديدية ولا طائرات في تلك الحقبة التي نتحدث عنها. لذا فقد كان يستحيل على هذا الجنرال المعماري أن يعمل في وقت واحد في أصاقع السلطنة الأربعة، ويشرف شخصياً على تشييد جميع المباني. من الواضح أنه كان يقود مدرسةً معماريةً وأنه كان هناك حرفيون بارعون ومعماريون آخرون ومتدربون أتقنوا أسلوبه وتقنياته.

هذا هو سبب انتشار المباني التي تحمل بصمة سنان، وتعكس رؤيته في مختلف أنحاء السلطنة، حتى في أماكن لم تطأها قدماه. كان سنان مهندساً معمارياً عبقرياً، أضفى أسلوبه الخاص وبيئة المركز العثماني على جغرافية وفن السلطنة بأكملها. اليوم يمكن اعتبار منطقة

السليمانية في اسطنبول، المكان الذي يضم ضريح سنان المتواضع ولكن الرائع، بأنها أوضح مثال على براعة سنان الفنية، بما تُظهره من وحدة أسلوب وأصالة. إن السليمانية، بمساحتها التي لا تتعدى 1.5 كيلومتراً مربعاً، جوهرية بالنسبة إلى هوية أي تركي؛ إنها سند ملكية الأتراك لهذه الأراضي. وموقف المواطنين الأتراك المتكاسل من الفوضى الذي أصاب المدينة ليس أقل من فعل انتحار، فعلٌ سيكون مصدر عار في أعين الأجيال القادمة.

إن القصر الموجود في ساحة السلطان أحمد والشهير باسم المنزل الأخضر، الذي رمَّمه النادي التركي للسياحة والسيارات، يُستخدَم اليوم كفندق. وُضع فيه أثاث من ميلان، بعضه أصلي. هذا النادي واحد من المنظمات الرئيسة القادرة على الحفاظ على جو السلطان أحمد، الذي يتلاشى يوماً بعد يوم. لقد ظهر شارع سوجوكجيشمه، الذي أذكره من أيام طفولتي ككومة من الركام، كمكان يعكس هذا الجو ويمنح زائري اسطنبول بقعة هادئة للإقامة والاسترخاء. أحد المباني في شارع سوجوكجيشمه يضم مكتبةً يمكن اعتبارها أحد كنوز اسطنبول التي لا تُحصَ، وهي المكتبة المفضلة لعاشق اسطنبول وخبيرها جيليك جولرسوي. والذي يجعل هذه المكتبة مميزة هي مجموعتها الغنية من روايات الرحّالة المحليين والأجانب حول اسطنبول والدراسات المتعلقة بالمرحلتين البيزنطية والعثمانية.

لا شك في أن المعْلَم المعماري الأهم الواقع بين هاجيا صوفيا وشارع سوجوكجيشمه هو مدرسة كَفَر آغا (*Kafer Aga*)، التي يعود تاريخها إلى الحقبة الكلاسيكية في التاريخ العثماني (يضع المؤرخون هذه الحقبة بين العام 1300 و1600). يُقيم هذا المبنى، الذي تديره مؤسسة الخدمات الثقافية التركية، معارض ومحاضرات حول الفنون العثمانية مثل فن الخط والترخيم على الورق.

تجنيد الفتيان

مـن المواضيـع التي شـغلت اهتمام الباحثين فـي التاريخ العثماني أكثـر مـن أي موضـوع آخر ممارسـة تجنيد الفتيان فـي الجيش العثماني (أو مـا يُعـرَف بالدوشـرمة *devsirme*). باختصـار، استُحدثت هـذه الممارسـة استجابة للحاجـة إلى دماء شـابة في قـوات *Sipahi* (إحدى فرَق الخيالة السـت في الجيش) والقوات الإنكشـارية، وهما فرعان من جيش *Kapikulu* (جيش السـلطنة الدائم). وكان هؤلاء الفتيان نصارى، إذ ليس هناك أي دليل على تجنيد فتيان يهود. ولم يكن ذلك ناتج عن معاداة للسـامية أو معاداة لليهود، بل لأن اليهود كانوا ببسـاطة مجتمعاً مدنيـاً. كانـت هنـاك عدة مبادئ ناظمة لظاهرة تجنيـد الفتيان، منها عدم تجنيـد فتيـان المـدن، لأنهـم ماكرون ويُحتمَـل أن ينخرطوا في حركات معينـة، ويتبنـوا توجهـات غيـر محبـذة. وكان مـن الممكـن أن يطـوروا شـخصيات وهويـات خاصـة بهـم، فيتعـذَّر على الفرقـة أن تغرس فيهم الهوية المتجانسة الجامعة المطلوبة.

تتـردّد كثيـراً فكـرة غيـر صحيحـة وهـي أن المسـلمين لـم يكونوا يُسـتدعون للتجنيـد. وهـذا صحيـح بصـورة عامـة، ولكـن كانـت هناك استثناءات ذُكـرت بالتفصيـل فـي فقـرة تجنيـد الفتيان (الدوشـرمة) في موسـوعة الإسـلام الموثوقة. في الواقع، كان الفتيان من القرى المسلمة يُجنَّدون لأن القرى كانت تطلب ذلك.

كان تجنيد الفتيان يتم كل بضع سنوات وليس سنوياً، لأن الحاجة إليه كانت تتحدد على أساس عدد الجنود في الجيش. في العموم، كان عـدد الفتيـان المجنديـن يُحدَّد ببضع آلاف. أحياناً، كان العدد يصل إلى

خمسة أو ستة آلاف لكنه لم يكن يتجاوز هذا العدد أبداً. جادل بعض المؤرخين من البلقان وكتّاب نصارى آخرون لم يكونوا قادرين على الاطلاع على المصادر العثمانية بأن العثمانيين كانوا يجنِّدون الجيل الفتي بأكمله في الجيش من أجل تتريكه، فيمنعون بذلك الشباب البلقاني من الثورة أو حتى إعلان الاستقلال. ليس لهذه الأقاويل أي أساس في الواقع وقد دُحضت من قبل مؤرخين آخرين من البلقان اتَّبعوا طرائق مناسبة في البحث التاريخي، مثل فاسيليكي بابوليا من اليونان.

وإذا كانت هنالك حاجة إلى الجنود في مرحلة معينة، فقد كان يُلجَأ أحياناً إلى تجنيد الفتيان من الأناضول الأوسط أيضاً، وليس من البلقان فقط. من المعلوم أن سنان المعماري جُنِّد من هذه المنطقة في المجموعة الملكية للمهندسين المعماريين. وكان تجنيد الفتيان، الذي كان يُطبَّق حتى في منطقة القوقاز، يُنفَّذ من قبل لجنة رسمية ومسؤولين مشهورين بنزاهتهم، يملك الأعضاء فيها فهماً جيداً لمعالم الوجه (*physiognomy*) حيث كانوا قادرين على تقييم الإمكانية الحقيقية لأي صبي. هذه اللجنة والمسؤولون كانوا يزورون مناطق معينة ويجندون الفتيان الذين يعيشون في القرى بصورة خاصة. كما ذُكر آنفاً، لم يكن التجنيد يجري كل سنة، وإنما مرة كل سنتين أو ثلاث، وأحياناً على فترات أبعد من ذلك. ولم يكن مسموحاً للجنة أن تجنِّد أي وحيد لأبويه. في الواقع، كي تتم عملية التجنيد، كان لا بد لسكان أي منطقة أن يمنحوا رضاهم الجماعي أولاً. أعتقد أن هذا الشرط كان يعكس، جزئياً، نوعاً من الاتفاق الضمني لتجنب حدوث صراع، يمكن وصف ذلك كجزء من عقد اجتماعي.

بعض القرى كانت فقيرة جداً لدرجة أنها كانت لا تملك أي أمل في المستقبل. ففي أماكن مثل القرى الجبلية في القوقاز وشكودر في ألبانيا، كان من الصعب إطعام الأطفال وتأمين عمل لهم عندما يكبرون،

لأنـه لـم يكـن هناك حقول لزراعتهـا، ولا حيوانات لرعيها، ولا أدوات. في مثل تلك المناطق، كانت العائلات عملياً تنتظر مجيء لجنة التجنيد بفارغ الصبر.

كانت القرى تمثِّل الهدف المفضَّل بالنسـبة إلى لجنة التجنيد لأن تغيير أديان ولغات الفتيان هناك كان أسهل من أي منطقة أخرى. ولكن، مـن الخطـأ تقليـد الكاتب إيفو أندريتش الذي أشـار فـي روايته الجذابة والمؤثرة، "الجسـر فوق نهر درينا"، إلى أن أطفالاً بعمر ثلاث أو أربع سـنوات كانـوا ببسـاطة يوضَعـون في سـلة على عجل ويُحمَلـون بعيداً. غير أن الصبية في هذا العمر لم يكونوا يُجنَّدون لأنهم كانوا ما يزالون معرَّضيـن للإصابـة بأمـراض الرضَّع، ولـم تكـن الدولة في وضع يمكِّنها من التعامل مع أمراض مثل الحصبة والدفتريا. ولهذا السبب، فإن الدولة كانت تجنِّد من تجاوزوا هذه الأمراض، ومن الأفضل أن يكونوا في عمر الذهاب إلى المدرسة. وعلى هذا الأساس، فقد كان يجب على الصبي أن يكون أكبر من تسع سنوات كي يتم تجنيده. وفي الوقت نفسه، نادراً ما كان يجري تجنيد فتيان تجاوزوا سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، الذيـن يُشـار إليهـم في المصادر بــ *sakalli* (أي الملتحين). كان يُعتقَد أنهم تخطَّوا مرحلة التعلُّم، كما يقول فيرجل: "إذا انحنى الغصين، فإن الشجرة ستنحني أيضاً".

وفـي أحيـان أخـرى، كان يجـري تجنيد فتيان يملكون قـدراً معيناً مـن الخبـرة كصنّـاع أو عمال مسـاعدين في وحدات محددة في الجيش كانـت تتطلـب درجـة عاليـة مـن التخصـص، مثـل المجموعـة الملكية للمهندسـين المعمارييـن، التـي كانـت تنفـذ أعمال التشـييد والتحصين، والفرقـة المسـؤولة عـن حفر الخنادق. ويُعتقّد أن المعماري سـنان كان واحداً من هؤلاء المجندين. في هذه الحالة وفي حالات مشابهة أخرى، لـم يكـن للعـرق أي أهميـة، والدولة العثمانية لم تنظـر أبداً إلى الخلفية

العرقية للمجندين. ولإعطاء مثال واضح على ذلك، كان تجنيد الفتيان في الأناضول الأوسط يُنفَّذ ضمن المجتمع الكراماني (*Karamanli*)، الذين كانوا أتراكاً من الناحية العرقية، ونصارى من الناحية الدينية.

في أغلب الحالات، كان المجندون الصغار في عمر يمكِّنهم من تذكُّر هوياتهم، أي من أين أتوا، ومن كان أبوهم وأمهم وأقرباؤهم. وأحد الأمثلة على ذلك الصربي البوسني محمد سوكولوفيتش. فبعد سنوات طويلة من تجنيده في سياق عملية تجنيد الفتيان، أصبح رئيساً للوزراء باسم سوكولو محمد باشا واستخدم النظام ذاته لإيجاد مناصب في الخدمة المدنية لعائلته بأكملها، حتى أنه عيَّن قريباً له كمحافظ وأتاح لآخر أن يصبح بطريرك الصرب.

هنالك قصة جميلة تُحكى من حين لآخر: في يوم شتوي بارد، أعطت امرأة من جنوب ألبانيا حذاءً مهترئاً لمواطنها أياس محمد. وعندما كبر هذا الشاب وأصبح رئيس وزراء السلطان سليمان العظيم، ملأ الحذاء بالذهب وأعاده للمرأة الفقيرة. توحي هذه القصة بأن الجميع كانوا يعرفون من أين أتوا؛ مع أن الفتيان المجندين، في المقابل، كانوا ينسون لغتهم ودينهم.

بعد تجنيدهم، كان الصبية يُرغمون على المسير -إجراء معقول، لأنهم كانوا أصحاء أولاً، وفي عمر يمكِّنهم من القيام بذلك ثانياً- ومن ثم يُؤتَى بهم إلى مراكز معينة من أجل ختانهم وتصنيفهم وفقاً لصفاتهم. الأذكياء والوسيمون كانوا يُؤخَذون إلى الـ *Enderun* (وتعني حرفياً، الداخل أو القسم الداخلي)، وهي المدرسة الداخلية للنخبة من الفتيان المجندين، لأنهم كانوا سيُدرَّبون على الخدمة في القصر. والمرحلة الختامية التي يُتوقَّع منهم بلوغها هي الـ *Birun* (وتعني حرفياً الخارج أو القسم الخارجي)، والتي كانت تؤهلهم لأن يصبحوا إما حكاماً لإحدى المقاطعات أو الحصول على منصب مشابه ضمن هرمية السلطة في الدولة.

لـم تكـن هنـاك، فعليـاً، أي دولـة أخرى علـى الأرض قادرة على المفاخـرة بنخبتهـا الحاكمـة الشـبيهة بنخبة السـلطنة العثمانية، لأن هذه النخبة كانت تتكون من رجال دولة أذكياء بصورة استثنائية وبلا عيوب من الناحية الجسدية -صفوة الصفوة في الأعراق التي جاؤوا منها. وهذا واضح أيضاً في روايات الرحّالة. في كل تلك الشريحة الكبيرة، لم يكن هناك شخص واحد مريض، لأن أولئك الذين وصلوا إلى ذلك المستوى انتُخبوا بعناية وأُعدُّوا جيداً.

بمـا يناقض اعتقاداً واسـع النطاق، لـم يُؤخَذ جميع الفتيان بالقوة. فكما رأينا، كانت بعض القرى الفقيرة سعيدة جداً بتجنيد فتيانها، لثقتهم أنهـا الطريقـة الوحيدة التي سـتمكِّن أولادهم مـن البقاء على قيد الحياة والارتقاء إلى أرفع المناصب. لا حاجة إلى القول إن بعض الصبية كانوا يصبحـون جنـوداً أو أفـراداً في الجيش الإنكشـاري وينتهي بهم المطاف أمواتـاً فـي الحـروب. فـي حيـن أن آخرين كانوا يواصلـون التقدم حتى يصبحوا رؤساء وزراء ويساهمون في تحديد مصير سلطنة هائلة الحجم، كما حدث مع سوكولو محمد باشا ومحمود باشا، وهو ابن لأب يوناني وأم صربيـة. وهـذا يشـبه مـا يحـدث في هذه الأيام، ففـي حين أن أحد الشبان الذين يدخلون الأكاديمية العسكرية التركية يمكن أن يصبح ذات يوم رئيسـاً للأركان (أو حتى رئيسـاً كما حدث في الماضي)، فإن آخر سـيتقاعد من دون أن يصل إلى رتبة عقيد. وفي مثال آخر، ليس مقدَّراً على كل شـاب ينجح في الوصول إلى كلية العلوم السياسـية الشـهيرة فـي أنقـرة (*Mülkiye*) أن يصبـح سـفيراً أو محافظاً أو مسـاعد وزير، إذ إن بعضهم سيبقون موظفين ثانويين في إدارة محافظة ما.

مثل كلية العلوم السياسـية، لم يكن القسـم الداخلي مدرسـة تشـبه المـدارس التـي نعرفهـا اليـوم، أي تحـوي صفوفـاً وغير ذلـك، بل كان الطـلاب يتلقـون تدريبهـم أثنـاء الخدمـة وينتقلـون مـن قسـم إلى آخر.

فـإذا قابـل العمـل الذي يؤدونه في القصر استحسـاناً لدى المسـؤولين، فسـيُعهَد إليهم بمهمات تقرِّبهم أكثر من السـلطان. في القسـم الداخلي، كان الفتيـان يتلقـون تعليمـاً نظرياً وعمليـاً في الكثير من المواضيع، مثل الرياضة والرسم والأدب وفن الخط.

أتيحت لهؤلاء الفتيان الفرصة للتعلُّم بالقدر الذي تتيحه إمكانياتهم في هذه المواضيع. غير أن هذا لا يعني أن كل صبي كان سيصبح مثقفاً. فـإذا لـم يتلـقَّ أحدهـم مـا يكفي من التعليم أو بـدأ تعليمه عندما أصبح جنديـاً، فإنـه كان سـيظل جاهـلاً حتـى عندما يصبح رئيـس وزراء، كما هـو الحـال مع رامي السـهام (*Kemankeş*) كارا مصطفى باشـا. ولكن، كان هناك أشخاص يتمتعون بتعليم ممتاز بين خرِّيجي القسم الداخلي، مثل محمود باشا وسوكولو محمد باشا المذكورين أعلاه، وسنان باشا. ونجـد أيضـاً نماذج لكتَّاب مثل لطفي باشـا. أمـا الوزير كوبرولو محمد باشا، فعلى الرغم من أنه لم يكن متعلِّماً، إلا أن أولاده كانوا مدرِّسين بارزين في زمنهم.

كانـت اللغـة التركية تُعلَّم لتلاميذ القسـم الداخلي ولأولئك الذين لا يُقبَلون فيه على حدٍّ سـواء، حيث كان هؤلاء الأخيرون يُرسَـلون إلى قـرى حـول اسـطنبول للعيـش مع عائلات تركية مـن أجل هذا الغرض. من الواضح أن الأمر كان يتطلب مدة من الزمن كي يشعر الفتى، الذي نشـأ فـي وسـط بلقانـي ويتحدث لغة بلقانية، أن اللغـة والثقافة العثمانية همـا لغتـه وثقافتـه. كانت المعرفة باللغة التركيـة والدين مكوِّنا هاماً في تعليم فتيان يُتوقَّع أن يصبحوا جنوداً إنكشاريين. بالطبع، لم يكن هؤلاء الفتيـان يُعلَّمـون الجوانب المعقدة فـي الدين التي كانت يأخذها طلاب المـدارس الدينيـة، إذ كان الهـدف الأساسـي مـن تعليمهـم الدينـي هـو تزويدهم بالتقوى الذي يتميز به أي قروي عادي.

تُكتسَـب لغـة وثقافة ما بالصورة الأمثـل بين الناس العاديين. على

سبيل المثال، إذا أراد مراهق، أو مراهقة، أن يتعلَّم اللغة الفرنسية فسيتوجب عليه -باعتقادي- الذهاب إلى منطقة ريفية في فرنسا والعيش مع عائلة ريفية وتعلُّم الثقافة الفرنسية بهذه الطريقة. ليس الجميع قادرين على تعلُّم لغة معينة من خلال دراستها في الجامعة. والمصادر تخبرنا أن الفتيان المجندين كانوا يتعلمون بالتدريج أداء أغاني وصلوات كانت تتردد على ألسنة أناس ذلك الزمن.

لكن، ليس كل الفتيان المجندين كانوا من الريف. ففي بعض الأحيان كانت السلطات تقنع عائلات مميزة لتسليم أبنائها، ممارسةٌ لم تكن تتعارض مع التقاليد العثمانية. حتى أبناء بعض النبلاء البيزنطيين، مثل أبناء عائلتي أورنوسوغلو وميخالوغلو، انضموا إلى الجيش في السنوات الأخيرة للسلطنة العثمانية، وكذلك فعل أفراد من العائلات البيزنطية الحاكمة، مثل مراد باشا من عائلة باليولوجوس وشمسي باشا من عائلة إسفندياروغلو.

بعد الحروب، كان علماء الدين والموظفون المسؤولون عن تطبيق سياسة تجنيد الفتيان يتبعون الطريقة التالية مع العائلات التي ينوون تجنيد الفتيان منها -طريقة اتُّبعت في حالة محمود باشا وسوكولو محمد باشا. كانوا يحاولون إقناع العائلات بالقول: "أعطونا فتاكم وسيصبح مسلماً، وفي هذا خير لكم ولنا". في الواقع، رغم أن سوكولو محمد باشا، الذي بلغ مكانة بارزة في السلطنة العثمانية، كان ينتمي لعائلة دينية متعلمة وشهيرة جداً، إلا أنه أصبح مسلماً مخلصاً، وهي الغاية الأساسية لنظام تجنيد الفتيان.

من الأهمية بمكان أن نفهم بدقة كيف كان يعمل ذلك النظام التعليمي والاستيعابي وكيف تقبَّله المجندون. كانت الجهة المسؤولة عن تجنيد الفتيان مؤسسة مستقلة بذاتها ولها قواعدها وأساليبها الخاصة، ونحن بحاجة إلى دراسة تاريخها بصورة شاملة. كان التلاميذ

يخاطبـون بعضهـم البعض باحترام مسـتخدمين *siz*، الضمير المرادف لـ *vous* بالفرنسية، أي لم يكن هناك أي مكان للامبالاة فيما بينهم. وكان ينبغي لهم أن يظهروا احتراماً شديداً للموظفين المسؤولين عن مهاجعهم ومراقبي المهاجع. وكان ينبغي لهم أيضاً التقيُّد بنظام بالغ الصرامة يحدد لهم أوقات الطعام والاغتسـال والاسـتيقاظ والنوم. البعض كانوا يدعون هـذا النظـام -لسـبب وجيـه- قواعد سـلوك البلاط العثمانـي. وفي هذه النقطـة، مـن الضروري التأكيد علـى أن أفكاراً مزوَّرة مثل "صبي جميل من المدرسة الداخلية" ليس لها أي أساس في الواقع.

تحمل مؤسسة تجنيد الفتيان شبهاً ملفتاً بجمعية يسوع (اليسوعيون) التي أسسها النصارى لاحقاً خلال عصر النهضة. كلتا المؤسستين كانتا تطبقان قواعد صارمة على أفرادها. على سـبيل المثال، كان اليسـوعيون أيضاً يخاطبون بعضهم البعض باستخدام ضمير الجمع *vous*، ولم يكن مسـموحاً للصغـار ضمـن الطائفـة التصرُّف بطريقة غير رسـمية. وكانت هنـاك مراقبـة دائمـة، فـي الليل وخلال النهار، وهذا ينطبق تماماً على ما كان يحصل في المؤسسة العثمانية لتجنيد الفتيان. وبفضل هذا الانضباط في القسـم الداخلي بالذات ترسَّـخت قواعد سـلوك البلاط العثماني في مدة زمنية قصيرة جداً. بالطبع، كان القسـم الداخلي يملك نظيراً نسـائياً أيضاً، يُدعى الحريم.

لـم يكـن يؤتـى بالفتيـات إلى قسـم الحريم فقط مـن أجل مصلحة السـلطان. صحيـح أن الفتيـات اللواتي تمتَّعـن بمواصفات معينة كان من المقدَّر لهن أن يقدَّمن للسـلطان، وأن يُعجَب بهن السـلطان، لكن البقية تبقين وتخدمن في قسم الحريم. كانت تلك الفتيات تتعلمن اللغة التركية والإسـلام وقواعـد سـلوك البـلاط، وبعضهـن كان ينتهـي بهـن المطاف بالزواج برجال ترقّوا من القسم الداخلي إلى القسم الخارجي. من هنا، فعلى الرغم من أنه لا يمكن الادعاء بأن السـلطنة العثمانية كانت تملك

"أرستقراطية وراثية" أو أنها كانت تمنح مستويات السلطة فيها مكانة شرعية سامية ومميزة، فإن المجتمع العثماني كان يشبه مجتمعات أخرى في زمنه في مسألة أنها كلها كانت تشكِّل طبقة نخبة عبر الزواج. وأعضاء هذه الطبقة كانوا يحكمون إلى جانب السلطان طالما كانت حالتهم العقلية والصحية تسمح لهم بذلك. وفي اللحظة التي يفقدون القدرة على الاضطلاع بمسؤولياتهم، فإنهم كانوا يُستبعَدون من هذه الطبقة.

بدأت سياسة تجنيد الفتيان بالتراجع في القرن السابع عشر. وفقاً للمعلومات التي قدمها الرحّالة العثماني الشهير أوليا جلبي، لقد جُنِّد نحو 8,000 فتى خلال حكم مراد الرابع (1612–1640)، في حين انخفض العدد إلى ما يقارب 1,000 صبي في عهد أحمد الثالث (1673–1736). ولكن، ابتداءً من منتصف القرن الثامن عشر، بدأت السلطان بإدخال أتراك أناضوليين إلى هذه الفئة مثل رئيس الوزراء إبراهيم باشا من نفشهير. علاوة على ذلك، إن الوحدة العسكرية المتمركزة في قصر توبكابي، والتي كانت تُعرَف باسم *Zülüflü Baltacilar* (أي حاملو الفؤوس ذوو الضفائر)، كانت دائماً تضم أتراكاً في صفوفها. كان الرجال في هذه الوحدة، مثل البلطجي محمد باشا وخليل حميد باشا من إسبارطة، بالإضافة إلى المجندين المسلمين من القوقاز كانوا يُوضَعون في المهجع الخارجي من القصر. لكن هذه الوحدة أُلغيت في القرن الثامن عشر.

مورست سياسة تجنيد الفتيان من منتصف القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، أي أنها كانت تقليداً اتُّبع لمدة تجاوزت القرنين بقليل من تاريخ السلطنة الذي امتد على مدار ستة قرون. في الواقع، نجحت السلطنة في التغلب على مشاكل أكبر باستخدام أساليب متنوعة تحتاج إلى التحليل كل على حدة.

العائلة العثمانية

مـاذا نعنـي بالعائلـة العثمانيـة؟ بالتأكيـد كان بوسـعي مقاربـة هذا الموضـوع تحـت عنـوان العائلة في المجتمـع العثماني؟ لكنني لم أفعل لسبب وحيد: رغم أننا نتعامل هنا مع سـلطنة -بل آخر الإمبراطوريات التقليديـة، فـي الواقـع- إلا أن المجتمعات المتنوعة ضمن هذه الأرض الشاسـعة كانت تشـترك حقاً في سـمات مشـتركة، مع أنها كانت تدين بأديـان مختلفـة وتتحـدث لغات متنوعة. وأول وأهـم هذه السـمات هي العائلة.

كانت مناطق الاستيطان البشري في السلطنة متنوعة إلى حدٍّ بعيد، مـن الصحـراء العربيـة بقبائلهـا العديدة، إلى المدن الواقعة على سـاحل البلقـان والأدرياتيكـي، إلـى عاصمـة عالم بأكمله مثل اسـطنبول. ونظراً لهـذا التنـوع، فمـن الطبيعـي أن يكـون النـاس واقعين تحـت رحمة بنى اجتماعية شـديدة الاختلاف وأن تظهر مروحة واسـعة من التشـكيلات الاجتماعيـة. مـع ذلـك، فقـد كان هناك تماثل كبيـر ضمن هذا المجتمع فيما يتعلق بالعائلة. سواء ذهبت إلى القرى أو المدن الواقعة على جانبي نهـر الدانـوب، أو إلـى حوض نهر الفرات، أو إلى سـواحل القوقاز، أو صحـراء النجـف فـي العـراق اليـوم، فإنك لـم تكن لتجد فـوارق كثيرة بالنسـبة إلـى تصـورات الناس حـول العائلة، والعلاقات ضمـن العائلة، والدور الذي تلعبه في حياة الفرد.

عندمـا نقـول العائلة العثمانية، فإننـا بالطبع نعني النصارى واليهود تماماً كما نعني المسلمين، الذين يتألفون بدورهم من سنَّة وأتباع مذاهب أخرى تنضوي كلها تحت مظلة الإسلام. في جميع هذه الحالات، كانت

العائلة تمثل أساس المجتمع. لننظر إلى العائلة من منظورَيْن: من منظور الدولـة ومـن منظـور المجتمع. بالنسـبة إلى الدولة، كانـت العائلة تمثل الوحدة الجوهرية، وحدة الإنتاج، وبالتالي الوحدة التي يجب أن تُفرَض عليهـا الضرائـب. وفي القرن التاسـع عشـر، كانـت العائلة هي وحدة ما يُسمَّى بالأخذ عسكر، أي الوحدة الأساسية التي يُجنَّد منها الجنود. وهي أيضاً الوحدة الإدارية التي من خلالها كانت الدولة تتواصل مع رعاياها.

يُقال إن الزيجات بين الرعايا المسلمين كانت تُسجَّل في سجلات المحكمـة، ولكـن مـن الواضـح أنه لم يكن باسـتطاعة الجميع تسـجيل زيجاتهـم بهـذه الطريقـة. المهـم هـو أن الناس كانوا بحاجـة إلى إعلان زيجاتهـم أمـام مجتمعهـم الديني من خلال إقامة احتفال صغير ينسـجم مـع معاييـر ذلـك المجتمـع (كان هـذا تقليداً وليس فرْضـاً إلزامياً). بعد ذلك، يشـكِّل الزوجان، مع أولادهما وأي فرد مسـنّ يعيش في المنزل، عائلة واحدة.

كانـت العائلـة العثمانيـة تملك قوانيـن خاصة بها. أولاً، إنها كانت أبوية التكوين، ولهذا السبب كانت الدولة تسجِّل الأب والأبناء الذكور فقـط علـى لائحـة دافعي الضرائـب، وهذا كان ينطبق علـى أتباع جميع الأديـان وليـس على المسـلمين فقط. وكانـت العائلة العثمانية تُبارَك من خلال إجراء ديني. بالنسـبة إلى المسـلمين، كان هذا عبارة عن مراسـم زواج يؤديها شيخ -تقليد جوهري. أما بالنسبة إلى المجتمع النصراني، فكان الزواج يجري بمباركة دينية ويُسجَّل في سجلات الكنيسة، ويشكل الزوجـان عائلـة. وفـي هذه العائلة، عند الوفاة، كانت التركة تُقسَّـم وفقاً لقوانين دينية، رغم أننا نصادف استثناءات مثيرة للاهتمام. عندما نبحث في سجلات المحكمة، فإننا نرى أنه في بعض الحالات طلب أشخاص غير مسلمين تقسيم التركة وفقاً للقواعد الإسلامية المتعلقة بالإرث. على سـبيل المثال، في العائلات الأرمنية كانت عقارات المتوفي تُقسَّـم على

الزوجة والأبناء والبنات وفقاً لهذه القواعد. لماذا؟ لأن قواعد وأسلوب الحياة عند هذين المجتمعين كانت شديدة التشابه، حيث كانت البنت هي التي تُطلَب للزواج وتنال مهراً عند الزواج. بكلمات أخرى، إن التشابه في نمط الحياة أنتج وحدةً في الإجراءات القانونية ومقاربةً متشابهة لتقسيم الأراضي.

ليس هناك شك في أن العنصر الأهم في صياغة العائلة في هذا المجتمع هي المرأة. ظهرت نظريات متعددة، مشكوك بصحتها، تتعلق بمكانة المرأة التركية العثمانية. وقد تكون هذه الأفكار غير الصحيحة ناتجة عن سوء فهم المصادر العثمانية أو مجرد ردود أفعال متحيزة. صحيح أن المرأة كانت تحتل مكانة ثانوية في العائلة العثمانية، لكن هذا الوضع كان ينطبق على الأتراك المسلمين والعرب والأرمن واليونانيين. ولكن، من الخطأ حتماً وضع مكانة ونمط حياة المرأة في الجزيرة العربية النائية في مجموعة واحدة مع ظروفها في البوسنة وعلى ضفتي الدانوب وفي الأناضول الأوسط.

من هذه الأفكار غير الصحيحة، فكرة المرأة الحبيسة. ففي المجتمع العثماني، كانت النساء تخرجن من المنزل وتظهرن في الأماكن العلنية. ورغم وجود استثناءات وحساسيات محلية معينة، إلا أن النساء كانت في العادة تخرجن إلى الأسواق، وخاصة في اسطنبول والبلدات الصغيرة في السلطنة. كانت زيارة القبور شائعة بين النساء. وقد ذكر الرحّالة الألماني سالومون شويغر هذا الأمر في سياق تعليقه على وضع المرأة العثمانية في كتابه "وصف جديد لرحلة من ألمانيا إلى القسطنطينية والقدس" الصادر في القرن السادس عشر. بحسب شويغر، لم يكن الرجل التركي في وضع يمكِّنه من رعاية زوجتين. وعندما كان ينفصل أحد الأزواج، فإن الطفل -وخاصة الفتاة- كان يُعطى للمرأة. وبيّن شويغر أيضاً أن المرأة كانت تتمتع بحرية الحركة. هكذا شاهد

كاتب قروسطي شخصياً وضع المرأة العثمانية، ولكن من المثير للانتباه حقاً أن يعتبر هذا البروتستانتي الألماني المحافظ أن المرأة العثمانية كانت تتمتع بحرية الحركة ضمن هذا المجتمع.

يُقال إن العائلة العثمانية تجسِّد النموذج المجتمعي للعائلة، أو بكلمات أخرى، إنها عائلة كبيرة. لكنه وصف سوسيولوجي غير دقيق إلى حدٍّ ما. ثمة افتراض واسع بأن نموذج العائلة الكبرى كان سائداً في المجتمعات الزراعية، لكن الحالة كانت مغايرة في الواقع. ففي مدن مثل اسطنبول، في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، كان النموذج السائد هو العائلة الصغرى، التي تتألف من الأم والأب والأولاد.

لكن، على الرغم من أن نموذج العائلة الصغرى كان سائداً في السلطنة العثمانية، إلا أن الدور المحوري كان يلعبه الجوار. وهذا كان يجري بطرق متنوعة. على سبيل المثال، لم يكن باستطاعة عائلة ما أن تقيم في حي معين إلا بعد موافقة بقية الجيران. أي أن الجيران كانوا يتمتعون بالحق في مراقبة هذه العائلة، وتحذيرها في حال قامت بأي تصرف غير مناسب، وحتى طردها من الحي. والإجراء الأخير حدث بالفعل، ففي نهاية القرن السادس عشر، كان أول سفير لإنكلترا في السلطنة العثمانية، إدوارد بارتون، الذي أُرسل من قبل الملكة إليزابيث، يقيم في حي توبهان في اسطنبول، وكان هذا السفير، الذي يعشق الحياة السارَّة، معتاد على تنظيم حفلات مسائية صاخبة جداً تُقدَّم فيها المشروبات. وفي نهاية المطاف، اجتمع سكان الحي وقدَّموا التماساً ونجحوا في طرد السفير. حصل ذلك قبل معاهدة ويستفاليا (1648)، أي أن الحصانات والاستثناءات الدبلوماسية لم تكن موجودة بعد، ولكن من المثير للدهشة أن الشخص المطرود من الحي كان سفيراً لملكة. وقد حدث الأمر ذاته مع تاجر أجنبي آخر. باختصار، كانت راحة وانسجام الحي أمراً بالغ الأهمية.

علاوة على ذلك، يُظهر لنا هذا أن التماثل والانسجام في أسلوب الحياة والثقافة أمر ممكن. في مناطق كثيرة، كان الناس الذين يعيشون في منازل خشبية يحاولون عدم التشاجر بصوت عالٍ، لأنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة إليهم ألا يسمع الجيران. بكلمات بسيطة، كان الناس يقطنون ضمن حي ما كي يعيشون مع أناس آخرين، وهذه كانت سمة هامة جداً في الحياة العثمانية.

السمة الثانية (والأشد أهمية) هي أن الحي، الذي يضم عائلات مختلفة، كان يملك منزلة قانونية بحد ذاته. على سبيل المثال، كانت هنالك ضرائب إضافية (تُدعى *avariz-i divaniye*) تُفرَض في أوقات استثنائية على العائلات الكبيرة. ما نريد قوله هو أنه كانت هناك وحدة مالية (*avariz hanesi*) مكونة من عدة منازل. ولهذا السبب، كان من الضروري العيش في حي.

السمة الثالثة هي أن أشخاصاً ضمن الحي كانوا يتحمَّلون مسؤولية المرافق العامة مثل صنبور الماء ونظام التصريف والإجراءات الوقائية ضد الحريق. (في الواقع، لم يكن يُتَّخذ الكثير من الإجراءات الوقائية، رغم ضرورة ذلك). وبشكل خاص عندما يكون هناك خطر على السلامة العامة، إذ كان بعض الأشخاص يتطوعون لتحمُّل مسؤولية مراقبة الحي. وكانت هذه ميزة بالغة الأهمية من مزايا الحي، رغم أن هذا الأمر لم يكن يملك أساساً قانونياً، إلا أنه كعُرْف كان يملك ثقلاً أكبر في الواقع. وكان الأثرياء والفقراء يعيشون معاً في الأحياء، لأن الحي يمثل كتلةً وُجدت ليس على أساس ظروف اقتصادية وإنما على أساس الدين المشترك والانتماء الديني؛ في هذه الوحدة كان الأثرياء يحمون الفقراء قدر الإمكان.

كان المواليد الجدد يُحتضَنون من قبل الحي بأكمله. فما إن يولد طفل، أو طفلة، كان سكان الحي يأتون للإعراب عن أمانيهم الطيبة

للعائلة، ويساعدون الأم الجديدة إذا كان أفراد عائلتها غير قادرين مادياً. وكان الطفل يكبر ويذهب إلى المدرسة المحلية. وإذا لم يقصد الطفل المدرسة التعليمية الدينية المحلية، سواء أكانت مدرسة إسلامية أو بيت مدراش يهودية، فإن العائلة كانت تُقابَل بالانتقاد من قبل مجتمعها الديني، الذي كان، بالمقابل، يهنئ الطلاب الناجحين.

كانت مسؤولية إتمام الزواج في الحي تقع على عاتق المجتمع الديني الذي يتبع إليه الثنائي المقدم على الزواج. ومن المؤكد أنه كان هناك أشخاص يهتمّون بترتيبات جنازة الشخص المتوفي. ولم يكن يُترَك أي شخص لوحده في حال المرض، إذ كان الجميع قادرين على إيجاد الدعم والمساعدة عند الأزمات. وكانت فكرة "ماذا سيقول الجيران؟" تمثّل عرفاً مجتمعياً جوهرياً. إلى أن أنشأت الدولة فرقةً فعلية لمكافحة الرذيلة، خلال حكم عبد الحميد الثاني (1842-1918)، ظل سكان الحي يفرضون ضغطاً على أي مجموعة تعيش بطريقة فوضوية. لكننا اليوم، بسبب الظروف الاقتصادية، والانتقال للعيش في شقق طابقية، والتغيُّر في طريقة الحياة، نقوم بهدم وإلغاء المؤسسة التي تُدعى الحي. بل حتى الأشخاص الذين يعيشون في شقة واحدة لا يرغبون بالعيش معاً أو لا يعرفون معنى أن يعيشوا معاً.

في الواقع العملي، شهدت العائلة العثمانية تطوراً كبيراً. قد يبدو مفهوما العائلة والتطور مفهومين متناقضين بمعنى أن العائلة مؤسسة لا يمكن فهمها وتعريفها بصورة وافية ضمن السياق التاريخي. ولكن، رغم أنها المؤسسة الأشد تأثيراً ومحافظةً ضمن المجتمع الإنساني، فقد خضعت لقانون التطور.

كان أفراد العائلة العثمانية التقليدية يعيشون معاً مع أقربائهم وجيرانهم. وعلى هذا الأساس كانت العائلة تتعامل مع الأنشطة والتغييرات الاقتصادية، حيث كان أفرادها يساندون بعضهم. لكن هذا

النظام بدأ بالتداعي في القرن التاسع عشر نتيجةً لظهور المدن الكبيرة وازدياد ظاهرة الهجرة. مع ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن تركيا، مثل جميع المجتمعات الشرق أوسطية، وبعكس المجتمعات الأوروبية، لا تزال واحدة من أكثر المجتمعات محافظةً فيما يتعلق بالعائلة. عندما تخفق المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية، أو تكون غير قادرة على التطور، فإن العائلة تلعب دوراً شديد الأهمية. في الواقع، في تركيا اليوم، ومع أزماتها الاقتصادية المتكررة، فقد أصبح واضحاً للكثير من العائلات أن من الأفضل لها أن يعيش ثلاثة من أجيالها معاً. في مثل هذه العائلات المتعددة الأجيال التي تواجه أزمة اقتصادية، سيحصل الأولاد على رعاية أفضل وتعليم أفضل، وسيكون أفراد العائلة قادرين على التأقلم مع تكاليف العيش العالية من خلال الأكل من قدْر واحد. لسوء الحظ، إننا نجعل من هذه الحلول، بالتدريج، حلولاً غير ممكنة من خلال السماح للاختلافات في وجهات النظر تجاه العالم بالتطور لتصبح انقساماً بين أفراد العائلة. على أي حال، فإن الطبقة الوسطى التركية، وفق المنظور الاقتصادي، لا تزال غير قادرة على المحافظة على نموذج العائلة الصغرى. كلنا ندرك ذلك.

* * *

بمعنى من المعاني، كانت العائلة هي المدرسة الحقيقية في المجتمع العثماني، بما أنها كانت المكان الذي يُربّى فيه الصغار، بفضل ومساعدة الجيل الثالث بالطبع. عندما ننظر إلى سجلات الضرائب التي كانت تُفرَض على الأراضي، فإننا نرى أن دافعي الضرائب الأساسيين هم الذكور في العائلة وأن أي أرض يمكن حراثتها بواسطة زوج من الثيران كانت تُقسَّم بين هؤلاء الأفراد الذكور. كانت العائلة (التي تتضمن الأقرباء) تمثل وحدة إنتاج بصورة أساسية، وهذا كان ينطبق على سكان المدن أيضاً. كان الحرفيون في البازار يدربّون أقرباءهم أو

أشـخاصاً يعرفونهم من مسـقط رأسـهم. ولهذا السـبب، لم تكن المهن في المجتمعات القديمة، كالمجتمع العثماني، أماكن يجتمع فيها الناس بالمصادفة. ومع ازدياد استخدام الناس لأقربائهم كمتدربين أو مساعدين، أصبحت المهن تكتسـب صفة عرقية. فعلى سـبيل المثال، كان الأرمن جواهريين، واليونانيون نجّارين، والسوريون معماريين وصاغة فضة.

مـن المبهـج أن نعـرف أن الأتراك كانوا بارعين بما كانوا يفعلونه، سـواء أكانـوا نافخـي زجـاج أو صانعي زجاج ملـوَّن. وهذا واضح من السجلات المحفوظة في مكتبة السليمانية. لقد تعلَّم الناس أن يتناولوا الطعـام ضمـن العائلـة، ومضـى وقـت طويل قبل أن تظهـر المأكولات التركيـة، ومأكـولات الشـعوب الأخـرى ضمـن السـلطنة العثمانية، في السـوق، أي أن تُقَّـدم فـي المطاعـم. ومـازال الوضع علـى حاله اليوم. فعلـى الرغـم مـن وجود 70,000 أرمنـي في تركيا، فهل هناك أي موقع تجـاري، أي مطعـم، يمكـن للأتراك فيه أن يتذوقوا المأكولات الأرمنية الأصليـة؟ لا تـزال هـذه المأكولات، مثل المأكـولات العثمانية بصورة عامـة، تُقـدَّم داخـل المنـزل، ولعـل هـذا هـو الفـرق الأهـم بيـن تركيا والمجتمعات الأوروبية الغربية.

في المجتمع العثماني، كان أفراد جميع المجتمعات الدينية يتربَّون على الحكايات الخرافية، وهذه الأسـاطير كانت تحمل شـبهاً ملفتاً فيما بينهـا. ولـم تكـن المدرسـة أو الصحافة هما المسـؤولتان عن ذلك، بل العائلة، التي كانت تنقل عناصر الثقافة الشـعبية من الكبار إلى الصغار، من الجدَّات إلى الأحفاد، وهلم جراً.

علينـا ألا ننسـى أيضـاً أن العائلة كانت الملجأ الأساسـي لأفرادها أثنـاء الأزمـات. وما تزال العائلة العثمانية، المحافظة والحامية، موجودة حتى في وقتنا الحاضر. صحيح أن البطالة ظاهرة غير سـارّة، ولكن لا بـد أن نعتـرف أن السـبب في عدم تحوّل هـذه الظاهرة إلى حالة كارثية

مرعبة، كما هو الحال في المجتمعات الأوروبية الغربية الثرية، يعود لمؤسسة العائلة ودورها الحامي والمحتضن.

بدأت العائلة العثمانية بالتغيُّر في مرحلة الإصلاح الحكومي والإداري، التي تُعرَف بمرحلة *Tanzimat* (1839–1876). ولم يتضمن هذا التغيُّر الانتقال نحو نموذج العائلة الصغرى فقط وإنما تحوُّل الأوضاع الاقتصادية ضمن العائلة أيضاً. فبدأت النساء، تدريجياً، بالمشاركة في الحياة الاجتماعية، وتعلَّمن وأصبحن مدرِّسات، وبعد ذلك ساهمن في ميادين أخرى في الحياة العامة. منذ ذلك الحين، أصبح أفراد العائلة يكسبون عيشهم بهذه الطريقة، لكن هذا التحول أدى إلى احتكاكات وانقسامات بين العائلة الصغرى وأفراد الأجيال التي لم تكن تنتمي إلى تلك العائلة النواة، وبذلك أصبحت القضايا العائلة مسألة قانونية. ولتسهيل الزواج وتخفيف أعبائه المادية، وُضعت قوانين جديدة، مثل قانون منع الإسراف. وقد حظرت هذه القوانين التبذير في مراسم الزفاف، حيث خفَّضت في البداية قيمة المهر ثم منعت كل هذه الإنفاقات معاً. وفي نهاية المطاف، أُسِّست إدارة لتسجيل السكان فأصبح كل أفراد العائلة مسجلين في دوائر الدولة. كما جرى الاعتراف رسمياً بالعائلة باعتبارها الوحدة القانونية الرئيسة في المجتمع. ورغم إبطال مرسوم القانون العائلي التقدمي في العام 1919، إلا أن القانون التركي كان يزداد توافقاً مع معايير القانون الروماني –عملية اقتراب قانونية من الغرب بلغت أوجها مع تبنِّي القانون المدني في العام 1926. ومنذ ذلك الحين، أصبح الفرد والعائلة هم الأشخاص القانونيين الأساسيين بالنسبة إلى أهداف هذا القانون.

بالنسبة إلى العائلة العثمانية، كان الطلاق يمثل أبغض الإجراءات القانونية. بحسب الشريعة الإسلامية والعرف العثماني، أي امرأة تريد الحصول على الطلاق كانت بحاجة إلى إثبات وجود ظروف قاهرة،

حالة ما تزال موجودة ضمن القانون المدني الحالي. الإفراط الدائم في شرب الخمر من الحالات التي تبرر الطلاق. على سبيل المثال، قد يَعِدُ الزوج بألا يفرط في الشرب بقوله، "إذا أفرطت في الشرب، فإننا سنتطلَّق". وبعد ذلك، إذا خالف هذا الوعد وشرب كثيراً، فسيصبح من حق الزوجة أن تطلب الطلاق. ويمكن تشريع الطلاق أيضاً في حال غياب الزوج لفترة طويلة جداً أو في حال عدم معرفة مكان تواجده (اتُّخذ هذا الإجراء رداً على وجود حالات انحراف غير مقبولة). وبصرف النظر عن كل هذا، إذا ادّعت الزوجة بأنها وزوجها كانا غير منسجمين بشكل لا يمكن تصحيحه، ووافق زوجها على ذلك، فهذا يجعل طلاقهما جائزاً على الفور. بكلمات أخرى، كان الناس يحصلون على الطلاق في السلطنة العثمانية، وكان من حق الزوجة أن تطلب الطلاق أيضاً. من المعروف أن بنات السلاطين أو بنات أولادهم كان بوسعهن استخدام ما يُسمَّى بحق العصمة، الذي كان يخوِّلهن تطليق أزواجهن. في كل الأحوال، كما في كل المجتمعات التقليدية، لم يكن الطلاق أمراً مستحَباً في جميع الظروف. ولكن، يجب ألا نعتقد أنه كان بمقدور الرجل تطليق زوجته بسهولة تامة، فالطلاق كان أكثر صعوبة مما هو الآن، لأن الرجل كان يُسأَل عن السبب. وهذا كان يجعله يتصرف بحذر. وفي بعض الأحيان، كان هذا يعني أن يستمر بعض الرجال في العيش مع زوجاتهم رغم عدم وجود أي انسجام فيما بينهم.

كان الأطفال يوضَعون تحت رعاية أبويهم، فإذا لم يكن هناك أبوان، فعندئذ كان يتم تعيين وصيّ عليهم. هذا لا يعني أنه لم يكن هناك أطفال يُترَكون في الشوارع. لكنهم كانوا يُسلَّمون إلى امرأة لترعاهم مقابل أجر معين. ما نريد قوله أنه جرى وضع إجراء وقائي للتعامل مع هذه الأوضاع. ولكن، في تركيا اليوم، ما يزال هناك آلاف

الأطفال اليتامى يعيشون في الشوارع. وأعتقد أنه من المخزي أن يستمر الأتراك كمجتمع في عيش حياتهم من دون أن يقوموا بواجبهم تجاه هؤلاء الأطفال.

في القرن التاسع عشر، شهدت المجتمعات غير المسلمة بصفة خاصة نمواً ملحوظاً، بفضل مؤسسات رعاية اليتامى والمؤسسات الخيرية التي أنشؤوها، وليس هناك شك في أن بعض هذه المؤسسات كانت تتعامل مع الأطفال والعائلات على وجه التحديد. ينبغي لنا هنا ألا ننسى أن المجتمع العثماني بصفة عامة كان يتَّسم بالتواضع الشديد، رغم أن المسلمين والمسيحيين لم يكونوا يترددون في بناء المؤسسات الخيرية الضرورية.

* * *

ما حدث في القرن التاسع عشر أيضاً هو أن التعليم وتطور العائلة، وخصوصاً تعليم النساء والفتيات، أصبحا عرفين اجتماعيين. كان الناس يقولبون أنفسهم على نموذج العائلات التي كانوا يشاهدونها في كتب القواعد الأجنبية، مثل السيد والسيدة براون في الكتب الإنكليزية والسيد والسيدة دوفال في الفرنسية. أي أنهم كانوا يتوقون للحصول على منازل جيدة الإضاءة والتدفئة يعيش فيها طفلان وأمهما وأبوهما مع جدِّين عجوزين، وحيث يقرأ الناس الكتب وتقوم النساء بأعمال التطريز في المساء. كانت هذه هي صورة العائلة التي كانت تُقدَّم في الكتب المدرسية، وقد أدى ذلك بالناس إلى الشعور بالازدراء نحو جوِّهم العائلي، المنازل الخشبية الوسخة في أكسراي في اسطنبول القديمة حيث كانت تجتمع النساء، في حين كان الرجال يلجؤون للمقاهي المحلية هرباً منها. هذه هي الإيديولوجية المنقولة عبر تلك الكتب المدرسية التي حوَّلت بسرعة نموذج العائلة الكبرى، أي العائلة التي كانت تضم ثلاثة أجيال يعيشون معاً، إلى العائلة الصغرى. ولكن،

لسوء الحظ، لم يكن هذا التحول ناجحاً بسبب الظروف الاقتصادية لتركيا الحديثة.

إن ما يُسمَّى بالعائلة العثمانية، التي كانت تتألف من جيلين أو ثلاثة أجيال يعيشون معاً، وتمنح قيمة عظيمة للعلاقات بين أفراد الأسرة، وتملك جذوراً راسخة بقوة في الحي، تستحق اهتمامنا بكل تأكيد. إنه نموذج ساد في مختلف أنحاء العالم العثماني، ولهذا السبب نسمِّيه العائلة العثمانية. يتَّسم هذا النموذج بأشكال تواصل ومخاطبة مميزة يمكن سماعها في الشارع أيضاً. فالناس في تركيا، مهما كان دينهم، يخاطبون النساء المتقدمات في السن بلقب خالة، والرجال المسنِّين بلقب عم، والأصغر سناً بأخ. علاوة على ذلك، يُلاحَظ أن الناس الذين هاجروا من السلطنة العثمانية أخذوا هذه التقاليد معهم، حتى إلى أماكن بعيدة مثل أميركا. لم يكن هؤلاء الناس يتخيَّلون أن سكان حي ما لا يقيمون علاقات وثيقة بين بعضهم البعض، وهذا أحد الأشياء التي يشتكي منها بمرارة المهاجرون الأتراك في أوروبا وأميركا.

يُنظَر إلى العائلة على أنها مؤسسة محافظة، وثمة سبب وجيه لذلك. صحيح أنه ليس للأنظمة السياسية علاقة كبيرة بها، ولكن هذا لا يعني أن التطورات الاقتصادية خلال القرن الماضي كان لها تأثير ثانوي على العائلة، بل العكس صحيح بالتأكيد. مع ذلك، إذا كان الناس ما يزالون ينظرون بحنين إلى الماضي، فسيتوجب علينا أن نسأل أنفسنا ما إذا كنا نفعل صواباً بمواصلة السير على الطريق الذي نتبعه. الهندسة الاجتماعية والعائلة لا تتوافقان، عبارة أثبتت صحتها أحداث الماضي.

الباب العالي

كانت عبارة الباب العالي معروفة للأتراك ذات يوم بأنها اسم المنطقة التي تضم مكاتب الصحف في اسطنبول. ولكن، منذ أن جرى نقل تلك المكاتب إلى ضواحي المدينة، مثل ضاحية إيكيتيلي، لم نعد نسمع اسم الباب العالي كثيراً، وفي هذا الأيام إنه لا يُستخدَم أبداً كمرادف للمؤسسات الصحفية.

على الرغم من أن الناس من جيلي كانوا يعتقدون أن الباب العالي هو اسم المنطقة التي كانت تحوي الصحافة التركية، إلا أن الاسم في عالم القرن التاسع عشر كان يُفهَم على الفور على أنه يعني الدولة والحكومة العثمانية. والترجمات المتنوعة للعبارة، مثل *Sublime Porte*، *Hohepforte*، و*Verhovniy Dvor*، كانت تحمل المضمون نفسه. ومن التقارير والمراسلات الدبلوماسية، يمكننا أن نرى بوضوح أن الدولة والحكومة العثمانية كانتا تُعرَّفان بهذا المصطلح، في سياق تعابير مثل "يطالب الباب العالي"، "يتصرف الباب العالي بتلك الطريقة"، "الباب العالي متردد".

وفي أزمنة أكثر قدماً، كانت العبارة تعني الحكومة ببساطة. بالفعل، خلال المرحلة الصفوية (1501/ 1502–1722) والقاجارية (1794–1925) في إيران، كانت المباني الحكومية في أصفهان وقزوين، والتي كانت تُسيطر عليها عائلات تركية، تُسمَّى *Ali Kapi* (الباب العالي)، صيغة محرَّفة من *Bab-ı âli*. في الواقع، من المرجَّح أن يكون أصل المصطلح المستخدَم في إيران تركياً أكثر من ذاك الذي كان يستخدمه العثمانيون؛ ولكن، ليس مؤكداً ما إذا كانت مؤسسة الحكومة في إيران

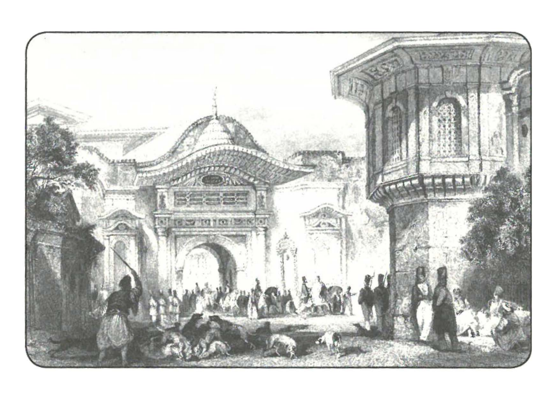
معترَف بها قانونياً كنظيرتها في السلطنة العثمانية.

لا يزال باستطاعتنا اليوم رؤية الباب العالي القديم -بوابة ضخمة- إذا مشينا من سيركجي في اتجاه حديقة جولهان. إنه يقع مقابل قصر ألاي ومحكمة أمن الدولة السابقة. لحسن الحظ، لا تزال البوابة خشبية. ويوجد خلفها حديقة تحوي مديرية الأرشيفات العثمانية التابعة لرئاسة الوزراء، وهو مبنىً صُمِّم من قبل الأخوة فوساتي من أكاديمية بريرا في ميلان. تعرَّض هذا المبنى الرائع لحريق كبير في العام 1911 أدى إلى إتلاف عدد هائل من الوثائق التاريخية. وكان مهدداً بحريق آخر منذ بضع سنوات عندما احترق مبنى مديرية المالية المجاور.

في الحقيقة، الباب العالي[7] معتاد على الحرائق، فقد نجا من عدة حرائق في القرن الثامن عشر. ففي العام 1808، دافع رئيس الوزراء عالمدار مصطفى باشا عن نفسه وعن محظيته من قسم الحريم، مزوّداً بمسدس فقط، في وجه جنود إنكشاريين هاجموا قصره. وفي النهاية، أشعل النار في مستودع الأسلحة وفجَّر القصر، وبداخله مئات الجنود الإنكشاريين (تُلاحَظ مثل هذه الحوادث الانتحارية بين الحين والآخر في التقاليد السياسية التركي). وبعد هذه الحادثة، أُعيد بناء قصر رئيس الوزراء والبوابة، لكن مرحلة الإصلاح الحكومي والإداري مثَّلت نهاية الباب العالي الخشبي. ففي العام 1844، أُنجز المبنى المشيَّد من الحجارة والآجر، الذي يمثل اليوم مقر حاكم اسطنبول، والذي كان في السابق مقراً لرئيس الوزراء.

---

(7) ملاحظة المترجم: رغم أن مصطلح *Bab-ı âli* يعني حرفياً "الباب العالي" وقد يدل فقط على المدخل الفيزيائي للبلاط العثماني، إلا أنه كان أيضاً يُستخدَم مجازاً للدلالة على حكومة السلطان أو السلطان أو عاصمة الإمبراطورية العثمانية اسطنبول. إضافة إلى ذلك، في السنوات الأخيرة من الإمبراطورية أصبح الباب العالي يدل على المبنى الذي يعمل فيه رئيس الوزراء، وهذا هو المعنى الذي يستخدمه الكاتب هنا.



فـي الأزمنـة العثمانية، كان البـاب العالي هو المكان الذي يتدرَّب فيه الطلاب الراغبون بالعمل لصالح الدولة. لهذا السبب، كانت عبارات مثل أفندي الباب العالي وكاتب الباب العالي تدل على موظفين مدنيين شبان متلهفين لاحتلال مواقع قيادية في إدارة الدولة. وفي تلك الفترة أيضـاً، دخلـت عبـارات أخرى، تحمل معاني إيجابية وسـلبية، إلى اللغة التركيـة، منهـا *Bab-ı âli zihniyeti* (ذهنيـة الباب العالي)، و*Bab-ı âli ikiyüzlülügü* (نفـاق البـاب العالـي)، و*Bab-ı âli efendiligi* (تهذيب الباب العالي)، و*Bab-ı âli tavrı* (موقف الباب العالي).

كانـت السـلطنة تُظهـر نفسـها بأشـكال ملموسـة في منطقـة الباب العالـي، رغـم أن هـذه المبانـي، حتـى بداية القرن التاسـع عشـر، كانت قليلة العدد في حقيقة الأمر. كان قصر توبكابي (يعني حرفياً قصر بوابة المدفع)، ويُعرَف أيضاً باسم *Saray-ı Amire* (يعني حرفياً قصر العليِّ)، مقر الاقامة الخاصة للسلطان، لكنه كان محاطاً ببضع مبانٍ ذات وظائف إضافيـة. كان قسـم الحريـم يشـغل الجزء الأول مـن المجمع، لأنه كان

المنزل الفعلي للسلطان.

مـن المفيـد أن نسـأل إذا كان القسـم الداخلـي والأقسـام الأخرى من القصر تتمتع بأي نوع من المكانة القانونية كمؤسسات. قد يبدو أن الغرفـة التـي تُعـرَف باسـم *Kubbealtı* (تحت القبَّـة) كانت مجرد مكان يناقش فيه كبار الشخصيات شؤون الدولة، بيد أنها -وكانت تُعرَف أيضاً باسـم الديوان (أو المجلس) السـلطاني- في الوقت نفسـه كانت واحدة من أكثر المؤسسات استمرارية وتأثيراً في السلطنة العثمانية. دعونا نركِّز على هذا الديوان قليلاً.

كان من بين أعضاء الديوان السلطاني، رئيس الوزراء وكبار القضاة العسـكريين (*kazaskers*)[8] فـي الأناضـول وروميليـا (أي تقريباً أراضي منطقة ثريس في اليونان وتركيا وبلغاريا اليوم). غير أن شيخ الإسلام – ابتداءً من القرن السادس عشر– لم يكن عضواً دائماً في الديوان ولم يكن يشـارك في اجتماعاته، رغم أنه كان يشـغل منصباً رسـمياً كرئيس لعلماء المسـلمين. بالطبع، كان الوزير الأول والثاني والثالث والرابع حاضرين في اجتماعات الديوان، وكذلك أدميرال الأسطول البحري وآغا الجنود الإنكشـاريين. ولـم يكن ما يُسـمَّى بالنيشـنجي *nişancı* (البارع في رمي السـهام بتعبير هذه الأيام) سـكرتير الديوان السـلطاني فقط، وإنما أيضاً الرجل المسـؤول عن الحفاظ على سـجلات سـندات الملكية والتعامل مـع المراسـلات الأجنبيـة والمحلية المتعلقـة بالدولة. هؤلاء هم أعضاء الديوان الإمبراطوري، حيث كانت تُناقَش القضايا الحساسة.

مـرة في الأسـبوع، مـن بعد ظهر يوم الجمعة،كان الديوان يسـتمع لطلبات تتعلق بقضايا جرى معالجتها في مكان آخر. في بعض الأحيان، تكون القضية قد وصلت إلى طريق مسـدود؛ وفي أحيان أخرى، يسـعى

(8) ملاحظة المترجم: كان القاضي العسكري (*kazasker*) القاضي العسكري الأول وعضواً قيادياً في النظام القضائي الإسلامي في الوقت نفسه.

بعض الأشخاص عبر هذه الالتماسات لتصحيح أحكام سابقة يعتقدون أنها لم تكن عادلة. وكان الديوان يعالج هذه الطلبات على الفور بصرف النظر عن سبب تقديمها.

كان الديوان مؤسسة إدارية تمثل السلطنة. وكانت المكاتب التي يعمل فيها الموظفون تقع بالقرب من الغرفة التي تستقبل اجتماع الديوان السلطاني. أي أن قصر توبكاي لم يكن مجرد مقرٍّ لإقامة السلطان، بل كان يملك وظائف هامة أخرى. ومنذ القرن السابع عشر، أصبح مكتب ومحل إقامة رئيس الوزراء -أي الباب العالي- يشغل الموقع نفسه، ولا بد من التشديد على أن منزل رئيس الوزراء لم يكن فقط المكان الذي يعيش فيه هذا الرجل، بل كان أيضاً مكتباً يعمل فيه أفراد من العامة وبعض الموظفين الحكوميين.

قبل القرن التاسع عشر، كان كبار المسؤولين في الدولة العثمانية، بمن فيهم رئيس الوزراء، يملكون عدداً معيناً من الخدم، المعروفين باسم *kapı halkı*، وكانوا يدفعون لهم من ميزانيتهم الخاصة. وكان هؤلاء الخدم يقدمون مساعدة كبيرة لرئيس الوزراء، إلى جانب الأعمال المنزلية، حيث إن بعضهم كان يساعده في الاهتمام بشؤون الدولة. ولكن، ليس كل مستخدَم في الباب العالي كان يتقاضى أجره من أموال رئيس الوزراء الخاصة.

في الأزمنة العثمانية، كان مبنى الباب العالي أضخم بكثير من الذي نراه اليوم وكان يضم عدداً هائلاً من المكاتب الحكومية، بما فيها خزانة الدولة. في تلك الأيام، مع أنه لم يكن هناك وزارة للشؤون الخارجية، ولكن كان هناك مسؤولون يهتمون بالشؤون الخارجية وكانوا يمارسون عملهم في الباب العالي. وكان يشرف عليهم مسؤول يُسمَّى رئيس الكتّاب، الذي كان يُعتبَر خبيراً في الدبلوماسية الأجنبية. وازدادت قيمة هذه الخبرة عندما دخلت السلطنة في مفاوضات تتعلق بمعاهدة

كارلويتز (1699). صحيح أن نتائج سلبية تمخضت عن هذه المعاهدة، التي تخلّى فيها العثمانيون عن أراضي شاسعة لمملكة هابسبورغ وقوى أخرى أقل قوة، إلا أنها عبَّدت الطريق أمام بعض التطورات الهامة.

هنـاك مبنـىً هـام آخر يُدعـى *Ağa kapısı*، (باب الآغا)، وهو مقر إقامة رئيس الجيش الإنكشاري على مقربة من جامع السليمانية، والذي أصبح مقراً لمكتب شيخ الإسلام بعد العام 1826، ولاحقاً أصبح يُدعى *Meşihatü'l-İslamiyye* أو *Bab-ı Meşıhat*، وكلاهمـا يعنيـان مكتـب شـيخ الإسـلام. وبعد تأسيس الجمهورية التركية، أصبح المبنى يُستخدَم كمكتب للمفتي، وهو المسؤول عن شؤون المسلمين.

اليـوم يوجـد فـي المبنـى أرشـيف بالغ الأهمية، ألا وهو سـجلات المحكمة الإسلامية. وما تزال الوثائق مخزَّنة في خزانات صنعها السلطان عبد الحميد خان الثاني (1848-1918)، السلطان الرابع والثلاثون، الشهير بكونه نجاراً بارعاً. يمكن للمرء أن يجد في هذه الوثائق معلومات غزيرة عن التاريخ الاجتماعي والثقافي والقانوني للسلطنة ومدنها الأساسية. في الواقع، إن حجم الأرشـيف هائل بحيث يسـتحيل تحليل وترجمة جميع المـواد الموجـودة فيـه. لنأمل أن يتم إجراء نسـخ مطابقة عن الوثائق في أقـرب فرصـة ممكنـة، لحمايتها مـن الاهتراء على أيـدي الباحثين. بهذه الطريقة سيكون لدى مؤرخي السلطنة العثمانية، ليس في اسطنبول فقط وإنما في العالم بأسره، فرصة للعمل عليها.

وكان هناك مكتب حكومي آخر هو مكتب أدميرال الأسطول، وكان يقع في حي قاسـم باشـا البعيد عن قصر توبكابي. تحوَّل هذا المكتب تدريجيـاً إلـى مكتـب البحريـة (*Bahriye Nezareti*) وهـو يُدعـى اليوم مكتب أدميرال الأسـطول الشـمالي (*Donanma Saha Komutanliği*). والأدميرال، الذي يعيش في هذا المبنى، مسؤول عمليات القوات البحرية في بحر مرمرة والبوسفور. من المثير للاهتمام أن شيخ الإسلام لم يكن

يملـك مقـر إقامة رسـمياً حيـث كان منزله يُعتبَر مـكان عمله أيضاً. كما رأينا، كانت السلطنة العثمانية تجعل وجودها محسوساً من خلال المباني المذكـورة أعـلاه. علاوة على ذلك، أصبحت عباراتٌ مثل الباب العالي وبـاب الدولـة (*devlet kapısı*) بشـكل تدريجـي تُطبَّـق في المحافظات أيضـاً. وبشـكل مشـابه، غالبـاً ما كان يُطلَق علـى المحاكم في الولايات أو مكتب قائم المقام اسم القلعة. على سبيل المثال، يُطلَق على مكتب الحكومة المحلية في سافرانبولو في منطقة البحر الأسود اسم القلعة منذ زمـن بعيـد. لسـوء الحظ، تضرر هـذا المبنى الجميل الجاثم فوق هضبة بفعـل حريـق أصابـه وهو قيد الترميم الآن. أما من أجل ماذا سيُسـتخدَم في المستقبل، فهذا ما لا علم لي به[9].

عندما تخرج من الباب العالي وتمشي صعوداً باتجاه قمة التلة فإنك ستصادف ما كانت في البداية وزارة المالية قبل أن تتحول إلى مكتب الإيرادات. عاني هذا المبنى أيضاً من حريق، ثم أُعيد ترميمه وسُلِّم إلى شـرطة اسـطنبول. يوجد خلفه أرشـيف حكومي لكن سـعة المبنى الذي يحـوي هـذا الأرشـيف غيـر كافية ولا يُحضَّر مبنى جديـد لمعالجة هذه المشكلة. يظهر أن تركيا واسطنبول غير قادرتين على الحفاظ على إرث سلطنة دامت ستة قرون؛ غير قادرتين على حفظ أرشيفها. في الماضي، كانت البلدان القوية مثل السلطنة العثمانية تحتفظ بالأرشيفات المتعلقة بالشـؤون الخارجيـة، لأن هـذه الـدول كانت تتبادل السـفراء فيما بينها، الأمر الذي لم يكن يحصل مع الدول الصغيرة. الدول الكبرى فقط مثل إنكلترا، النمسا-المجر، روسيا، فرنسا، السلطنة العثمانية، ألمانيا، إيطاليا وإسبانيا كانت تقوم بذلك، وكان السفراء يُمنَحون صلاحيات واسعة.

كان ينبغـي أن توجـد سـفارات هـذه الـدول فـي البـاب العالـي، ولكـن، لسـبب مـا، بعـد الحقبة البيزنطيـة، باتت الـدول الأجنبية تفضِّل

(9) ملاحظة المترجم: انتهت أعمال الترميم في 2008، وهو يُستخدَم الآن كمتحف.

وجود سفاراتها في الجانب الآخر من القرن الذهبي، ولهذا السبب كل السفارات الأوروبية اليوم تقع في بيوغلو. الدولة الوحيدة التي يوجد مبنى قنصليتها في الباب العالي هي إيران. بالنسبة إلى هذا المبنى، أود أن أصحِّح خطأً نجده أحياناً في بعض المنشورات وهو أن المبنى شُيِّد من قبل الأخوة فوساتي، وليس من قبل عائلة باليان الأرمنية الشهيرة.

في التاريخ الحديث، شهد الباب العالي عدداً من الأحداث الهامة. ففي العام 1947، هاجم مناصرو الحكومة مبنى صحيفة تان، وكان مالكوها شيوعيي الانتماء، ولهذا سُمِّيت الحادثة بحادثة تان. وفي انقلاب العام 1913 سيئ السمعة، نفَّذ أنور باشا وطلعت بيه خطتهما بالدخول إلى مجلس الوزراء أثناء أحد الاجتماعات وقتل وزير الحرب. كان انقلاباً دموياً لم نشهد شبيهاً به من قبل أبداً. عندما تنظرون إلى البطاقات البريدية القديمة التي تُظهر مقر إقامة رئيس الوزراء، فستلاحظون أن سيارته بشكل خاص محمية ببنادق رشاشة.

يُعتبَر حي كاجالوجلو، الذي يقع بالقرب من الباب العالي، من الأحياء المثيرة للاهتمام إلى حدٍّ بعيد لما يحويه من مظاهر متنوعة من مظاهر التاريخ والثقافة العثمانيين. اسم الحي مشتق من كاجالزاد سنان باشا، الذي أُثيرت حوله الكثير من الإشاعات، كما هو الحال مع الكثير من الباشاوات المجندين. إذا كنا سنصدِّق جوزف هامر، فإنه كان ينحدر من أصول إيطالية، سليل الكونت سيغالو، وإنه أُسر من قبل البحرية العثمانية. والأهم من ذلك هو أن أمه جاءت من القصر العثماني وتزوجت من الكونت سيجالو بعد أسرها من قبل البحرية الإيطالية هذه المرة. وهذا هو سبب تربيتها له على الأخلاق الإسلامية العثمانية، الأمر الذي سهَّل تحوُّله الأخير إلى الدين الإسلامي. وفي وقت لاحق، سيصبح كاجالزاد أحد أبرز القادة والساسة في للسلطنة.

وسُمِّي الحي على اسمه لأن قصره كان موجوداً فيه، إضافة إلى

عدد من المؤسسات التي أنشأها في تلك المنطقة من اسطنبول. تشتهر كاجالوجلو بمدارسـها ومحالها الخاصة بالتصوير وبيع القرطاسـية ودور الطبـع، ولا تـزال جـزءاً حيويـاً من حياة المدينة حتى الآن. وفي شـارع تيكاريتهانـه، يوجـد مبنى الأرشـيف الوطني التابع لرئاسـة الوزراء، رغم أن المبنى ليس جميلاً.

وفـي نفـس الشـارع نجـد منـزل الاجتهـاد (*İçtıhad Evi*)، الـذي كان قـد أصـدر فيـه المفكـر العثماني-التركـي عبـد الله جـودت مجلته الشـهيرة الاجتهـاد، مجلـة كان عـدد قرَّائهـا أكبر بكثير من عدد نسـخها المطبوعة بسبب تناقلها بين القرَّاء. هذه المجلة، بحسب وصف الكاتب والفيلسوف التركي جميل مريتش، كانت تمثِّل رؤية إسلامية عصرية، إذ كانت تشدد بجرأة على أن كل مظاهر الحياة العصرية في القرنين التاسع عشر والعشرين كانت متوافقة مع القواعد الإسلامية، ولهذا السبب كانت تثير غضب المتعصبين. يُقال إن الشرطة، ذات مرة، لم تجد أمامها أي خيار سوى تنصيب مدافع أمام المبنى لحمايته.

بجوار شـارع تيكاريتهانه هناك شـارع تشاطلتشيشـمه، وهي سـاحةٌ صغيرة تخبرنا بالكثير حول التاريخ العثماني بين القرنين الخامس عشر والعشرين. عند زاوية الساحة وشارع تشافوس يوجد مسجد الملا فناري. وتحـوي المنطقـة أيضـاً عـدداً من المدارس الشـهيرة مثل رسـتم مكتبي ومدرسـة كاجالوجلـو للفتيات، إحدى أوائل المـدارس الثانوية المهنية. ذات يـوم كان المبنـى الأخير يضم مدرسـة العلوم السياسـية. يوجد في المنطقـة اليـوم عـدد مـن المكتبات الخاصة ببيع الكتـب ومحال تصوير الوثائـق، التـي يسـتخدمها بشـكل خـاص العاملـون في مبنى الأرشـيف الوطني. بإيجاز، يمكننا القول إن حي كاجالوجلو جزء حيوي في الحياة الثقافية والصحفية في اسطنبول اليوم، أما بالنسبة لحالة الحي الفيزيائية، فمن الصعب بعض الشيء أن نكون بهذه الإيجابية وهذا التفاؤل.

الباروك في اسطنبول

في القرن الثامن عشر، نجحت مدن كثيرة في الازدهار من خلال التجارة، وكانت اسطنبول واحدة منها. ومن بين المدن الأخرى سراييفو، وبلوفديف في بلغاريا، وموسكوبول في مقدونيا، وطرابزون على ساحل البحر الأسود في تركيا، وحيفا في فلسطين، وحلب ودمشق في سوريا. جميع هذه المدن العثمانية كانت تُظهر شيئاً من جو اسطنبول، وبعد سنوات لاحقة، تطوَّرت مدن أخرى، مثل ذيسالونيكي وبيروت وإزمير، لتصبح حواضر عصرية مثل اسطنبول نفسها. ذكرنا فيما سبق أنه منذ القرن السادس عشر كان هناك نوع من عملية تنميط في الفن المعماري للسلطنة، وهذا لم يكن يُطبَّق فقط على الأبنية العامة، مثل الجوامع، والمؤسسات التي كانت تقدم الطعام للفقراء، والخانات والجسور، وإنما على المنازل الخاصة أيضاً. على سبيل المثال، بدأ التجار في جميع الأمكنة بتزيين جدران منازلهم بأعمال تطريز ذات تصميم مكرر، حيث كانت كلها تشترك في احتوائها على مشاهد من اسطنبول. وفي القرن الثامن عشر، ظهر نمط مميَّز في العمارة العامة العثمانية، أي في المساجد والنوافير وسوى ذلك من الأبنية العامة؛ نمطٌ يشبه الأسلوب الباروكي الأوروبي. لهذا السبب، يستخدم المؤرخون مصطلح الباروك العثماني عند الحديث عن تلك الحقبة.

دعونا نتحدث قليلاً عن الأسلوب الباروكي نفسه. في البداية، وبعكس ما يعتقده الكثيرون، فإن هذا الأسلوب لم يكن مقتصراً على العمارة فقط. كما نعرف جميعاً، يقسِّم مؤرخو الفن الأوروبي الفنون إلى فئتين: أبولونية وديونيزية. العمارة والرسم والنحت، التي

تميَّزَ فيها أبولو كما يُقال، تؤلِّف الفنون الأبولونية. في حين يشكل المسرح والموسيقا بصفة خاصة الفنون الديونيزية. لا يُنظَر إلى الأسلوب الباروكي على أنه ذو طبيعة أبولونية فقط، أي أنه لم يكن يظهر في الفن المعماري أو الرسم بشكل حصري، بل كان يملك أبعاداً ديونيزية أيضاً. في الواقع، إن الموسيقا الباروكية مصطلح مألوف ومعرَّف بدقة أكبر من مصطلح العمارة الباروكية. كما أن هناك من يشير إلى الفكر الباروكي والأدب الباروكي. على سبيل المثال، في القرن الثامن عشر، تأثر الأدب البيكاريسيكي، الذي كان رائده آلان رينيه لُساج، متأثراً إلى حدٍّ كبير بالحقبة الباروكية وأسلوبها. ليس من السهل رؤية علاقة هذه المعلومات حول الأسلوب الباروكي بالعالم العثماني في القرن الثامن عشر، مع ذلك، من المؤكد حدوث تغييرات في الأسلوب الباروكي ضمن المجال العثماني، وهذه التغييرات لا يمكن، ولا ينبغي، تجاهلها.

كيف تأثرت السلطنة العثمانية في الباروك الأوروبي؟ إذا توخينا الدقة، فإن هذا التأثير لم يطل الأدب والفلسفة، ولكن ثمة دلائل هامة على وجوده في فنون أخرى. ففي الرسم العثماني في ذلك الزمن، نجد سمةً غير عادية، ألا وهي استخدام المنظور. لقد أثبت مؤرخو الفن العثماني أن المنظور استُخدم مسبقاً في الفن الشعبي التقليدي، المعروف باسم الرسم البكداشي. ويُنسَب هذا الاستخدام إلى تطور الرسم الإيراني منذ القرن السادس عشر، والذي أثَّر في الفن الأذربيجاني والمناطق المجاورة. في الأعمال الإيرانية، نجد استخدام المنظور ومحاولة تقديم صور بانورامية في الوقت نفسه، ومن أبرز الأمثلة على ذلك مشاهد الحروب العديدة، بما فيها صور الحروب العثمانية الصفوية، بالإضافة إلى نزالات المصارعة. وتتضمن الأخيرة صور للبطل الإيراني روستام، ابن زال، الذي يظهر في ملحمة شاهنامه الإيرانية، إضافة إلى صور

وجهية للتركي زال محمود باشـا. ما تزال هذه الرسـومات تزين جدران القصور والمنازل.

يُعتقَـد أن الرسـم الإيرانـي أثَّر في الفنانيـن العثمانيين -وخصوصاً في اسـطنبول- في القرن الثامن عشـر. من هنا ينبغي عدم نسْـب أصل التغيرات في الرسم العثماني إلى الغرب وحده، إذ قد تكون إيران أشد تأثيراً. في أواخر القرن السابع عشر، هجر الرسام العثماني عبد الجليل لونـي، أحـد كبـار فن المنمنمات، التقليد العثمانـي القديم في هذا الفن ليضفي على صوره الوجهية والإنسان في رسوماته قدراً أكبر من الحركة مما كان موجوداً سـابقاً. علينا ألا ننسـى رسـومات وصيف، الذي أتقن فن المنمنمات عندما كان في القسـم الداخلي -تُجسِّـد رسـوماته أيضاً الاستخدام الناجح للمنظور.

لا شـك في أن تأثير الأسـلوب الباروكي يبرز في الفن المعماري أكثر من أي فن آخر. في أوروبا، كانت العمارة الباروكية تؤدي وظيفتين. أولاً، كانـت تمكِّـن الدولـة من جعل وجودها محسوسـاً وتمثيل نفسـها في أعين الجماهير. كانت واجهات الأبنية الباروكية، بسلالمها الضخمة العريضة والطويلة، تسحر الألباب، بسبب زخارفها المتقنة. هكذا نجحت الدولة في جعل حضورها محسوساً من خلال أبنية هائلة الحجم ولكن قريبـة مـن القلـب، لأنهـا لاقـت استحسـان الجماهير بالفعـل. في الفن المعمـاري، كمـا فـي فنون بصرية أخرى، أفسـح الأسـلوب السـوداوي والمدبَّب الخاص بالعصور الوسطى -الذي يبدو أنه لم يلهم في الناس إلا الحزن- أفسح الطريق لشيء أشد حيوية وبهجة بما لا يقاس.

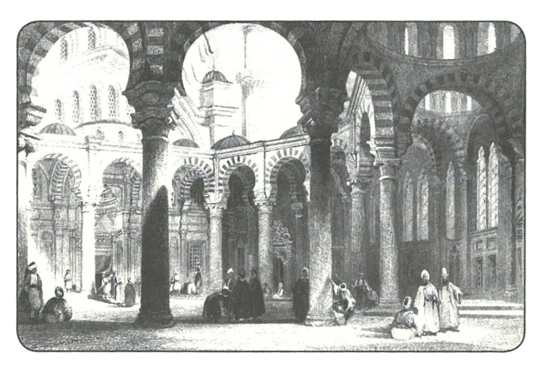
مـا نـوع التأثيـر الـذي يمكـن أن يكون قد أحدثه هـذا التحوُّل في الفـن المعمـاري للسـلطنة العثمانيـة، الـذي بـدا مختلفـاً إلـى حـدٍّ بعيد عـن الفـن المعمـاري في أوروبا العصر الوسـيط لجهة أنه كان هندسـياً لدرجـة كبيـرة ويرتكـز على تناغم المبانـي مع بيئتها؟ إن لوحات العصر

الباروكي موجودة بالفعل في قسم الحريم وفي أجنحة خارجية تنتمي لأقسام أخرى في قصر توبكابي. أما بالنسبة إلى جودة أو عدم جودة هذه الرسومات فهذا أمر قابل للنقاش، ولكن من الواضح أن المجتمع العثماني، كشأن أي مجتمع آخر، كان يبحث عن الابتكار. يمكننا اليوم أن نرى أعمالاً مشابهة في قصور أمراء الدروز في جبل لبنان، في المختارة وبيت الدين. كما أن التغيرات التي أثَّرت في الفن البصري والمهن اليدوية في اسطنبول كانت تُصدَّر أيضاً إلى بقية الولايات.

يمكن ملاحظ هذه التغييرات في المساكن الخاصة في بلوفديف وجوبروفو في بلغاريا اليوم، وفي مواقع مشابهة في البوسنة وموسكوبول في البلقان، وعلى الجزر اليونانية، وفي شبه جزيرة بيلوبونيس، وخاصة في نوبليا. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هذه الأساليب منتشرة على نطاق واسع في منازل المنطقة الإيجية الغنية، وخاصة في قصور إزمير، وآيدن، وتاير، وبيرجي. وقد أظهرت بعض المنازل الكبيرة في طرابزون وفي المناطق الإدارية التابعة لها، مثل جيريسن، النزعة الفنية الجديدة مثلما أظهرتاها منازل في سوريا وفي عكا في فلسطين.

في ذلك الزمن، كان الناس يحبون اللوحات المرسومة، وخاصة الملوَّنة منها، ويحبون أيضاً أن يروا صوراً لاسطنبول تزيِّن جدران وأسقف منازلهم. في الفن المعماري العثماني الأقدم، غالباً ما كانت الأبنية تُزيَّن برسومات تصوِّر أغصاناً مع أوراقها، وقد استند الباروك العثماني على هذه الطريقة لتطوير أسلوب مهيمن في تصميم الواجهات، بالارتكاز على تصاميم وخطوط بسيطة ومكررة. يمكنكم رؤية هذا الأسلوب في مسجد نور العثمانية وفي مسجد النصرتية (بشكل مبالَغ به كثيراً) في توبكابي، وعلى نوافير متنوعة في اسطنبول.

دعونا نلقي نظرة، على سبيل المثال، على النافورة الجميلة التي بناها إسحق آغا في العام 1746 في بيكوز، وهو حي يقع على الساحل



الأناضولي للبوسفور. كم كان المهندس المعماري بارعاً في انتاج هذا التناغم البصري بين النافورة ومصدر مياهها الوفيرة! سيتذكر الناس من جيلي أن هذه المياه، التي كانت تُوزَّع في دمجانات (*demijohns*)، كانت من الوفرة بحيث إنها كانت قادرة على تزويد جميع الأحياء الممتدة على طول البوسفور.

في الواقع، ثمة جو باروكي يعمُّ حي بيكوز. كان ما يُسمَّى بصناعتها الباروكية -كان هذا المصطلح موجوداً حقاً- متركزاً حول إنتاج البورسلين. لكن وجود مصنع سومربانك للنسيج، والمباني التي كانت تُعرَض فيها منتجات بيكوز الجلدية والزجاجية، والمنزل الصيفي للسلطان محمود الأول (1696-1754) هو الذي ساعد على منح بيكوز مكانة العاصمة الباروكية للبوسفور. ولا تُعتبَر الثكنة الموجودة في السليمية، التي أمر ببنائها السلطان سليم الثالث (1761-1808)، النموذج العثماني الأمثل للثكنة الباروكية فقط، بل نموذجها الأمثل في أي مكان في أوروبا. عندما بُنيت تلك الثكنة -في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر- كانت السلطنة العثمانية، مثل كثير من الدول

الأوروبيـة، تجـد نفسـها على الـدوام متورطة في حـروب، وهذه الثكنة منحت الجنود هناك شيئاً من الراحة.

كانت منازل الوزراء والباشوات التي بُنيت خلال الحقبة الباروكية أكثر جمالاً من تلك التي سبقتها. وهذا هو سبب كون النماذج الأفضل التي نملكها من هذه المباني، سواء في اسطنبول أو الولايات، التي تنتمي لهذه الحقبة. في الحقيقة، إن الأمثلة على العمارة الخاصة من الحقبة ما قبل الباروكية قليلة ومتباعدة. لعل السبب وراء ذلك هو أن الأتراك كانوا منهكميـن فـي الحـروب معظم الوقت وكانوا متلهفين لإنتاج مباني عامة مبهرة. ثمة رأي آخر، أكثر تحيُّزاً، قدَّمه في القرن السادس عشر سالومون شـويغر الـذي ذكـر "إنهم (أي العثمانيين) يبنـون معابد ضخمة فقط من أجل خداع الله". هذه، بالطبع، وجهة نظر شـخص واحد حول التديُّن الزائـف، لكـن النـاس فـي ذلك الزمن كانوا متديِّنيـن حقاً. صحيح أنهم كانوا يحبون تشييد أبنية عامة مكلفة ومبهرة، لكنهم في المجال الخاص كانوا أكثر بسـاطة، بل يمكن القول إنهم كانوا شـديدي البسـاطة بالفعل. لكـن هـذا الأمـر تغيَّـر في القرن الثامن عشـر، حيث بـدأ الناس بتعديل حياتهـم بمـا يتناسـب ودخلهم، الأمـر الذي أدى، بالطبـع، إلى حدوث تغييرات في نمط الحياة. على سـبيل المثال، بدأت تظهر أشـكال معينة من التسـلية في أحياء متنوعة في اسـطنبول، مثل كاجيتهانه وجوسـكو، لكن هذه الأنشـطة -بعكس ما يعتقده بعض الناس- لم تكن محصورة بالوزراء والباشوات فقط، بل كانت تشمل أعضاء النقابات أيضاً. وهذا لا يعني أنها كانت أشكالاً بذيئة من التسلية.

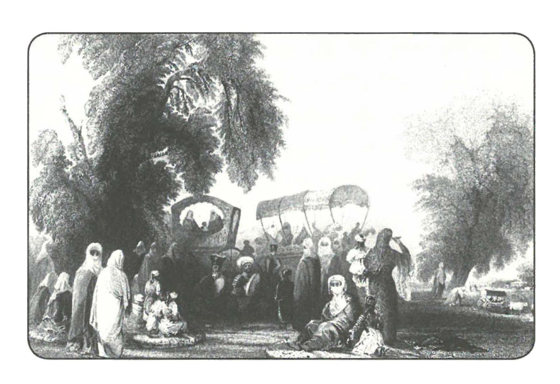
مـن الواضـح أن بعـض أشـكال الفـن الفولكـوري، مثـل عروض الكاراغـوز (*Karagöz*) والأورتايونـو (*ortaoyunu*) المسـرحية الشـبيهة بمسـرح الدمـى البريطانـي بانـش وجـودي (*Punch and Judy*)، كان شـائعاً فـي تلـك الملتقيـات. ولكـن، رغـم أن العـروض المسـلية التي

كانـت تُقـدَّم فـي حي كاجيتهانه كانت تروق للكثير من الأتراك، إلا أنها كانت تُقابَل بالنقد من قبل الأوسـاط المحافظة والفقيرة. ولهذا السـبب دُمِّرت القصور الصيفية التي كانت تستضيف هذه الأنشطة خلال الثورة العَرَضيـة وبدايـة مرحلة التصنيع، أي عندما أُنشـئت مصانع إنتاج الورق والصحـون النحاسـية والحديـد. بكلمـات مختصـرة، كان يُنظَر إلى هذه الأنشطة الترفيهية على أنها غير ضرورية.

لـم يكـن الثـوار، بقيـادة باترونا خليـل، وحدهم الذيـن اعتبروا أن اسـتبدال هـذه الأماكـن والقصور الصيفية بمرافـق صناعية أمر مفيد، بل الدولة أيضاً. وهذا هو سبب اختفاء القصور المبهجة (وبيوت القوارب الملحقـة بهـا) والمنـازل المائية والمنازل الصيفية (الأبعد عن الماء) في مناطق كاجيتهانه وفيسهانه وترسانه على امتداد القرن الذهبي، واستبدالها بمرافـق صناعيـة (مثل معامل صناعة الصحون النحاسـية)، بعضها تهدَّم تماماً وبعضها الآخر لا يزال يعمل حتى الآن.

لكـن هـذه الأنشـطة الترفيهية لم تكن هـي المظاهر الوحيدة لنمط الحيـاة الباروكـي، كمـا نسـتنتج مـن الحكايـا الفولكوريـة الجميلة التي يخبرهـا سـكان اسـطنبول. مـن الخطأ الاعتقـاد أن أدب تلك الفترة كان يتكوَّن فقط من العمل الموسيقي الممتع للشاعر نديم، الذي يتميز بلغته التركيـة الأنيقـة، فالصوفية العميقة للشـيخ جالـب (*Galib*) كانت تنتمي لتلـك الفتـرة أيضاً، مضيفـةً عنصراً آخر لثقافة الحقبة الباروكية. وأخيراً، يجب ألا ننسى أن قصصاً مثل طيار زاده (*Tayyarzade*) و"السيدة ذات الخنجر" كانت تحوي إغراءً جنسياً، ودرجة معينة من الفجور، ومواضيع غريبة تماماً عن نمط الحياة العفيف التقليدي. كل ما سـبق هو عناصر في الثقافة الشـعبية لاسـطنبول في الحقبة الباروكية ويشـكل أحد أعمدة تمدُّن المدينة.

ويجب ألا ننسـى أن الحقبة التي نتحدث عنها كانت تُعرَف أيضاً



باسم "حقبة الزنبق"، حيث كان جميع الناس -الأغنياء فيهم والفقراء، من أوسع المثقفين الإسلاميين معرفةً إلى الجزَّار المحلي- يزرعون الزنبق، فضلاً عن إنتاج أنواع جديدة منه. ويصعب إيجاد برهان أشد وضوحاً على ذلك من الكتاب المدهش *Tezkire-i şükufeciyan*، الذي يتضمن سيَرَ حياة زارعي الزنبق. عند قراءة هذا الكتاب، يمكن للمرء أن يشعر حقاً بأن المجتمع التركي تبنَّى نمطاً مختلفاً في القرن الثامن عشر. تعلَّمنا في كتب التاريخ المدرسية أن حقبة الزنبق كانت حقبة تافهة وغير طبيعية، لا بل إنها تتحمَّل عملياً مسؤولية تعجيل حدوث ثورة دموية لا عقلانية. غير أنني سأحاجج بالقول إنها حقبة انتقالية كانت حضارتنا بحاجة إلى اجتيازها من أجل انفتاحها وتطورها.

لقد أخذ المؤرخ الشهير أحمد رفيق، المعروف بأعماله الرائجة، والذي قام بجهد كبير لزيادة الاهتمام الشعبي بالتاريخ، خياراً صائباً عندما بارك هذه الحقبة، حقبة الزنبق. في الحقيقة، إن المجتمعيْن العثماني والتركي كليهما يسلِّمان بأهمية هذه المرحلة من تاريخنا. وبعكس ما يدّعيه البعض، فإن هذا التحوّل الكبير في نمط الحياة،

الذي نعرفه باسم حقبة الزنبق، لم يترك أثره في اسطنبول وحدها، بل أثَّر كذلك في مناطق نائية من ولايات بعيدة.

كانت أوروبا تدخل إلى تركيا على شكل ألبسة ومنسوجات وزجاج، وفي الوقت نفسه، كانت هناك أشياء مشابهة تُنقَل من هنا إلى أوروبا. ثمة اعتقاد عام بأننا نحن الأتراك، في الحقبة التي نتحدث عنها، بدأنا بتصميم حدائقنا على الطريقة التي كان الفرنسيون يتبعونها. قد يكون هذا صحيحاً تماماً، ولكن من المؤكد أن هناك طريقة تركية أو إيرانية أيضاً، حتى لو لم نكن نملك رسومات أو بقايا حدائق لإثبات ذلك. ينبغي لنا ألا ننسى أن مظاهر من الألبسة التركية، مثل العمامات والعباءات والأقمشة، أثرت في الألبسة الأوروبية، الأمر الذي أدى إلى رواج زي يُدعى *turquerie*.

يمكننا أن نخلص إلى أن الحضارة التركية، في القرن الثامن عشر، دخلت في عملية تبادل ثقافي مع أوروبا الغربية. وسبب تركيزنا على هذا الموضوع هو وجود اهتمام كبير في فرنسا هذه الأيام بالأشياء التركية وتقارير السفراء في تركيا، اهتمامٌ لا يبديه المؤرخون وطلاب التاريخ التركي فحسب، وإنما أيضاً الباحثون في التاريخ الفرنسي والمجتمع الفرنسي بصفة عامة. يبدو أننا بحاجة إلى النظر إلى القرن الثامن عشر من منظور جديد، وبطريقة جديدة.

السلطان محمد الفاتح

في 30 آذار 1432، وُلد ابن السلطان مراد الثاني. في البداية، كانت هناك شكوك حول إمكانية أن يكون هذا الصبي وريثاً للعرش، ولكن، نتيجةً لسلسلة من الأحداث ووفاة شقيقه، انتهى به المطاف جالساً على العرش مرتين في عمر مبكر جداً. وهذا الأمر لم يكن نادراً وحسب، بل فريداً أيضاً. انتهت أولى فترتي حكمه عندما تخلى عن العرش لأبيه ليصبح والياً على ولاية ساروخان في منطقة إيجة التركية، التي كانت تتخذ من مانيسا عاصمةً لها.

لكن هذا الشاب اليافع قام في عمر الواحد والعشرين عاماً، أي في العام 1453، بحصار مدينة كبرى، عاصمة كانت تُعتبَر في ذلك الزمن حاضرة العالم وكان يُشار إليها فقط بكلمة بوليس. لقد حقق انتصاراً أكسبه مجداً في عالم لم يكن فيه أماكن أخرى تستحق أن تُدعى مدناً. قلة من المراكز المدنية في الشرق الأوسط كانت تشبهها؛ ألا وهي دمشق، التي كانت قد بدأت تفقد أفضليتها ضمن العالم الإسلامي؛ وبغداد؛ ومدينة القاهرة الناشئة؛ ومدن في إيران البعيدة، مثل أصفهان ونيشابور. ولكن في قارة أوروبا، لم يكن هناك أي مدينة حقيقية، أي مدينة أكبر من المكان الذي كان يُدعى حينئذ القسطنطينية. ولفتح هذه المدينة العظيمة، أمر السلطان ببناء حصن بوجازكيسين أو روميليا على الضفة الأوروبية من البوسفور، والذي انتهى بناؤه في غضون أربعة أشهر فقط.

كان فتح اسطنبول حدثاً كبيراً، وأهميته لا تقتصر فقط على المكانة التي اكتسبها في الوعي التاريخي القومي للأتراك. مع ذلك، فهو لا

يلقَ التشديد الكافي. كان فتح القسطنطينة هاماً لأنه كان حرباً نموذجية لحروب عصر النهضة، حيث استُخدم فيها الأسلحة النارية والتكتيكات العسكرية الحديثة.

في الحروب التي وقعت خلال عصر النهضة، كانت المدن الإيطالية المستقلة تحارب باستخدام مقاتلين مرتزقة، يُسمّون *condottiere*. وكان قادة هؤلاء المرتزقة جنوداً متعاقدين عملياً، وقد طوّرت إيطاليا نوعاً من استراتيجية لعبة شطرنج بدلاً من الاستراتيجية القتالية، وكان ذلك يمكن أن يؤدي إلى قتل جنودها. يمكننا أن نسمِّي عدداً من الحروب التي استُخدمت فيها الأسلحة الحديثة والأسلحة النارية بطريقة غير فعالة: الحرب التي شنّتها فرنسا، متدخِّلةً في شؤون إيطاليا؛ والحروب النمساوية، التي وقعت في وقت لاحق؛ وحتى حرب الثلاثين عاماً من 1618 1648. في أوروبا، كانت مملكة هنغاريا الوحيدة التي اتخذت خطوات هامة باتجاه شن حروب عصرية.

لمدة مائة عام، تَحَارَبَ العثمانيون مع مملكة هنغاريا، وحاولوا موازنة التدخل الهنغاري في البلقان. ولكي يكونوا قادرين على المنافسة مع التكنولوجيا العسكرية للهنغاريين، لم يكن أمامهم خيار سوى التوجه لتبنِّي استراتيجية وأساليب عسكرية تتفوق على تلك الخاصة بمنافسيهم. وقد أخذ السلطان الشاب محمد الثاني على عاتقه تحقيق هذه الغاية. ولهذا السبب، بدأ العثمانيون، خلال غزو القسطنطينية في 1453، بدكِّ أسوار اسطنبول -التي كانت تُعتبَر آنذاك القلعة الأعظم في العصور الوسطى- باستخدام أربعة مدافع ثقيلة، والأسلحة التقليدية في العصور الوسطى، بالإضافة إلى مدافع الهاون، التي استُخدمت للمرة الأولى في التاريخ.

بواسطة هذه الاستراتيجية، نجح السلطان محمد الثاني في السيطرة على البوسفور خلال أربعة أشهر فقط، مانعاً بذلك المستعمرات في

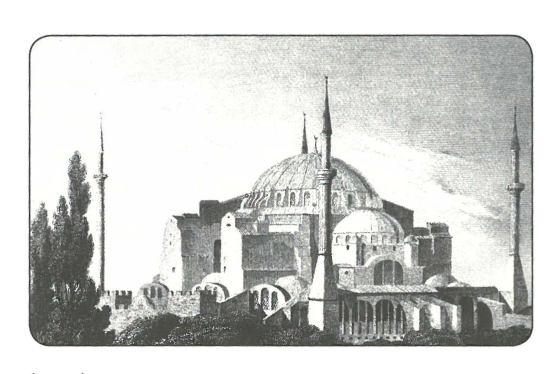
منطقـة البحـر الأسـود مـن إرسـال المسـاعدات إلى البيزنطييـن. ثم بدأ بحصـار اسـطنبول، مسـتخدماً المدافـع التـي جُلبت من أدرنـة في بداية نيسـان. ثـم وقعـت المعركـة التي مثّلـت نهاية العصور الوسـطى، وهذا يعني عصورنا الوسـطى بقدر ما يعني العصور الوسـطى لأوروبا. حتى تلك اللحظة، لم تكن السلطنة العثمانية سلطنة بالمعنى الحقيقي للكلمة. ولـم يبـدأ الوعـي الإمبراطـوري بالتجذُّر في المجتمـع العثماني إلا بعد نجاح العثمانيين في فتح مدينة القسطنطينية العظيمة هذه. ومن الممكن ملاحظـة تأثيـرات هـذا الفتـح في الحيـاة الثقافية والفنيـة، بالإضافة إلى قواعد السلوك السلطانية.

شكّلت بداية المرحلة السلطانية في التاريخ العثماني، إلى حد ما، بداية العصر الحديث للسـلطنة العثمانية. إن التمييز بين العصر الوسـيط والعصر الحديث بهذه الطريقة أكثر اقعيةً من تطبيق معايير مثل استخدام الطباعة أو تدمير القلاع الإقطاعية. علاوة على ذلك، ينبغي لنا ألا ننسى أن فتح القسطنطينية أدى إلى انحطاط المدن الإيطالية المستقلة الواقعة على البحر المتوسط مثل فينيسيا وجنوى، التي كانت تعتمد على التجارة في منطقة شـرق المتوسـط. كما أن الاسـتيلاء على القسـطنطينية جعل أمماً أخرى تشعر بضرورة الإبحار نحو محيطات بعيدة، بل وسرَّع هذه العملية.

دام حصـار القسـطنطينية ثلاثـة وخمسـين يومـاً، تخلَّلتـه هجمات شديدة القسوة. في تلك الأثناء، في ليلة 22/ 23 نيسان، أطلق العثمانيون سفنهم من البوسفور باتجاه ميناء القرن الذهبي. وُصفت هذه الحادثة في تقارير بيزنطية وإيطالية كُتبت في ذلك الحين، ثم غُطِّيت بالتفصيل لاحقاً من قبل مؤرخين بارزين، من أمثال رانسيمان وبابينجر وشلومبيرجر. كان الأسـطول المتواجد في البوسـفور يتألَّف من سفن خفيفة بحيث تمكّنوا من سحبها في ليلة واحدة فقط.

لـم يكـن باسـتطاعة العثمانييـن دخـول القـرن الذهبـي لأنـه كان مغلقاً بوسـاطة سلاسـل حديدية ثقيلة. ولهذا السـبب تلاشـت الأهمية الاسـتراتيجية لهـذا الممـر المائـي. فـي غضـون ذلـك، كانـت المنطقـة المحيطـة بأسـوار المدينـة مسـرحاً لحرب فاصلـة. كان البيزنطيون، منذ بدايـة العصـور الوسـطى، يمتلكون مـادة خاصة يدعونهـا *grejuva* النار الإغريقية. صحيح أن هناك أسـلحة أشـد تدميراً يمكن اسـتخدامها في البـر والبحـر، لكـن هذا يجـب ألا يقلل من فعالية هـذه النار الإغريقية، التي لا تزال تركيبتها تمثل لغزاً للمؤرخين. وبسبب هذه النار، كان من المستحيل بالنسبة إلى العثمانيين حصار المدينة من البحر.

مع ذلك، فالحصار الذي طبَّقه العثمانيون كان الأول من نوعه، إذ كان يختلف كثيراً عن الحصارات العشرين التي تحمَّلها البيزنطيون من قبل. دعونا هنا نقف قليلاً عند اسم بيزنطة. شخصياً، إنني أفضِّل الإشارة إلى اسطنبول باسم روما الشرقية بدلاً من بيزنطة لأن بيزنطة اسم أطلقه الأوروبيون بعد سقوط هذه الإمبراطورية بهدف التقليل من شأن إرثها. والسـبب فـي ذلـك هو أن الألمان كانوا يريـدون تثبيت أن الإمبراطورية الرومانية-الجرمانيـة المقدسـة، التـي لم تكن في الواقـع امبراطوريةً بما تحملـه الكلمـة مـن معنى، هي الوريث الحقيقـي للإمبراطورية الرومانية القديمة. وقد تطلَّب ذلك منهم إزالة الإمبراطورية البيزنطية الساقطة من التاريخ عبر الإشارة إليها باسم بيزنطة، رغم حقيقة أن هذه الإمبراطورية كانـت تصـف نفسـها بأنهـا رومانيـة أو الدولـة الرومانية. مـن هنا، نحن بحاجة إلى أن نكون شـديدي الحرص عند اسـتخدام كلمة بيزنطة، وإذا دعـت الضـرورة، قـد نضطر إلـى حذف هذا المصطلح الشـائع إلى حدٍّ كبير من أعمالنا التاريخية. ففي نهاية المطاف، كانت بيزنطة نفسها مجرد دولة-مسـتعمرة، ليسـت أكبر من مقاطعة سـارايبورنو اليوم، كما كانت منذ السنوات الأولى من المرحلة الهيلينية، بل حتى قبل بداية الهيلينية.



كما ذكرت، لقد نجت المدينة من نحو عشرين حصاراً سابقاً في سياق تاريخها. نُفِّذ بعض هذه الحصارات من قبل عصابات بربرية بالغة الوحشية، في حين نُفِّذ بعضها الآخر بواسطة جيوش دول معينة. ولم يُكتَب لأي منها النجاح، ولكن، هذه المرة كان الجيش المحاصِر يستخدم أسلحة من العصر الحديث. كانت الإمبراطورية البيزنطية تقف في مواجهة عصر النهضة. بالفعل، إن بعض المعلقين محقّون تماماً بقولهم إن هذه المعركة تتيح لنا رؤية عصر النهضة بكل وضوح. يتّحد المؤرخون الغربيون والأتراك في مسألة حدوث قصف شديد القسوة في يومي السادس والثاني عشر من أيار وأن الهجمات في هذين اليومين أدّت إلى إراقة دماء كثيرة. استخدم العثمانيون منجنيقات فعّالة ومدافع ثقيلة تُطلق كرات حجرية ما أدى إلى إحداث فجوات في الأسوار، لكن المدينة واصلت الدفاع عن نفسها.

إن الحجم الدقيق للجيش العثماني الذي حاصر القسطنطينية غير مؤكد. اقترح باحث إيطالي يُدعى باربارو رقماً بين 100,000 و150,000، في حين ذكر المؤرخ البيزنطين هالكوكونديليس أن الرقم هو 400,000.

لا بد أن الرقم الصحيح يقع في مكان ما بين الرقمين! كما أن المؤرخين المعاصرين يقدمون أرقاماً مختلفة جداً. على أي حال، إذا كنا سنعتبر أن حجم الجيوش في العصور الوسطى يتناسب مع التنظيم اللوجستي والنقل والغذاء والصحة، فإننا لا نستطيع التحدث عن جيش يقع تعداد أفراده ما بين 200,000 و300,000 رجل. كان من الممكن فقط تأمين الشروط الصحية لـ 100,000 إلى 150,000 رجل. لو كان الجيش العثماني أكبر من ذلك، لتفشَّت الأمراض الوبائية على الفور. واستناداً لعدم علمنا بحدوث مثل هذه الأوبئة، فمن الحكمة ألا نبالغ في حجم الجيش العثماني.

مما لا شك فيه أن عدد الناس المدافعين عن المدينة كانوا أقل بكثير من حجم الجيش العثماني. لكن القوات البيزنطية اعتمدت على قواها الذاتية وشجاعتها وعزمها على المقاومة، بالإضافة إلى متانة الأسوار. ويبدو أن الأساطير والمعتقدات التي كانت سائدة خلال تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، أو بالأحرى الإمبراطورية الرومانية المسيحية، لم تمت بسهولة. فحتى اللحظات الأخيرة، كان الناس يتوقعون أن مريم العذراء ستنقذهم. وفي الليلة الأخيرة، أعلن الإمبراطور البيزنطي، في قداس أُقيم في هاجيا صوفيا، أمام المحتشدين أن السيدة العذراء ستظهر. وحتى عند دخول الأتراك إلى المدينة، كان الناس يتوقعون أن الملائكة ستأتي عبر الأسوار وتطرد الأتراك خارجاً. غير أن مركز المسيحية هذا، الذي كان العالم بأسره يُبجّله لمدة تزيد عن ألف عام، كان قد وقع في يدي قوة جديدة.

كان تقدير الناس لهاجيا صوفيا قد قلَّ لأنها كانت ترمز للوحدة مع العالم الكاثوليكي. ولكن، هذا لا يعني أن الناس كانوا ينبذون الدين والتعاليم الدينية الصادرة من روما. بالنسبة إليهم، كانت الكَثْلَكة تعني الغزو اللاتيني، احتلال المدينة الكبيرة من قبل اللاتينيين في 1204

(كان هذا الغزو جزءاً من الحملة الصليبية الرابعة). وهؤلاء الغزاة كانوا دمويين جداً، وجشعين جداً بحيث نهبوا جميع ثروات المدينة، حتى الطبقة النحاسية التي كانت تغطي المسلَّة الموجودة في ساحة الخيول أمام هاجيا صوفيا، وأغبياء جداً لأنهم دمَّروا جميع مكتبات المدينة. لهذا السبب، يُعتقَد أن نوتوراس، آخر رئيس وزراء في الإمبراطورية البيزنطية، ورجال دين ثقاة مثل جيناديوس، قالوا أشياء من قبيل، "في هذا المجال، نفضِّل عمامة وسيف الأتراك على خبز الجرمانيين".

من الواضح تماماً أن سبب استمرار النهب والسلب لمدة ثلاثة أيام هو أن المدينة لم تستسلم. كان هناك اعتقاد بأنها لو استسلمت خلال شهر، لما كان قد حصل ذلك. وهناك سبب آخر، في الواقع، وهو أن الإمبراطور البيزنطي الأخير كان قد أعلن، قائلاً: "أفضِّل الموت على القيام بذلك [أي الاستسلام]. إنني أرأس أعظم إمبراطورية مسيحية وأكثرها أصالة". وُجدت جثة الإمبراطور الأخير، قسطنطين باليولوجوس، ضمن كومة من الجثث، لكن محمد الفاتح تصرَّف بنبل واحترام حيث نظَّم قدّاساً دينياً لعدوه القتيل. وهكذا أصبحت هاجيا صوفيا، التي كانت أعظم مكان عبادة في العالم المسيحي، مكاناً عظيماً للعبادة الإسلامية. لم يكن هناك أي مبنىً في أوروبا الغربية أكثر سحراً من هاجيا صوفيا. قبل تشييد الكنائس العظيمة خلال عصر النهضة، كانت هاجيا صوفيا قبلة أنظار المسيحيين في كل مكان.

هذا يفسر اعتبار تحوُّل هاجيا صوفيا إلى مسجد أمراً بالغ الأهمية. وبنفس المعنى، كان تصرف الجمهورية التركية بعد 1930 ذا مغزىً فائق الأهمية من الناحية السياسية والثقافية حين حوَّلت دار العبادة هذا إلى متحف، بعد أن كان سبباً وشاهداً على صراع بين البشر لقرون طويلة.

* * *

بعد فتح اسطنبول، وجد محمد الفاتح نفسه أمام مدينة مدمرة،

مـع أن التدميـر كان قـد بـدأ منـذ بدايـة القرن الثالث عشـر. خلال غزو الصليبيين الذي أدى إلى هيمنة لاتينية استمرت خمسين عاماً، سُفكت دمـاء كثيـرة فـي المدينة. وكونهـا عاصمة دولة كانت آخذة بالتقلُّص، لم تكن القسطنطينية قادرة على استعادة حالتها السابقة.

بالطبـع، كان مـن الضـروري بالنسـبة إلى محمد الفاتـح إعادة بناء المدينـة، فمـاذا فعـل لتحقيـق ذلـك؟ أمـرَ بجلب عدد كبير مـن الأتراك المسـلمين والمسـيحيين إلـى اسـطنبول مـن ولاية كارامـان القديمة في الأناضـول الأوسـط، التـي كانت تُعتبَـر نوعاً من الخزَّان البشـري. ولما وجد أن هذا لم يكن كافياً، قام بنقل السـكان الأرمن من مناطق واقعة تحت سيطرة السلطنة إلى اسطنبول. لهذا السبب، عُيِّن هوفاكيم، أسقف مدينة بورصة، رئيساً للمجتمع الأرمني في السلطنة العثمانية في 1461. كانت تلك هي المرة الأولى في تاريخ اسطنبول التي يشغل فيها شخص منصب البطريرك ورئيس مجتمعه في وقت واحد.

بعد القادة الدينيين الأرمن، أكميازين وسـيس وفاسـبورايان، الذين تبوأوا المنصب المتنفذ "*Catholicos of Ahdamar*"، جاء زعيم روحي آخـر إلـى المقدمـة، مـع أنـه كان زعيماً إدارياً أكثر منـه روحياً، ألا وهو رئيـس الطائفـة. وكان هنـاك مجتمـع يهـودي أيضـاً في تركيـا، وخاصة بعد فتح اسـطنبول وسـقوط الأندلس، حيث جرت عملية هجرة يهودية تدريجيـة دامـت نحـو مائـة عام. ونتيجـة لذلك، تشـكَّل مجتمع يهودي مزدهر في اسطنبول، وبنوا فيها أكثر من خمسين كنيساً يهودياً.

من الآن فصاعداً، يجب ألا نتردد في تسمية اسطنبول بالقسطنطينية، لأنه الاسـم الذي استُخدم في الوثائق العثمانية. ويمكن رؤيته أيضاً في بداية القرن الثامن عشـر، حينما كان اسـم "إسـلامبول" مسـتخدَماً أيضاً في المراسـيم السـلطانية والنقوش وشـواهد القبور. ينبغي ألا نكون أبداً متعصبين حيال الأسماء، لأن هذه المدينة عاصمة عالمية عظيمة.

وقعت اسطنبول تحت سيطرة الإدارة العثمانية، التي دعمت المدينة وطورتها. كانت هناك بازارات قديمة في المدينة، فقامت السلطنة بتطويرها من خلال استخدام تقنيات جديدة، الأمر الذي أدى إلى إنشاء السوق الكبير (*Kapalı Çarşı*). بالاستناد إلى المسح الطبوغرافي للمدينة، يمكننا القول إنه كان هناك بازار خلال المرحلة البيزنطية، ولكن لم يتحول هذا المكان إلى طراز البازار المغطى الذي نعرفه الآن إلا في حقبة محمد الثاني. خلال فترة قصيرة، بدأت المدينة تكتسب شخصيتها الخاصة من خلال الجوامع التي بُنيت، إلى جانب البازارات، والمباني المخصصة لاستضافة اجتماعات الصوفيين *khanqahs*، والمزارات الصوفية *dergâhs* التي كانت تُنشَأ حولها. وبدأ الناس بتسمية الأحياء على أسماء أشخاص بنوا إما جامعاً أو خاناً أو حماماً، والكثير من هؤلاء كانوا باشاوات. بصفة عامة، شهدت اسطنبول تطوراً جدّياً في القرن السادس عشر.

الغزو

من دون شك، من بين التأثيرات الرئيسة لفتح اسطنبول بروز عاصمة عالمية كانت على وشك الانهيار وتشكيل سلطنة إسلامية امتدت إلى البلقان. ورغم أن الناس كانوا يتوقعون أو يخشون مثل هذا الغزو، إلا أنهم لم يتقبَّلوه بسهولة. ويجب أن نتذكر أن هذا لا ينطبق فقط على العالم المسيحي الغربي، بل على الشعوب الشرقية أيضاً.

حاول الهنغاريون تنظيم حملة صليبية، في حين حاول البابا أن يحشد الأمم المسيحية من خلال دعوتها للتوحد. أما إيطاليا فكانت ترتعد خوفاً، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يدخل جديك أحمد باشا مدينة أوترانتو في مقاطعة بوغليا، الواقعة عند قاعدة كعب إيطاليا. يجب أن نضع في أذهاننا أن معظم الروايات التي تتحدث عن هذا الغزو كانت تخمينية إلى حدٍّ بعيد. وهذا لم يكن مجرد شعور معادي للمسلمين، بل كان أيضاً تقنية دعائية تهدف إلى توحيد المسيحيين. منذ ذلك الحين، قام بعض المؤرخين بوضع مصادر مزوَّرة لمذابح مزعومة لمئات الأشخاص، مدَّعين أن الغزاة العثمانيين قدَّموا للإيطاليين عرضاً نهائياً: "بدِّلوا دينكم أو واجهوا الموت". المهم في الأمر هو أن المؤرخين الذين كتبوا مثل هذه الأشياء لم يفكِّروا فيها تماماً، إذ لو أن هذه الحوادث وقعت فعلاً في تلك الفترة، لكانت أخبارها قد انتشرت في كل مكان. كانت هذه القصص المخيفة، في حقيقة الأمر، تقنية دفاعية سيئة. وفي حالة أخرى، يمكننا أن ننظر إلى كيفية تلقِّي مملكة آق قويونلو، وهي جارة شرقية للسلطنة العثمانية، خبر فتح اسطنبول على يدي السلطان محمد. في التاريخ الرسمي لهذه الدولة، كتاب الدياربكرية، تم تجاهل الفتح كلياً،

وكأنـه لـم يحصـل أبـداً. لقـد تبنّـى الآق قويونيون موقفاً سـلبياً من هذا الحدث المفصلي، ولكن بطريقة مختلفة.

أحـد أسـباب الرفـض الواضـح لمملكـة آق قويونلـو هـو أن فتح اسطنبول كان حدثاً عظيماً يعزز من مجد سلالةٍ منافسة. ويجب ألا ننسى أن حاكم آق قويونلو، حسن أوزون (الطويل)، كان يملك روابط عائلية مع حكام مملكة طرابزون، التي تأسست بعد الحملة الصليبية المفجعة التي شُنَّت في العام 1204 وحُكمت من قبل سلالة كومنين. من هنا، فإن حفيد حسن أوزون، الشاه اسماعيل الذي سيحكم الإمبراطورية الصفوية في المستقبل، سيكون متصلاً بنسبه من جهة والده مع المسلمين الأتراك في حين أنه سيكون حاملاً، من خلال أمه، للدم الأزرق لعائلة كومنين. يتضـح مـن هـذا أن دولةً مثل آق قويونلو لن ترحِّب بالسـيادة العثمانية. وفي الوقت نفسـه، يجب أن نتذكر أن قوىً معينة في العالم المسـيحي كانـت تعتبـر إقامـة روابط مع الحـكام العثمانيين الجدد في أقرب فرصة ممكنة أشبه باختيار أهون الشرَّيْن.

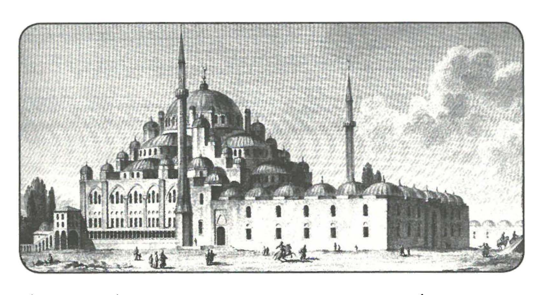
إن مثـال مملكـة القـرم جديـر بالذكر هنا. كانت هـذه البلاد واقعة تحت سيطرة عائلة خرجت منتصرة من الصراع بين دول القبجاق التركية المنتشـرة فـوق سـهول أوكرانيا وجنوب روسـيا، صراعٌ عجَّـل به انهيار دولـة آلطُـن أوردو القويـة. بعد فترة قصيرة من فتح اسـطنبول، اختارت هـذه المنطقـة الأفضـل لهـا عندمـا وقَّعت معاهـدة مع الدولـة العثمانية تمكَّنـت بواسـطتها مـن الحفـاظ علـى سـيادتها، رغـم الاعتـراف بنفوذ السـلطنة العثمانية. وبعد عدة سـنوات، في 1475، ألحق جزء كبير من شـبه جزيرة القرم، يصل حتى فيودوسـيا وسوداك، نفسه مباشرةً بالمركز بقبوله منزلة مقاطعة عثمانية. وبما أن الأراضي الواقعة إلى الشمال كانت تقع رسمياً تحت إدارة هذه المملكة، فقد أصبحت آنذاك، عملياً، دولة خاضعة للعثمانيين.

بطريقة مشابهة جرى غزو البلقان، بين 1461 و1463. ليس من السهل إيصال ما استلزمه هذا الغزو وتبيان كيف ضُمَّت ألبانيا والبوسنة إلى السلطنة لشريحة واسعة من القرَّاء. وهذه الصعوبة طبيعية، في الواقع، إذ إن تقييم التاريخ لا يمكن أن يأتي من القراءة والاستماع وحدهما، فالمرء يحتاج أيضاً إلى معرفة جغرافية المنطقة قيد الدراسة. من هنا، فإنني أنصح الطلاب الشبان اليوم بمحاولة رؤية تلك الأمكنة التي نتحدث عنها. عندما ينظرون إلى الأراضي الوعرة والقاسية لمناطق أيوانينا وشكودر والبوسنة، فإنهم سيدركون عندئذ مدى براعة وتعقيد الاستراتيجيات العسكرية والدبلوماسية المستخدمة في هذه الغزوة.

ليس هناك شك في أن الدولة العثمانية أصبحت دولة متنفذة في الشؤون الدولية وقوة عالمية (*an arbiter mundi*). وسيكون صحيحاً القول إن العثمانيين لعبوا دورهم كسلطنة عالمية فاعلة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

توصلت السلطة البابوية إلى قرار مفاده أنْ لا فائدة من إقامة علاقات مع هذا السلطان الجديد، الذي كان بالنسبة إليهم مجرد مسلم بربري مثير للمشاكل. لكنهم كانوا يخدعون أنفسهم وحسب. كتب البابا بيوس الثاني رسالة إلى السلطان محمد قال فيها، "اعتنق المسيحية! وعندما تفعل ذلك، فإنك ستكون حاكماً على العالم في كل الأحوال... ولتحقيق ذلك، كل ما تحتاج إليه هو قليل من الماء (*aquae pauci*)"، أي أنه كان ينصحه بالعمادة. رغم عدم وجود أدلة على إرسال هذه الرسالة، لكن نسخاً مسودة منها ووثائق أخرى تحوي مضموناً مشابهاً يمكن إيجادها في الأرشيفات. بالطبع، لا يُعقَل أن تولِّد هذه الرسالة الأثر المرغوب عند السلطان محمد الفاتح. مع ذلك، فقد نشأ جدل حول هذه النقطة، لأن البعض حاججوا بقولهم إن محمد الفاتح كان مسيحياً، في الحقيقة.

بالطبع، ليس لهذا الادعاء أي أساس واقعي. مع ذلك فالسلطان محمد لم يكن سلطاناً يشبه أياً من أولئك الذي سيخلفونه، فهو لم يكن تقياً مثل ابنه بيازيد الثاني ولا حاكماً مثل حفيده السلطان سليم الأول. لا شك أنه كان متديِّناً، لكنه ربما لم يكن متشدداً في سلوكه ونمط عيشه. في الواقع، خلال حكمه، أظهر السلطان محمد الفاتح ميلاً ملحوظاً للتعددية الثقافية. وهنا يمكننا أن نشير، على سبيل المثال، إلى علاقته العميقة بالحركة الحروفية التي كان يقودها فضل الله أستارابادي. وأهم مميزات هذه الطائفة الغريبة، التي نشأت في إيران، هو أنها كانت تستنتج توقعات معينة بالاستناد إلى العلاقات بين الأرقام والحروف، ممارسةٌ شبيهة بتلك الخاصة بممارسي الكابالا اليهودية. لقد نجح الحروفيون في اجتذاب أتباع لهم من جميع الأديان والطوائف. غير أن هذه الحركة العالمية، التي كانت في البداية تبدو بأنها ستتوسع حتماً -إما للاهتمام الذي أظهره السلطان محمد أو ربما لأنه كان حتى عضواً فيها- قُمعت بقسوة شديدة على يد رئيس وزرائه محمود باشا، رغم أنه هو نفسه كان من بين الأطفال المجندين وينحدر من عائلة دينية مسيحية. بل أكثر من ذلك، فقد قمعها باستخدام النار، مع أن حرق الناس لم يكن شائعاً في التقاليد الإسلامية. في الواقع، لعله كان أثراً باقياً من إرث أبعدُ قِدَماً. مع ذلك، فقد قدَّر الناس جهود محمود باشا للحد من معارضة أولئك الذين أُعيد توطينهم من قبل السلطان محمد الفاتح وحتى محاولته منع بعض من عملية إعادة التوطين من ولاية كارامان. وقد اكتسب شعبية إضافية بين الشرائح الأوسع من الشعب، وخاصة العلماء والشيوخ والمتعلّمون، من خلال منع إجراء آخر من إجراءات السلطان، ألا وهو استملاك الأراضي التي تعود للمزارات الصوفية والزوايا *zaviyes* (مساجد صغيرة) تلبيةً للاحتياجات الدائمة للحرب. لسوء الحظ، اضطُر السلطان في نهاية المطاف إلى قتل رئيس وزرائه إثر عدد من الخلافات بينهما،



ونتيجة لذلك أطلق الناس على محمود باشا لقب ولي، أي الحامي أو الوصي. إن المخطوطات المتعلقة بأسطورة محمود باشا تشكل حصة كبيرة من مجموع المخطوطات العثمانية الباقية حتى الآن؛ ولن يجد أي مستشرق أو مؤرخ أي صعوبة في الوصول إلى هذه المخطوطات.

كان السلطان محمد حاكماً عظيماً بحق، وسياسياً عظيماً، ومثقفاً عظيماً أيضاً. ولكن، كما تُبيِّن حالة هذا السلطان العثماني، أولئك الأشخاص الذين اعتبرهم المؤرخون عظماء قد لا يُنظَر إليهم على هذا النحو بالضرورة خلال حياتهم. في حقيقة الأمر، كان السلطان محمد منهمكاً في تأسيس سلطنة، وأود أن أشدد على أن محمد الفاتح - بالنسبة إلى تاريخ السلطنة العثمانية بأكمله- هو السلطان الذي أنجز أعظم التغييرات في الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية ليس فقط في الأناضول، الموطن الأصلي للأتراك، وإنما أيضاً في الأراضي العثمانية خارج تركيا.

يُعتبَر السلطان محمد الفاتح واحداً من قادة عصر النهضة. إن الروايات التي تفيد أنه كان يتكلم لغات كثيرة تملك، برأيي، أساساً واقعياً. يذكر ترابزونتوس وجياكومو لانغوتشي، على سبيل المثال، أنه لم يكن هناك أي شخص يمكنه قراءة المراجع الهيلينية أفضل منه.

قـد تكـون هنـاك درجـة مـن المبالغة هنـا، ولكن ليس ثمة شـك في أنه كان يتحـدث اليونانيـة. عندمـا كانـت تُقرَأ المراجـع اليونانية أمامه، كان السـلطان محمـد يحتـاج إلـى القليـل مـن الترجمة فقط. كانـت مفرداته اليونانية واسـعة جداً، واللاتينية كذلك. أما بالنسـبة إلى معرفته بالعربية والفارسية فهذا واضح من الشعر الذي ألّفه –شأنه في ذلك شأن الكثير مـن عائلتـه. ويظهر أنـه كان مولعاً بالجغرافية والتاريخ أيضاً، مع اهتمام خـاص بطـروادة. بالرغـم من أن موقع هذه المدينة لم يكن مكتشَـفاً في ذلك الوقت، إلا أننا نستطيع الافتراض بأن الكثير من المعلومات حول طـروادة كانـت متوافـرة فـي ذلك العصـر. وهناك مكان آخـر من العالم كان يحظى باهتمام خاص لدى السـلطان محمد، ألا وهو إيطاليا. كان يحفظ خريطة هذا البلد عن ظهر قلب ويملك معرفة عميقة بهذه الأرض التي كان سـيفتحها حتماً، لو لم يسـبقه إليها الموت. هنالك أدلة كثيرة على ذلك تقدِّمها التقارير التي كان يرسـلها من اسـطنبول سـفيرا فينيسيا وجنوى، باغليو وبوديستا على التوالي.

كان هناك أثر من إيطاليا في كل مكان، في القاهرة والإسـكندرية وإيـران وشـرق الأناضـول، ومـع ذلـك لـم يكن هناك أي شـخص، في الشرق أو في الغرب، أكثر معرفةً بإيطاليا وثقافتها من السلطان الشرقي، السلطان محمد الفاتح. كان هو من وضع نهاية مملكة فينيسيا الأسطورية العظيمة من خلال سلسـلة من الانتصارات العسـكرية والسياسـية: غزو اسـطنبول وجزيرتـي إيوبيـا وسـاموثريس فـي البحـر المتوسـط؛ وإزالـة مسـتعمرات البحر الأسـود، وأهمها مملكة بونتيك (1463)؛ وضم شـبه جزيرة القرم في 1475؛ وتثبيت السيادة على والاكيا وبوغدانيا؛ وإخضاع البحر الأدرياتيكي للهيمنة العثمانية.

بالرغم من جميع الأشياء الإيجابية التي كُتبت حول السلطان محمد الفاتح، إلا أن دوره في القضاء على فينيسيا جعله، ربما، الحاكم الأشد

إثـارة للخـوف والبغـض فـي العالـم الغربـي. عندما ننظر إليه في سـياق التاريخ القومي التركي، فمن المؤكد أننا سـنجده رائداً أوجد توازناً بين الغرب والشرق، وفي الوقت نفسه فتح الدولة والشعب التركيين، وفوق ذلـك الثقافـة التركيـة، أمـام الغرب. وأود في هذا المقام أن أشـدد على حقيقة أن محمد الفاتح كان شرقياً بدون عقدة نقص تجاه الغرب. مثل هذه الذهنية نادراً ما توجَد بين مثقفي تركيا المعاصرين، دع عنك رجال الدولة فيها. كان شـرقياً، وفي الوقت نفسـه كان ملماً ومعجباً بالغرب. وهذا يفسر كون المناخ الثقافي الذي ساد في السلطنة في القرن الخامس عشر أشد خصباً حتى من المراحل التالية.

دعوني أذكر بعضاً من أبرز منجزات محمد الفاتح. قبل كل شيء، لقـد وضـع نهاية للهيمنة الفينيسـية علـى بيزنطـة والإمبراطورية اللاتينية التـي تأسسـت فـي 1204. وأمـال ميـزان القوة لصالح جنـوى، رغم أن الأخيـرة كانـت تضعـف بشـكل تدريجـي في ذلـك الحيـن. وكان قادراً علـى جمـع كميـة غير عادية مـن المعرفة فيما يتعلق بالشـؤون الداخلية والحيـاة الثقافيـة للـدول الأوروبية المعاصرة. ولـم يكن مهتماً بالأماكن فقـط، وإنمـا بتاريخهـا وثقافاتها أيضاً. يذكر الكاتبان العثمانيان في ذلك العصر، كريتوفيولوس وكمال باشازاده، أن الفاتح جلب تماثيل إغريقية ورومانية إلى اسطنبول، ومع أنه لم ينصبهما في ساحات العاصمة، إلا أنه كان يحب أن يحيط نفسـه بمستشـارين إيطاليين ويونانيين-عثمانيين حول التاريخ اليوناني والروماني. كانت دائرة المؤرخين حول السـلطان تتضمن كريتوفيولوس ولانغوتشي، اللذين بقيا من الإمبراطورية الرومانية الشرقية القديمة، بالإضافة إلى المؤرخ التركي طورسون بيه. وينبغي أن أنوِّه هنا أيضاً إلى أن الحاخام كابسالي من الطائفة اليهودية في اسطنبول كان عملياً يتحدى السلطان محمد في تأريخه للعصر.

كانـت مدينـة العاصمـة خليطـاً ثقافيـاً بحـق. وفـوق ذلـك، كانت

السلطنة الناشئة في طريقها لتشكيل إيديولوجيتها. قبل عهد محمد الفاتح، لم يُكتَب أي سجل تاريخي للأحداث والحروب وتطور الدولة العثمانية منذ بدايتها. لكن هذا الأمر تغيَّر في السنوات الأخيرة من حكم والد السلطان محمد الفاتح، مراد خان الثاني، وبشكل خاص خلال حكم السلطان محمد، حيث بدأ الناس بكتابة سجلات من هذا النوع. وفي هذه الأمثلة من التأريخ العثماني، يبدو تأثير الإيديولوجية واضحاً تماماً. بكلمات أخرى، إنهم يشهدون على ظهور نظام جديد، ونظرة جديدة للعالم، ونمط حياة جديد.

وفي موازاة ذلك، بدأ السلطان محمد في إعادة تحديد قواعد السلوك في البلاط، مثل إلغاء تناول الطعام مع وزرائه. كما تخلَّى عن عادة ترؤُّس الديوان-العادة التي أرساها والده- وبدلاً من ذلك كان يستمع إلى مداولات الديوان من خلف ساتر خشبي. وكان السلطان محمد يتصرف باحترام شديد مع بطريرك الروم[10]، بل ومنحه بعض الامتيازات أيضاً، لأنه هو نفسه كان إمبراطوراً رومانياً. ولم يكن السلطان محمد هو الشخص الوحيد الذي يدَّعي ذلك، إذ يؤكد مؤرخون معاصرون له ومؤرخون أتراك لاحقون، مثل ترابيزونتوس وكريتوفيولوس وابن كمال وكمال باشازاده، أن محمد الفاتح اعتلى عرش روما وأنه كان قيصراً رومانياً. ويضيفون أنه أخذ مكانه على العرش الروماني فعلياً، والدليل على ذلك هو قتله للأرستقراطيين الذين كانوا يشكلون آخر سلالة بيزنطية، لأن ما كان يفعله العثمانيون هو إنهاء نفوذ الأرستقراطيين

(10) ملاحظة المترجم: يمنحنا القاموس الصادر عن مؤسسة اللغة التركية ثلاثة تعريفات للكلمة الهامة رومي (*Rum*)، المشتقة من أصل عربي. أولاً، إنها تشير إلى شخص يوناني الأصل يعيش في بلد مسلم. ثانياً، إنها تعني كل الناس الذين يعيشون ضمن حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ويملكون حقوق المواطنين الرومانيين. ثالثاً -وهو استخدام قديم- إنها تعني أرض الأناضول. يُعتبَر التعريف الأول الأكثر استخداماً وقبولاً، مع أن الكاتب في هذا العمل يبدو بأنه يستخدم الكلمة بمعناها الثاني في بعض الأحيان.

البيزنطيين وتثبيت أنفسهم كورثة للتقاليد الرومانية السابقة.

من المعلوم أن السلطان محمد الفاتح صرَّح ذات يوم، قائلاً: "كما أن هناك شمساً واحدة في السماء، لا بد أن تكون هناك دولة واحدة ودين واحد على هذه الأرض". هذه كانت نظريته العالمية، التي سيعود إليها دائماً في المستقبل. من المثير للاهتمام أن تمسُّك الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بالتقاليد الرومانية، باسمها بالذات، يُظهر ادِّعاءً مشابهاً بالعالمية.

في الحقيقة، كان ادّعاء محمد الفاتح للعالمية قُرصاً مرّاً صعب الابتلاع بالنسبة إلى الغربيين والشرقيين على حدٍّ سواء. ولكن، حتى لو لم يعبِّر الناس عن استحسانهم له، فإنهم قبلوه بعقولهم وتصرَّفوا على هذا الأساس. لم يكن لديهم خيار آخر، على أي حال! عندما تدرس القرن الخامس عشر، ينتابك شعور أن الغاية الوحيدة من التاريخ التركي حتى تلك النقطة كانت تتمثل في التحضير لولادة هذا السلطان. بعبارة أخرى، مثلما كان عصر النهضة المرحلة التي اجتمعت فيها جميع المكوِّنات السابقة في الحضارة الغربية، فإن القرن الخامس عشر كان أيضاً الحقبة التي بلغت فيها العناصر والبنى المتنوعة للعالمين التركي والشرقي مرحلة النضج.

منذ ذلك الحين، سيتأثر تاريخ الأمم بعلاقتها مع فكرة العثمانوية[11] *Ottomanism*. في تاريخ الأتراك والأمم الإسلامية، أولئك الذين ظلوا مخلصين لإيديولوجية العثمانوية استفادوا منها، في حين لحقت كوارث بمن ابتعد عنها. هذا ما حدث لمغامرة شمال الفولغا، أي في تاريخ روسيا. وهذا هو أيضاً المصير المأساوي الذي حلَّ بالأندلس، التي ظلت لمدة ثلاثة قرون على الأقل منارة للعلم والثقافة في العالم.

---

(11) ملاحظة المترجم: لا يحدد المؤلف ما يعنيه بكلمة العثمانوية، ولكن، يُفهَم من السياق أنه يقصد حرية جميع المكونات الإثنية والدينية ضمن الإمبراطورية في الحفاظ على اختلافها.

المطبخ العثماني

ماذا كان يستخدم أجدادنا من أجل تناول طعامهم؟ ما هو المطبخ التركي-العثماني؟ باختصار، إنه توليفة من تقاليد طهوية مختلفة. لسوء الحظ، إن البحوث المتعلقة بهذا الموضوع غير كافية. بعض الدراسات تقدِّم أكثر بقليل من توثيق طريقة طهو أمهاتنا وجدَّاتنا للباذنجان أو تحضيرهن لهذا النوع من الحلويات أو ذاك، اكتشافاتٌ لا تأخذنا بعيداً جداً، في الواقع. في حين أن الأعمال الأخرى المستندة إلى الأدلة الموثقة أكثر تنويراً، ومنها على سبيل المثال دراسات ستيفانوس ييراسيموس، والبروفيسور الراحل سهيل أنور، والصديق العزيز تورغوت كوت. مع ذلك، بشكل عام، لم يُكتَب حتى الآن تاريخ يُعتَدُّ به للمأكولات التركية، وكتابته لن تكون يسيرة، بل قد تتطلب جهداً عالمياً.

من المغالطات التي نصادفها كثيراً اليوم المطابقة بين المطبخ التركي-العثماني ومطبخ اسطنبول وحدها. وهذا غير منطقي، إذ لا يمكن تحديد مطبخ عظيم بمأكولات مدينة أو عاصمة واحدة حتى لو كانت هذه المأكولات غنية ومتنوعة. أي شخص يظن أن المطبخ الفرنسي اليوم يتكوّن حصرياً من مجموعة الأطعمة الخاصة بالعاصمة باريس أو فيرساي يكون مخطئاً حتماً. في الواقع، لا أحد حتى يخطر بباله مثل هذا الشيء، لأن الفرنسيين -مثل الصينيين- أجروا منذ وقت طويل بحوثاً وتوصلوا إلى نتائج تدحض هذا الرأي. لكن الأتراك لم يُظهروا اهتماماً كافياً بالتقاليد الطهوية للولايات والمدن المتنوعة التي كانت تشكل السلطنة العثمانية، متجاهلين أن آثار تلك التقاليد لا تزال حية حتى الآن، فضلاً عن تجاهلهم لوثائق أكيدة. ولهذا السبب، إن

مقاربتنا (أي الأتراك ككل) العامة لهذا المجال خاطئة إلى حدٍّ بعيد.

على سبيل المثال، يُزعَم أحياناً أن زيت الزيتون لم يكن معروفاً للناس في الأناضول، رغم أن سكان منطقة إيجة في العصر العثماني كانوا يعرفونه ويستخدمونه في طهيهم. غير أن سجلات القضاة في القرن السابع عشر تشير إلى العكس تماماً. تكشف هذه السجلات أن من بين واجبات القاضي الكثيرة، الذي كان قاضياً ورئيساً لبلدية المنطقة التي يخدم فيها في آن واحد، تحديد كل السلع التي كانت تُشترَى وتُباع بكميات كبيرة، والتي كانت تُدعى الحوائج الضرورية، مهمةٌ كان يقوم بها بالتعاون مع ممثلين عن النقابة المحلية. وفي سجل الأسعار الخاص بمدينة أنقرة، بالإضافة إلى سجلات الأسعار في المناطق الأخرى، نجد أن زيت الزيتون مذكوراً تحت اسم "*rugan-ı zeyt*". هذا يخبرنا بأن الناس في أنقرة كانوا يستخدمون زيت الزيتون بالفعل، وإن ليس بالقدر المستخدَم في المنطقة الإيجية، مصدر الكثير من هذه السلعة. الشيء ذاته يظهر في كتاب دينيز ألفان حول المأكولات اليهودية-العثمانية، وهو بعنوان مطبخ دينا. هنا، تبيِّن ألفان أن حظر استخدام الحليب واللحم معاً بحسب قوانين كشروت الغذائية كان يعني عدم طهو اللحم بالزبدة، ولهذا السبب كان اليهود الأتراك يستخدمون زيت الزيتون في طهيهم أينما كانوا يعيشون، سواء في المنطقة الإيجية أو سواها من المناطق.

في أنقرة العثمانية، بسكانها الذين يبلغ عددهم 20,000، كان زيت الزيتون يُستخدَم من قبل الكثير من الناس، وإن ليس بقدر المناطق المنتجة للزيت مثل أيدن وساورخان ومانيسا. في مرحلة لاحقة، وخاصة خلال شهر رمضان، نجد أن سكان اسطنبول كانوا يتناولون أنواعاً مختلفة من الأطعمة من السعودية وبلدان عربية أخرى، بالإضافة إلى تناول البسطرمة الشهيرة من مدينة قيصري في وسط شرق الأناضول.

وفي مناطق أخرى، كان الناس يستخدمون أنواعاً مختلفة من الصابون من ولايات أخرى في السلطنة. بعبارة أخرى، لم تكن المواد القابلة للأكل فقط تُوزَّع وتُستخدَم من قبل الناس في مختلف أنحاء السلطنة، إذ إن الشيء ذاته ينطبق أيضاً على جميع السلع الحيوية.

بما أن السلطنة العثمانية كانت بلداً زراعياً، فإن الخضروات كانت واسعة الانتشار. مع ذلك، وبسبب طبيعة المناخ، فإنها كانت تعاني من نقص في بعض المناطق، ومن هنا بدأت الخضروات المخللة تكتسب أهمية كبيرة، إذ أصبحت تحظى بشعبية واسعة في الأناضول، مع امتلاك كل منطقة أسلوبها الخاص في التخليل. وهناك مادة أخرى هامة أيضاً هي البقلاوة، التي كانت تُصنَع من الحبوب. رغم هيمنة الأساليب الطهوية الاسطنبولية، إلا أن الناس كانوا يستمتعون، بل ويتوقون لبقلاوة حلب ودمشق. في الحقيقة، كل ولاية ومدينة كانت تملك نسختها الخاصة من البقلاوة، مع طعم مميز بها. مما سبق نستنتج أن الشيء الذي ندعوه المطبخ التركي كان شديد الغنى في الماضي، غير أنه ينحدر اليوم.

من مقارنة المأكولات التركية مع مأكولات المنطقة المجاورة نجد أنه ليس بوسع آسيا الوسطى ولا إيران أن تتباهيا بمثل هذه الأطعمة المتنوعة واللذيذة. ما هو وجه الاختلاف؟ على الأرجح، إن للطوائف والمجتمعات المتنوعة التي تعيش في الأناضول دور في تشكيل عادات طهوية معينة مثل استخدام المربيات أو تحضير الخضروات. على سبيل المثال، لا بد أن الأرمن واليونانيين والشعوب البحرية الأخرى ساهمت في تطوير طريقتنا الخاصة بطهو السمك. وبدون أدنى شك، إن تدخُّل العثمانيين في البلقان، الذي بدأ في وقت مبكر واستمر لوقت طويل، كان عاملاً هاماً في انتشار أساليب الطهو وأنواع المأكولات والتقاليد والعادات العثمانية المرتبطة بذلك. ولكن، مثلما أعطينا شيئاً لمطابخ

تلك المناطق، فلا بد أننا استعرنا بعضاً من تقنياتها الخاصة بالطهو أيضاً. هذا ليس لغزاً. لكن اللغز هو كيف أن آسيا الصغرى لا تزال قادرة اليوم على التباهي بمأكولات أشد غنىً من مأكولات البلدان المجاورة لها.

من غير الممكن حل هذا اللغز، في الواقع، وليس من السهل فهمه أساساً. ولكن، ما لا يمكن إنكاره هو أننا ندير ظهورنا لمأكولاتنا القديمة وتقنياتنا السابقة في طهو وتخزين وحفظ الأطعمة. اليوم لا يطبخ الناس باستخدام الأدوات النحاسية، بل لا يعرفون ما هي هذه الأدوات. لماذا لا يستخدمونها؟ هل هذا صعب؟ بل إنهم لا يستخدمون الأواني الفخارية أيضاً، ربما لأن استخدام قِدْر فولاذي يبدو أسهل. بصفة عامة، ينظر الناس اليوم إلى الطهو على أنه عمل شاق ومزعج. ولكن، ما لا يعرفونه هو أن القدرة على الطهو في الثقافة الغربية، التي نحاول جاهدين تقليدها، تُعتبَر قيمة عظيمة: البراعة في الطهو مؤشر ثقافة، والطاهي البارع في الغرب يُقدَّر أكثر من أي مثقف. رغم أن جيلي تربّى على مطبخ غني، حاولت أمهاتنا وجدَّاتنا جاهدات الحفاظ عليه، إلا أن أولادنا، ذكوراً وإناثاً، يتجنبون الطهو وفق الطريقة القديمة التي يدَّعون أنها شاقة جداً. وهذه خسارة كبيرة بحق.

دعونا نترك المطبخ جانباً في الوقت الحالي؛ وهو على أي حال ليس موضوع تركيزنا الحقيقي هنا. دعونا نناقش كيف كانت تحصل مدن السلطنة على طعامها. ليس هناك شك في أن مزارع العنب، والأراضي الزراعية، ومخازن الحبوب، والمطاحن الموجودة في جوار البلدات الصغيرة في السلطنة كانت تشكل موارد سهلة الوصول. وهذه البلدات لم تكن تملك مسالخ، لأن الحيوانات كانت تُذبَح إما في المزرعة أو في المنزل. في هذه البلدات، كان الناس يخصصون وقتاً للطهو وتناول الطعام، وكانوا يقومون بذلك بحب وعناية عظيمين. رغم

أننـا نحتـاج بالتأكيـد إلى أن نعرف الظروف فـي الولايات، ولكن ينبغي لنا ألا ننسـى أن اسـطنبول التي نتحدث عنها كانت مدينة كبيرة، وكانت كذلك منذ السـنة الرابعة بعد الميلاد تقريباً. كما ذكرنا سـابقاً، لم تكن هناك مدينة تشبه اسطنبول في أوروبا أو آسيا، لأن المدن الآسيوية مثل بغـداد وأصفهـان لـم تتطـور إلا بعد مرور وقـت طويل، تزايد بعده عدد سكانها، الأمر الذي تسبب بإحداث مشاكل مشابهة لتلك التي واجهتها اسطنبول. يقدِّر المؤرخون عدد سكان تلك المدن بالملايين، ولكن في تلك الأزمنة كان من المستحيل على 1.5 مليون إنسان العيش في مدينة، لأن البنية التحتية ونظام الصرف الصحي والتدابير الصحية في مثل هذه الأمكنة لم تكن كافية لهذا العدد الكبير من السـكان. وبناءً على ذلك، إذا كان عدد سكان إحدى المدن يبلغ عدة مئات من الآلاف، فهذا كان يُعتبَـر كبيـراً جـداً. إذن، أين كانوا يجدون الحبـوب لكل هؤلاء الناس؟ مـن أيـن كان يأتـي الطحيـن والقمـح واللحـم والفاكهـة والخضروات؟ كانـت الإمبراطوريـات تقـدم هذه المواد من خلال نظام نقل يُدعى نظام الاحتـكار، وفـي الواقـع، لـم يكن هناك بدٌّ مـن فرضه بالقوة على بعض المجتمعات.

كانـت اسـطنبول تحصـل علـى طحينهـا وحبوبهـا وحنطتهـا من دوبرودجـا، وهـي منطقـة تقـع بيـن الدانـوب والبحـر الأسـود، والتي تتضمـن اليـوم أراضـيَ بلغاريِّـةٍ ورومانيِّـةٍ معاً. ويمكـن الافتراض بأن منتجات الألبان، أي الزبدة والجبن، كانت تأتي إلى اسطنبول من شبه جزيـرة القـرم، بمـا أن السـهول مـا وراء تلـك المنطقة كانت مشـهورة بحليبهـا. كان ملـك القـرم يشـحن هـذه المنتجـات إلى اسـطنبول عبر البحر. لهذا السـبب، على سـبيل المثال، كان ميناء ومقاطعة كَفَه *Kefe* (الاسـم العثماني لمسـتعمرة فيودوسـيا الجَنَوَية السابقة) تابعيْن مباشرة لاسـطنبول وليس لملك القرم. في كَفَه، كانت تُتَّخذ إجراءات صارمة

للتعامل مع السوق السوداء، أي لمنع التخزين والتهريب. وهذا لأن الدول التجارية الواقعة على البحر المتوسط، ولا سيما من القرن السادس عشر فصاعداً، كانت تلجأ إلى التجارة غير الشرعية من أجل نقل تلك المنتجات إلى الغرب. عندما كان العثمانيون -عبر استخدام نظام الاحتكار- يشحنون القمح بسعر 10 ليرات للوحدة، فإن التجار كانوا يدفعون 11 أو 12 ليرة.

أما بالنسبة إلى لحم اسطنبول، فإنه كان يأتي من سهل ثراسيان في بلغاريا، في حين كان شحن القطعان من مسؤولية مجموعة خاصة من الرعاة يُسمُّون *celebkeşans*. وكان العنب يأتي من الجزر المتوسطية ومن منطقة بحر إيجة. وما يدل على أن تلك التجارة غير الشرعية كانت تمثل مشكلة في هاتين المنطقتين هو إصدار مراسيم (فَرمانات *fermanlar*) سلطانية تحظر على السفن نقل البضائع إلى سفن أجنبية والتوقف في موانئ أخرى تقع على طريقها وإفراغ بضائعها هناك.

أياً يكن الأمر، ظلت اسطنبول لوقت طويل مكاناً يصعب تأمين الاحتياجات فيه والعيش فيه. كان سكان اسطنبول في بعض الأحيان يواجهون شتاءات قاسية طويلة، وفي أحيان أخرى كانت تظهر حركة تمرد، فتُغلَق المحال والأفران وتُترَك المدينة من دون أي طعام. وفي ظروف أخرى، كانت تحدث حالات نقص، فترتفع أسعار الوقود والطحين بشكل مفاجئ ولا يبقَ للناس شيء ليشتروا به. في مثل هذه الظروف، كان الناس يشعرون بالاستياء، وهذا الاستياء كان يسبب ألماً في رأس القاضي، بما أن قاضي اسطنبول كان رئيس القضاة، ورئيس البلدية، وعضواً رفيعاً في طبقة العلماء في وقت واحد. لكنه لم يكن الوحيد الذي يعاني، بل ورئيس الوزراء أيضاً، إذ كان هو ووكيله مسؤولَيْن عن إدارة اسطنبول. وكان السلاطين يغضبون بشدة من هؤلاء المسؤولين حينما كانوا ينكرون مسؤوليتهم إما بالكذب أو

حجب المعلومات الحقيقية أو إعطاء معلومات كاذبة.

ولا شك أن الحرائق كانت تمثل مشكلة كبيرة بالنسبة إلى اسطنبول، لأنه بعد حصول حريق ما، كان يصعب الحصول على المواد والحرفيين الماهرين والعمال اللازمين لإعادة بناء مئات المباني الخشبية. كان العمال والمهندسون المعماريون يُجلَبون على الفور من الولايات الأخرى في السلطنة، وكانت تُصدَر مراسيم خاصة للمساعدة على الحصول على المواد المطلوبة، وتُبذَل جهود مضنية من أجل إعادة تنظيم المدينة وترميم تلك المباني التي أُحرقت أو هُدِّمت، وكلفة كل هذا لم تكن رخيصة.

من الواضح أن مشكلة تأمين الطعام في اسطنبول جعلت الناس يصبحون نوعاً ما أقل كَرَماً من أولئك الذين يعيشون في الولايات الأخرى. ولكن، كل شيء بدأ بالتغير في القرن التاسع عشر، عندما تحسّنت وسائط النقل. في البداية، كانت المنطقة المحيطة باسطنبول في ذلك الوقت مليئة بالأراضي الزراعية، وهذا كان ينطبق أيضاً على القرى المنتشرة على امتداد البوسفور. لهذا السبب، تبدو المنتجات المحلية مثل الخس من لانغا، والخيار من تشينجلكوي، والفريز من أرناووطكوي -كل هذه المناطق كانت مستوطنات قريبة نسبياً من مركز اسطنبول- مثل الأعاجيب بالنسبة إلينا اليوم. في هذه الأيام، الأشخاص المهتمون فقط سيتمكنون من إيجاد وشراء هذه المنتجات في مواقع محددة وفي أوقات محددة من السنة، والسبب هو أن هذه المنتجات تُزرَع بكميات ضئيلة اليوم، في حين أنها كانت، في المرحلة العثمانية، متوافرة بكثرة في المناطق المحيطة باسطنبول.

لكن هذا لا ينطبق على الخبز واللحوم، التي كانت تُجلَب من الأناضول. وإلى أن أصبحت الحبوب وفيرة في اسطنبول بفضل الأنشطة الزراعية للمهاجرين من روميليا الذين استقروا على امتداد خطوط

السكك الحديدية التي كانت تربط اسطنبول بأنقرة وكونيا عبر أفيون -كانت تُدعى سكة حديد بغداد- كانت تركيا تعتمد على القمح من روسيا ودوبروجا، أي على استيراده من هناك.

خلال الحرب اليونانية-التركية في العام 1897، أصبح من الممكن للمرة الأولى إطعام الجيش التركي قمحاً قادماً من الأناضول، وذلك بفضل خط الحديد الذي أُنشأ في العام 1890، والذي كان يصل إلى داخل الأناضول. لا شك في أن هذه التطورات في ميدان النقل سمحت للمجتمع التركي بالعيش بطريقة عصرية، وهكذا أصبح بإمكان سكان مناطق وسط اسطنبول، مثل فاتح وأكسراي، إيجاد اللحم والخبز والفاكهة والخضروات بسهولة أكبر من ذي قبل. والأهم من ذلك هو أن المدينة أصبحت قادرة على حل مشكلتها المتعلقة بإمكانية الوصول إلى السكر لأن روسيا والنمسا كانتا تنتجان وتبيعان هذه المادة. لكن نشوب الحرب العالمية الأولى وضع حداً لهذا الحل، حيث لم يعد بمقدور الناس الحصول على هذا السكر المستورد. وبسبب إقلاعهم أيضاً عن عادتهم القديمة بأكل أطعمة مثل العسل والدبس، فقد أصبحوا عرضة للمرض ببساطة بسبب نقص السكر. الجميع يعلم أن من العلامات المهمة لهذا النقص هو الجَرَب. بل إن الكثير من الناس ماتوا لأن ضعف أنظمتهم المناعية جعلتهم عرضة لأمراض كالإنفلونزا. لهذا السبب، عانى سكان اسطنبول من خسائر كبيرة خلال الحرب العالمية الأولى.

كل هذا يشير إلى حقيقة لا مفر منها، وهي أن تركيا، فيما يتعلق بالزراعة، كانت بحاجة إلى الاستفادة من مصادرها غير المستغلة. لهذا السبب، أول شيء فعلته الحكومة في المرحلة الجمهورية هي إنشاء مصانع للسكر. ولهذا السبب أيضاً، يُعتبَر السكر، بالنسبة إلى حكام هذا البلد، مادة استراتيجية، رغم أننا نحن الناس العاديون نشتكي بخصوص السكر ونقول إنه ينبغي لنا أن نوقف إنتاجه بسبب تكلفته الباهظة. ثمة

قول يتردد كثيراً وهو أننا لا نستطيع العيش من دون سكر ولا نستطيع أن نتدبر أمرنا من دون إنتاجه.

لقد طوَّرت اسطنبول مطبخاً غنياً ونجحت -مثل بعض الولايات الأخرى- في جلب مواد غذائية غير اعتيادية لم يكن يتوقع المرء إيجادها في ظل اقتصاد تقليدي كان مضطراً إلى الاعتماد على نظام نقل متخلف. ورغم أن هذه الإنجازات جعلت الناس تكتسب حاسة ذوق رفيعة، إلا أنها كانت تعني أيضاً أن هؤلاء الناس كانوا أقل قدرةً على التأقلم مع حالات النقص. خلال الحرب العالمية الأولى، أظهرت الأمة عجزاً كاملاً في التعامل مع المشاق التي واجهتها. في حين أن الناس في فيينا وبرلين، وإن كانوا مضطرين إلى التأقلم مع الصعوبات نفسها، إلا أنهم أبدوا قدرةً أكبر بكثير. والسبب الأرجح يكمن في أن نظام التوزيع وتقسيم الحصص لم يكن يعمل بنفس فعالية ذاك المتعلق بالعاصمتين المذكورتين.

عندما كان السلطان عبد الحميد خان، الذي مات قبل نهاية الحرب بقليل، يُنقَل في موكب جنائزي رسمي من قصر الحاكم إلى مرقده الأخير في قبر السلطان محمود في ديوانيولو، مدَّت النساء وعامة الناس في الحي رؤوسهم من النوافذ وراحوا ينوحون ويشتكون من حكومة تلك الأيام، صائحين: "يا سلطاننا العزيز الذي أعطانا خبزنا اليومي، كيف يمكن أن تتركنا بهذه الطريقة!" لم يكن من السهل على الناس دخول حرب شاملة طويلة الأمد من دون استعداد!

ورغم أن تركيا لم تشترك بشكل مباشر في القتال في الحرب العالمية الثانية، إلا أن الحكومة عمدت إلى استلام زمام السيطرة بالنسبة إلى المواد الغذائية، خشية أن تتكرر حالات النقص السابقة. لكن النتيجة كانت هي ذاتها، مع ارتفاع كبير في الأسعار، وهذا لم يُنسَ لمدة طويلة. في الحقيقة، رغم أن الحديث عن الأوضاع في هاتين الحربين العالميتين

لا يسرُّ القلب، إلا أنهما أدّيتا إلى تصميم أكبر حيال مسألة الغذاء في تركيا. ما أعنيه هو أن تركيا أصبحت منظَّمة. فبعد الحرب العالمية الثانية، أصبح باستطاعة أبعد قرية في أبعد زاوية في تركيا إيجاد طريقة لإيصال منتجاتها إلى السوق. وفي هذه الأيام، إننا لا نواجه أي مشكلة فيما يتعلق بالاحتياجات الغذائية الأساسية، فضلاً عن أن تركيا هي البلد الأرخص في أوروبا في هذه المواد.

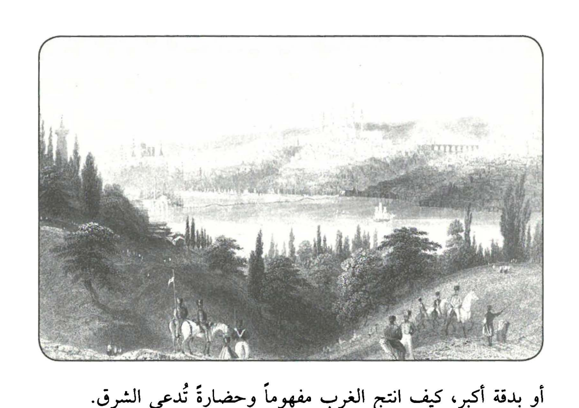
كتب الرحّالة والسلطة العثمانية

ليس هناك شك في أن أحد مصادرنا الرئيسة للمعلومات فيما يتعلق بالإمبراطوريتين العثمانية والسلجوقية يكمن في كتابات الرحّالة الأجانب، الذين زاروا هذه المنطقة التي سكنها الأتراك وأصبحت تركية حقيقية ابتداءً من القرن الحادي عشر. إن الإيطاليين والجَنَويين والفينيسيين، الذين كانوا يعرفون الشرق الأدنى جيداً وارتبطوا بعلاقات تجارية ودبلوماسية مع أرض تركيا قبل وقت طويل من الأتراك، أي ابتداءً من القرن الثاني عشر، أطلقوا على هذا البلد اسم تركيا (*Türchia*) أو تركمانيا (*Turcmenia*). بيد أن ادِّعاءاتنا الإمبراطورية جعلتنا نطلق على بلدنا أسماء مثل أرض الرومان، ومنطقة الرومان، وسلاجقة روميليا وروميليا، وكلها متعلقة بالإرث الروماني.

إن التعليقات التي كتبها أولئك الذين سافروا إلى هذا البلد بالغة الأهمية. بإمكاننا اليوم أن نجد في أرشيف الفاتيكان تقارير ممنهجة ودورية حول تركيا تعود إلى العام 1135. بالطبع، إن الأرشيفات الأحدث في فينيسيا وجنوى -لا نزال لا نعرف محتوياتها بالضبط- تكمِّل المعلومات الغنية التي يزخر بها أرشيف الفاتيكان -لقد سبق ونُشر الكثير من هذه التقارير. إذا نظرنا فقط إلى كتب الرحّالة التي كُتبت على الأراضي العثمانية في القرن التاسع، فإننا سنرى أن هناك أكثر من 5000 كتاب منها. والكتب الفرنسية والألمانية الشهيرة الأقدم منها تعود إلى ما قبل الحقبة العثمانية، أي إلى اسطنبول البيزنطية، وهي تصف أناضول ذلك الزمن بأسلوب ينبض بالحياة. من أبرز هؤلاء الرحّالة الفرنسي بيرتراندون دو لا بروكيير، الذي كتب حول حقبة

مراد الثاني بعد فترة قصيرة مما كتبه مبعوث كاستليان، روي غونزاليس دو كلافيجيو، وهانز شيلتبيرغر، وهو رحالة ألماني أُسر في تركيا وقام بتسجيل ملاحظاته فيها. كتب شيلتبيرغر صلاةً ربانية باللغة التترية، أي في اللغة التركية التشاغاتية القرمية-القازانية. وهذا تفصيل مثير للاهتمام، لأنه يبيِّن لنا أن المبشِّرين، حتى في ذلك الزمن البعيد، كانوا يحضِّرون نصوصاً وصلوات إنجيلية كدعاية موجَّهة للشعوب التركية.

من الواضح أن أوروبيو ذلك الزمن كانوا مفتونين بالشرق، وما يثير الدهشة هو أن الكتب الشبيهة بكتاب شيلتبيرغ كُتبت قبل اختراع الطباعة ووُزِّعت على شكل مخطوطات مكتوبة بخط اليد. وهذا يوحي بأن بعض الأمم، حتى قبل اختراع آلات الطباعة، قرأت الكثير لدرجة أنها كانت تثمِّن إجراء البحوث حول تركيا. في الواقع، لقد كُتبت روائع حقيقية حول البلد في ميادين الكتب الرَحَلية والفلسفة والجغرافيا. كان جان شاردان -فرنسي شهير من القرن السابع عشر- هو من ألَّف كتابي من باريس إلى تبيليسي ومن باريس إلى أصفهان. وهنا، بالإضافة إلى وصفه المليء بالصور والغني بالمعلومات، فإننا نجد شيئاً آخر، وهو أن الأوروبيين بدأوا يرون أن الشرق، أي شرق المتوسط، يتكون من بلدان "كسولة، وثابتة، ومتخلفة". يعبِّر شاردان عن هذا الموقف بقوله: "لا شيء يتغير في آسيا. يوجد كسل. ولكن في أوروبا هناك تغير دائم". في كتب شاردان -وهو كاتب من عصر النهضة الباروكية- يمكننا أن نلاحظ أن الغرب بلغ الذروة في مجال تمجيد الذات. ونلاحظ الشيء ذاته في كتابات جان بابتيست تافيرنيير، أحد أهم الرحالة في مرحلة التنوير الفرنسية، الذي يتميز كتابه رحلات إلى شرق المتوسط بأهمية خاصة، وقد نَشَر كتبه تحت عنوان ست رحلات في إيران وتركيا. إن ملاحظات هذين الرحّالين شديدة الأهمية، ليس فقط للمعلومات التي يقدّمانها وإنما أيضاً لأنهما يبيِّنان لنا كيف بدأ الغرب بالنظر إلى الشرق،



أو بدقة أكبر، كيف انتج الغرب مفهوماً وحضارةً تُدعى الشرق.

نيكولاس دي نيكولاي، مؤلف كتاب رحلة إلى تركيا، واحد من الأشخاص الذين يزودوننا بمعلومات قيِّمة حول الحياة الاجتماعية التركية والدولة التركية. وما يثير الانتباه هو أن نيكولاس لم يستخدم الاسم الذي يفضِّله الناطقون بالإنكليزية اليوم *Turkey* -ينبغي ألا نشعر بعقدة نقص حيال حقيقة أن الناطقين بالإنكليزية يربطون بلدنا بطائر- بل استخدم كلمة *Turkie* وهي كلمة قريبة جداً من الكلمة التركية *Türkiye*.

أما سالومون شويغير، المذكور آنفاً، فهو كاهن بروتستانتي شديد التعصب أتى إلى تركيا في نهاية القرن السادس عشر. والمثير للاهتمام في كتابه الرَحَلي أكثر من المعلومات الواردة فيه هو نظرته العالمية. الكتاب مكتوب باللغة الألمانية الحديثة ولكن بقواعد ومفردات خاصة به، وبأخطاء إملائية كثيرة. ويحوي كتاب شويغر -وهو على شكل نسخة عن الكتاب الأصلي، مثل الكثير من كتب الرحّالة الأخرى- وصفاً لقصر توبكابي. حتى في وصفه للحمَّام التركي، إنه يشعر بضرورة ذكر المخازن التركية -شيء يثير الرعب في قلب كل غربي. ولا يستطيع

شويغر وأمثاله أن يمنعوا أنفسهم من الكتابة حول، أو وصف، الجيوش التركية. مع ذلك، فإن ملاحظات مثل الملاحظة التالية جديرة بالاهتمام: "أولئك الناس يرتدون قطعة من القماش حتى في الحمَّام. إنهم أناس مهذبون. ينبغي لنا أن نتعلَّم السلوك الحسن والأخلاق من هؤلاء البرابرة". وهناك ملاحظة هامة أخرى: "مثل جميع المتدينين المنافقين، إنهم يبنون معابد ضخمة وصروحاً عامة من أجل خداع الله، مع أن منازلهم في حالة مريعة".

عاش المستكشف الشهير أوليا جلبي لبعض الوقت في فيينا، حيث كان جزءاً من البعثة الدبلوماسية العثمانية، وبذلك سنحت له الفرصة لوصف العالم خارج السلطنة العثمانية. واليوم ليس الأتراك فقط من يجدون أن ما قاله مثير للاهتمام، بل والمؤرخون في مختلف أنحاء العالم أيضاً، بالإضافة إلى الأوروبيين العاديين. بميله للسخرية وبذكائه الحاد، كان جلبي يحب أن يوجِّه قلمه للتناقضات غير العادية. ولأنه كان يملك أذناً جيدة، فقد أثبت أنه كان موثِّقاً ممتازاً للغات، ففي كتبه الرحلية، يمكننا أن نجد آثاراً للغات القوقازية، التي لم يعد هناك من يتكلم بها الآن، ولهذا السبب يعتبره بعض القوقازيين مصدراً لا يمكن الاستغناء عنه.

هناك نقاط أخطأ فيها جلبي أو اختلقها. ففي بعض الأحيان، كان يذكر أشياء مضحكة، من أجل تسلية قرَّائه وحسب، مثل قطة تتجمَّد بينما كانت تقفز من سقف لآخر. ولكن، هذا لا ينفي حقيقة أن كتابه مصدر غني جداً فيما يتعلق بالعلوم والثقافة والجغرافيا التركية، عملٌ يستحق التقدير بحق. في الواقع، ليس هناك أي شخص آخر مثل جلبي في تركيا، ومن الصعب إيجاد نظير له في أوروبا أيضاً.

مع ذلك، وإن لم تكن بنفس مستوى عمل جلبي، فإن هناك مصادر هامة أخرى ترى النور اليوم. ومنها كتاب الأسفار الشهير للدبلوماسي

العثماني المعروف باسم يرمي سكيز جلبي محمد أفندي. رغم أننا لا نأخذ من محمد أفندي الكثير من المعلومات حول ما يُسمّى بمرحلة الوصاية في فرنسا، المرحلة التي وصل فيها الملك لويس الخامس عشر إلى العرش وهو ما يزال طفلاً؛ ورغم أن هناك عدداً لا يُحصى من الوثائق والرسائل، الرسمية وغير الرسمية، والكتب التي يمكن أن تساعدنا في هذا الخصوص -مصادرٌ حول الحضارة الفرنسية والغربية دُقِّقت من باحثين من بلدان كثيرة- إلا أن كتابات محمد أفندي لا تزال حتى اليوم تفتن الأخصائيين في الثقافة التركية والفرنسيين وعلماء الاجتماع والمؤرخين. لماذا؟ السبب هو أن هذا العمل يقدِّم رؤية أخرى، نقداً آخر، نوعاً آخر من التقييم.

إن ما يبيِّنه لنا مثال محمد أفندي هو أننا إذا أردنا أن نفهم ماضي حضارة ما، فإننا بحاجة ليس فقط للاطلاع على رزم الوثائق والملاحظات المكتوبة بواسطة أفراد من أجيال سابقة، وإنما إلى تقييمات الغرباء أيضاً. من الضرورة الفائقة بمكان أن ندرك هذا الأمر. علاوة على ذلك، مثل هذه المصادر ضرورية جداً من أجل فهم الحياة الاجتماعية والاقتصاد والثقافية لحضارة متعددة القوميات مثل الحضارة العثمانية، التي احتلت أراضي أمم مختلفة، وحكمت أعراقاً متنوعة، ودامت ما لا يقل عن ستة قرون امتدت حتى العصر الحديث.

لقد حدثت تغيُّرات عظيمة في القرن التاسع عشر. حصل هذا عندما حوّل كتَّاب مثل جيلوم أنطوان أوليفيير وتشارلز تيكسيير وأندرياس دافيد موردتمان اهتمامهم إلى تركيا، وبعض هؤلاء الكتّاب كانوا مميزين حاً. غير أن هؤلاء الرجال لم يكونوا مجحفين فيما يتعلق بالبيئة الفيزيائية فحسب، بل كانوا كارهين للثقافة العثمانية أيضاً. ولكن، لأنهم كانوا أشخاصاً واسعي المعرفة ويتكلمون التركية أيضاً، فينبغي لنا ألا نكتفي بتجاهل إجحافهم. يجب علينا أن نبذل جهداً لفهمهم.

ولا تقل كتب المسافرين الأتراك في القرن التاسع عشر إثارةً للاهتمام أيضاً. ومنها كتاب جورنال الذي كتبه رجل الدولة والكاتب المسرحي المرح علي بيه عندما كان في طريقه إلى بغداد من الهند. يمكننا أن نرى كيف وجد علي بيه بغداد في زمن إصلاحات مدحت باشا، ويمكننا أن نقارن انطباعاته عن الهند بالانطباعات المشوقة للعديد من المسافرين الأتراك الآخرين المعاصرين له.

لكن الأهم من هذه الأعمال هي كتابات الرحالة الأتراك في القرن العشرين، وأبرزهم الصحفي والكاتب فالح رفيق أطاي. عندما نتمعَّن في الطريقة التي رأى فيها هؤلاء الكتّاب البلقان وأوروبا الغربية وروسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية والهند تحت الحكم البريطاني، فإننا سنجد حتماً آثار نظرة سياسية، وجهة نظر معينة نحو العالم. وفي هذا المعنى، إن كتب الرحّالة ليست فقط مصادر يمكننا من خلالها اكتشاف حوادث ملموسة ولاعبين من الماضي، وإنما أيضاً مصادر تساعدنا على فهم الأشياء التي وجد المؤرخون غالباً صعوبةً في تحديدها بدقة، أي ذهنيات الناس واهتماماتهم، ومواقفهم من جيرانهم والعالم. لهذا السبب، يجب ترجمة كتب المسافرين إلى التركية بأسرع وقت ممكن، ومن هذه الكتب التي تحتاج إلى ترجمة كتب أجدادنا العظيمة التي كُتبت بالخط العثماني، والتي يجب إعادة كتابتها بالأبجدية الرومانية. وإذا أغفلنا إنجاز هذه الترجمات فإننا بذلك سنكون قد تجاهلنا حقيقة أن كتب المسافرين هذه مصادر يمكن أن تزوِّدنا بما لا تستطيع تزويدنا به الصحف والرسائل والوثائق الرسمية.

القصور العثمانية وقصر توبكابي

لطالما كانت قصور السلطنة العثمانية وما تتميز به من روعة موضوعاً للنقاش وصناعة الشعارات. لقد نشأ جيل بأكمله في تركيا وهو يسمع قصة القصور العثمانية وإفلاس السلطنة التي فُصِّلت في الكتب المدرسية. ولكن، في العقد الأخير، بدأ الأتراك بزيارة عواصم أوروبا وروسيا، ورأوا قصور وساحات هذه المدن، وأدركوا أن إنفاق السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر كان متواضعاً بحيث لا يمكن حتى مقارنته بإنفاق الدول الكبيرة الأخرى.

دعونا لا ننسَ أن السلطنة العثمانية كانت تنتمي إلى هذه الفئة المسماة الدول الكبرى وأن هذه الدول الكبرى كانت مضطرة إلى الالتزام ببروتوكول مشترك، يتضمّن متطلّبات معينة. فعلى سبيل المثال، كانت هذه الدول تتبادل السفراء فيما بينها. في هذه الأيام، جميع الدول تفعل ذلك، لكن حفنة من الدول كانت تمثِّل نفسها بهذه الطريقة في الماضي. في حين كانت تُمثَّل دول أخرى في العواصم الأجنبية بمسؤولين ودبلوماسيين يمكن أن نسمِّيهم مبعوثين وسطاء أو مبعوثين وسطاء بسلطات استثنائية، لكن هؤلاء الممثلين كانوا يشكِّلون فئة مختلفة عن فئة السفراء. وهؤلاء الأخيرون كانوا مشمولين ببروتوكول الدولة التي يخدمون فيها. وعلى هذا الأساس، فإن المكان الذي كان يُمنَح لهم من قبل حاكم الدولة من أجل الإقامة فيه كان يُدعى قصراً، وليس مجرد مقر إقامة. يمكننا أن نلاحظ ذلك في أمثلة مثل قصر فرنسا في اسطنبول، الذي كان مزوّداً بحراسة أمنية خاصة. كانت درجة الاحترام التي تُمنَح للسفراء مدهشة. فعلى سبيل المثال، كان من واجب

الحكومة المضيفة أن تمدّ طريقاً يؤدي إلى السفارة، وأن تراقب الأبنية التي ستُبنى في جوار السفارات. في اسطنبول، لم يكن يُسمَح للناس ببناء أو فتح دار للشرب بالقرب من أي سفارة. وكانت سيارة أو قارب سفير دولة كبيرة تُسجَّلان وتُمنَحان الأولوية وفقاً للبروتوكول.

ليس هناك شك في أن قصر توبكابي، في القرن التاسع عشر، لم يكن في وضع يؤهّله ليكون ضمن بروتوكول الدولة. لم يكن بإمكانه استضافة رئيس دولة زائر، ولا كان مكاناً مناسباً لإجراء مراسم معاهدة ما. لا بل لم يكن بالإمكان استقبال أحد السفراء فيه. وعندما أُعيد تعريف القواعد الدبلوماسية، خصوصاً بعد مؤتمر فيينا في العام 1815، فَقَدَ قصر أجدادنا المزيد من مكانته. لهذا السبب، اختار محمود الثاني -وكان محقاً في ذلك- العيش خارج القصر. ورغم أن هذا السلطان لم ينتقل للعيش في قصر جديد خلال حكمه، إلا أن ابنه، عبد المجيد خان، استطاع أن يستقر في قصر دولمابهتشه في الأيام الأخيرة من عهده. وخلال حكم شقيق عبد المجيد، السلطان عبد العزيز خان، ضُمَّ قصر تشيراجان وقصر الحاكم إلى دائرة بروتوكول الدولة. وأخيراً، أمر السلطان عبد الحميد خان ببناء قصر يلدز.

لا يمكن وضع قصر دولمابهتشه في نفس المستوى مع قصر هوفبيرغ الإمبراطوري في فيينا، أو قصر اللوفر أو قصر فرساي في فرنسا، أو القصر الشتوي في سانت بطرسبورغ الذي تحوَّل إلى متحف هيرميتاج الآن. في الغالب، يمكن تشبيهه بالقصر الصيفي الروسي في بترهوف في سانت بطرسبورغ. والقسمان الوحيدان الجديران بالذكر في قصر دولمابهتشه هما قاعة المراسم الكبيرة الباذخة والفسيحة، التي كان السفراء يسلِّمون فيها رسائل اعتمادهم إلى السلطان، وما يُسمَّى بـ *Süfera Odasi*، وهي غرفة جانبية كانت تُخصَّص لإجراء حوار بين السفراء والسلطان. من الواضح أن مراسم تتويج السلطان كانت تجري

في قاعة المراسم، وخلال هذا الاحتفال، كان الأشخاص المشمولين في البروتوكول، مثل كبار المسؤولين والزعماء الروحيين والسفراء في العاصمة، يجتمعون في حضرة السلطان. والشيء ذاته كان يحصل عندما كان كبار المسؤولين والوجهاء يأتون ليقدموا تهنئتهم للسلطان في المناسبات الدينية. باستثناء هاتين القاعتين، ليس هناك أي شيء فاخر في قصر دولمابهتشه -ما عدا إطلالته الرائعة على البوسفور.

لا شك في أنه كانت هناك حاجة ماسة إلى إنفاق النقود على القصور في القرن التاسع عشر. فباستثناء مواقعها الطبيعية الخلابة، لم يكن فيها أي شيء يجعلها قابلة للمقارنة مع قصور الدول الحديثة الأخرى. وبما أن السلطنة العثمانية كانت تُعَدُّ من بين الدول العظمى، بحسب البروتوكول الدولي، فإن حالة أبنيتها الرسمية كانت تثير القلق.

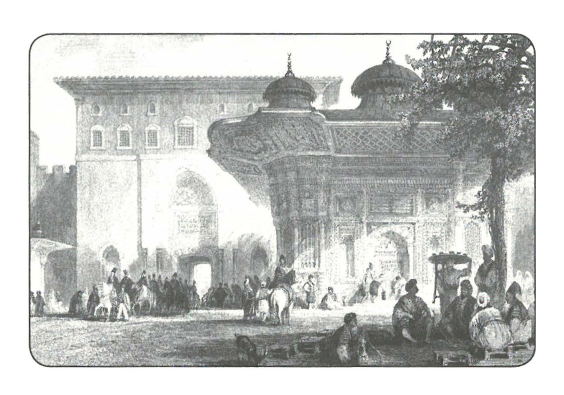
من المثير للدهشة بالفعل أن القصور الرسمية والمنازل السكنية الخاصة بالوزراء والمسؤولين الآخرين في المجتمع العثماني لم تكن تتمتع بجاذبية خاصة. والشيء ذاته ينطبق على أبنية الزعماء الروحيين، المسلمين والمسيحيين معاً؛ بعكس البابا، على سبيل المثال، لم يكن البطريرك يملك قصراً صيفياً وآخر شتوياً. كان الوزراء يكتفون بالعيش من دون منازل أو قصور فخمة، وحتى السلاطين كانوا يعيشون في درجة معينة من التواضع والبساطة. ورغم أن السلطان سليمان العظيم أمر ببناء مجمع السليمانية الرائع، الذي كان له تأثير كبير على الأبنية الأخرى منذ ذلك الحين، إلا أنه لم يفكِّر في الخروج من قصر توبكابي المتواضع. أي لم يخطر في باله أن يطلب من مهندسه المعماري البارع سنان أن يصمم قصراً ضخماً ومزخرفاً. وحتى رؤساء الوزراء الأثرياء في تلك السلطنة الهائلة لم يكونوا يملكون قصوراً أو منازل شهيرة،

وهنا إنني أعني صهر سليمان، رستم باشا، والدامات (*damat*)[12] أو الشهيد سوكولو محمد باشا -خَلَف رستم باشا الذي خدم المدة الأطول كرئيس للوزراء- وخَلَف سوكولو محمد باشا الدامات سيافوش باشا. أياً يكن الأمر، لم يكن ممكناً بالنسبة إلى هؤلاء أن يتمتعوا بمثل هذه الإقامة، لأنه جرت العادة أن ينتقل أي دامات إلى قصر أو منزل ابنة أو أخت أو زوجة السلطان. ولكن، لم يبقَ اليوم أي شيء تقريباً من هذه القصور والمنازل. كانت أسما سلطان، ابنة السلطان عبد العزيز الأول -وهي شخصية مميزة بحدّ ذاتها- تملك قصراً بجوار البوسفور، ولكن لم يبقَ منه سوى الاسم، إذ إن الفندق الذي يشغل مكانه الآن ليس له أي علاقة بالقصر السابق على الإطلاق.

أما بالنسبة إلى قصور السفراء في اسطنبول، فإنها تبدو وكأنها صُمِّمت كي تسخر من بساطة وتواضع الأمكنة التي كانت النخبة العثمانية تسكن فيها، وخاصة في القرن التاسع عشر. من الأمثلة على ذلك السفارة البريطانية الشهيرة في تَبَاشي، وما يُسمَّى بقصر فرنسا، والقصر الفينيسي المشهور الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر، والذي كان مقراً لسفارة فينيسيا قبل أن يتحوَّل إلى مقر للسفارة النمساوية-الهنغارية. لا بد لي أن أذكر أيضاً مبنى السفارة الإيطالية في ماتشكا، الذي بُني في بداية القرن العشرين، بعد إقامة العثمانيين علاقات مع الدولة الإيطالية الناشئة حديثاً، التي كانت دولة عظيمة أخرى في القرن الماضي. لم يُستخدَم المبنى كسفارة أبداً، وهو الآن مدرسة للفنون. عندما ينظر المرء إلى هذه المباني، لا يمكنه إلا أن يدرك أنها كانت أرفع شأناً من منزل أي وزير أو رئيس وزراء. أما في ما يتعلق

---

(12) الدامات (*damat*) هو اللقب الذي كان يُمنَح للرجل الذي يتزوج من عائلة السلطان. وما زال هذا الشكل من التخاطب يُستخدَم اليوم مع الأصهار، قبل وخلال وبعد الزواج.



بمسألة ما إذا كانت بساطة أماكن إقامة المسؤولين العثمانيين ناتجة عن حس أخلاقي أم ضرورة مالية، فهذا أمر قابل للنقاش.

في القرن التاسع عشر، لم تكن أماكن إقامة الوزراء ورؤساء الوزراء في العاصمة العثمانية وحدها أدنى مستوى من مباني السفارات هناك، إذ حتى التجار والصناعيين لم يكونوا يملكون ما يشبه هذه المنازل أيضاً. أماكن الإقامة الوحيدة التي كانت تضاهي نوعاً ما مباني السفارات البديعة هي الفيلات الفاخرة والأبنية والمنازل المترفة التي تعود ملكيتها للعائلة الخديوية، التي جلبت ثروة عظيمة من مصر إلى اسطنبول. كان المنزل الشهير للخديوي عباس حلمي باشا في تشوبكلو (على الجانب الآسيوي من اسطنبول) -الذي أصبح اليوم ملْكاً للبلدية المحلية- واحداً من حفنة من أماكن الإقامة المترفة في اسطنبول. ومن الأمثلة الأخرى، قصر سعيد حليم باشا في بَبَك (حي يقع في الجانب الأوروبي من اسطنبول)، الذي يُستخدَم مقراً للقنصلية المصرية العامة، والمنزل الخشبي لنفس الباشا في حي ينيكوي المجاور، الذي احترق للأسف.

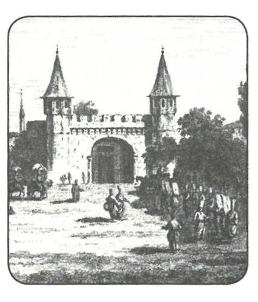
رمّمت وزارة الثقافة منزل شخص يُدعى أحمد باشا في السليمانية، الذي تعرَّض للكثير من الإشاعات عندما بُني في البداية ليكون مقرّاً لقيادة البحرية. لكنك عندما تزور هذا المنزل، فسترى كم هو متواضع وبسيط بالمقارنة مع منازل النخبة في مصر. إن الثراء الذي نلاحظه في اسطنبول لا يُقارَن بالثراء في القاهرة أو الإسكندرية.

وهذا يصحُّ أيضاً عند مقارنة الثراء في روسيا في القرنين التاسع عشر والعشرين بذاك المتعلق بالسلطنة العثمانية. لقد وصف الروائي التركي الشهير مدحت جمال كونتاي هذا الاختلاف بدقة في روايته *ÜÇ Istanbuls* (ثلاثة اسطنبولات). فبالنسبة إلى إحدى الشخصيات، وهو أمير روسي هرب إلى اسطنبول خلال الثورة، لم تكن الفيلا الرخامية التي يمتلكها رئيس البحرية المجرم والفاسد في عهد عبد الحميد الثاني -بحسب الرواية- أي شيء مميز. بل هي، في نظر هذا الأمير، لا تستحق حتى المقارنة بالأملاك التي تركها الأرستقراطيون الروس وراءهم.

ثمة موضوع آخر يجب أن نتطرق إليه، وهو المزايا والأسلوب والتقاليد المميزة لقصر توبكابي. كان هذا القصر بمثابة المنزل العائلي للسلطنة العثمانية، والمصدر الأكبر لتقاليدها. حتى لو لم يعش أحد السلاطين في توبكابي، فإنه كان يُدفَن في أرضه. وبالطبع، كانت احتفالات الختان تحدث فيه أيضاً. كان القصر يملك تقاليد خاصة به، ويجب علينا حقاً أن نعرف كيف كانت الحياة تسير في داخله. إضافة إلى ذلك، يجب ألا ننسى أن مفهوم الدولة عند العثمانيين يتجلى بوضوح في كل قسم من أقسامه وكل زاوية من زواياه.

حتى القرن التاسع عشر، كان قصر توبكابي بمثابة مقر للدولة، وهو يقبع على أجمل نقطة في الأرض، على حافة رأس بحري يُدعى *Sarayburnu* (ويعني موقع القصر) ويمكن رؤيته من جميع أنحاء المدينة. ولم يُشيَّد القصر في مرحلة واحدة فقط، بل تطوَّر على شكل

إضافات أُلحقت إليه في مراحل لاحقة. ومع ذلك، فإن كل جزء من القصر يبدو وكأنه يكمِّل الأجزاء الأخرى. وما هو جلي أيضاً وجود تناغم ثلاثي بين قصر توبكابي ومسجد السلطان أحمد وهاجيا صوفيا، وقد لعب القصر دوراً جوهرياً في انتاج هذا التناغم، مشكِّلاً إضافة هامة لجمال هذه المنطقة التاريخية.



عندما دخل السطان محمد الفاتح المدينة، ورأى حالة قصر القياصرة البيزنطيين، يُقال إنه ردَّد بيتين من الشعر، ما زالا مثار جدل حتى اليوم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى صاحبهما الأصلي:

البومة تطلق صوت إغاثة في قلعة أفراسياب

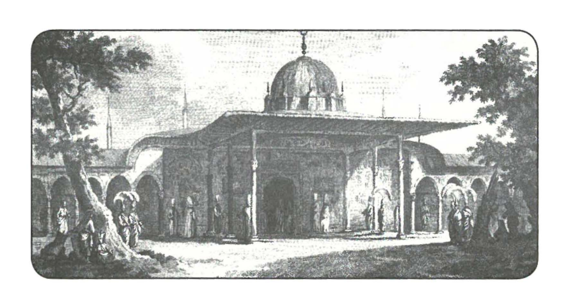
العنكبوت هو حامل الستارة في قصر القيصر.

يخبرنا هذان البيتان أن البومة تطلق صوت إغاثة، أي تتصرف مثل فرقة نحاسية، في قصر الإمبراطور الفارسي العظيم (المقفر) أفراسياب. لا بد أن لذلك علاقة بحقيقة أن الأباطرة كانوا يملكون فرَقاً نحاسية تطلق صوت الإغاثة. والسطر الثاني يخبرنا أن دور حامل الستارة في قصر القيصر، أي رئيس البروتوكول، كان يقوم به عنكبوت. بالطبع، كلاهما يصوّران حالة انهيار قاسية، مع أن قصر توبكابي لم ينحدر إلى هذا المستوى أبداً. خلال المرحلة الجمهورية، أُعيد ترميم القصر، الذي كان مهدَّماً، واتُّخذت إجراءات لحمايته. لكنه اليوم، لسوء الحظ، يواجه هجوماً مشتركاً من السياحة. من الواضح أن بعض القطع الفنية في القصر العثماني بحاجة إلى نقلها إلى متحف وطني ينبغي تأسيسه بأسرع وقت

ممكـن. وفـي الوقـت عينـه، علينا أن نحافظ على قصـر توبكابي، حيث كان يسـكن الحكام العثمانيون حتى القرن التاسـع عشر، والذي حافظوا عليه بعد ذلك كمركز للشعائر والروحانية. لهذا السبب، بقيت الطقوس التي كانت تجري فيه حتى يومنا هذا، مثل عادة تلاوة القرآن لمدة أربع وعشرين ساعة في "قسم البقايا المقدسة"، التي استمرت خلال المرحلة الجمهورية ولا تزال تُمارَس حتى الآن.

رغـم كل بسـاطة قصـر توبكابـي وانتهـاء مجده، إلا أنـه ينقل إلينا الحضارة العثمانية بكل روعتها وجمالها. إن البوابة (*Bab-ı Hümayun*) قيد الترميم الآن، لأن البوابة التي تمنح الدخول إلى دولة عظيمة تستحق ذلـك. تكمـن أهميـة بوابات القصر في الاسـم الذي أطلـق الناس على القصر، إذ إن توبكابي تعني حرفياً بوابة المدفع، وهذا لأنه كانت هناك مدافع موجودة أمام بواباته. وباب السلام (*Bâbüsselâm*) ليس أقل من مدخـل للتعبيـر عـن الاحتـرام للدولـة، إذ إن الجميع، بمـن فيهم رئيس الوزراء، كانوا يترجَّلون عن جيادهم عند الدخول من هذا الباب، حيث يقع الآن مكتب بيع التذاكر التابع للمتحف. والقبّة التي كانوا يرونها عند نهاية السـاحة التي يُفضي إليها الباب يُفترَض أنها تمثل الطابع العالمي للسـلطنة. هـذه القبـة التـي كانت تُرى من أي مكان في اسـطنبول أُطلق عليهـا أسـماء متنوعـة مثل قصر العـدل (*Kasr-I Adl*). هذا هو المكان الذي كان يجتمع فيه ما يُسمَّى قبة الوزراء (*Kubbealti vüzerası*)، أي المجلس الذي كان يدير الدولة، من أجل الاستماع لطلبات الاسترحام في أيام الجمعة. وهنا أيضاً كان الجنود الإنكشاريون يتلقون رواتبهم كل ثلاثة أشهر، حدثٌ كان يحضره السفراء الأجانب في العاصمة وتتخلَّله صيحات تصم الآذان من قبل الجنود الإنكشاريين.

اليـوم، يـزدان المطبـخ السـلطاني بمجموعـة نفيسـة مـن الخـزف الصيني. في الواقع، لم يكن المطبخ في القصر العثماني، حتى في القرن



التاسع عشر، مجرد تجسيد للذوق والثراء، بل كان أيضاً مسؤولاً عن إنتاج كميات وفيرة من الطعام لتوزيعها على المنطقة المحيطة بالقصر. وفي النهاية، لا بد لي أن أذكر قسم الحريم، الذي يمثِّل النظير الأنثوي للقسم الداخلي حيث كان يُدرَّب شبَّان من الطبقة الدنيا في المجتمع ومن القرى البعيدة التي تقع تحت سلطة الدولة كي يصبحوا حكَّاماً رفيعي المستوى. بهذه الطريقة كانت تنتج وتُعلَّم نخبة مكوَّنة من الرجال والنساء. من بين تلك الفتيات في قسم الحريم، كان هناك من تعلَّمن اللغة التركية بشكل ممتاز، مثل هوريم سلطان، الزوجة المستقبلية للسلطان سليمان القانوني. بالطبع، ليس هناك شك في أن قسم الحريم كان يملك تراتبية خاصة به، مثل أية مؤسسة في أي بلد في هذا العالم.

القسم الداخلي، الذي نميل ببساطة لتسميته بالمدرسة، كان في واقع الأمر نظاماً تعليمياً ذا بروتوكول موضوع من قبل الدولة. كل قسم من الأقسام المتنوعة ضمن القصر، مثل الخزينة، والمطابخ، والمهجعين الخارجي والداخلي، وحدائق الورود في المنطقة الممتدة إلى البحر (المنطقة التي يشغلها الآن خط حديدي) كان يملك تقاليده الخاصة ومكانته المؤسساتية الخاصة. على سبيل المثال، كان القصر مسؤولاً عن أمن الشريط الساحلي لاسطنبول، وهذه المهمة كانت تقوم بها

وحدة عسكرية تُسمَّى وحدة البستانيين (*Bostacılar Ocağı*). وكانت هناك عدة وحدات عسكرية ضمن القصر مسؤولة عن حراسة وحماية اسطنبول والقصر -مثل فرقتي *Sipahi* و*Kapıkulu*، وهما جزء من فرق الخيَّالة الست (*Altı Bölük Halkı*).

مثل جميع المجتمعات والجماعات البشرية، كانت القصور في نهاية المطاف تسلِّم مسؤولياتها لمؤسسات أخرى. وهذا ينطبق على توبكابي. هذا القصر العثماني، الذي يعود تاريخه إلى العصر الكلاسيكي، كان يؤدي الوظيفة التي اتفق عليها النظام الحديث للدول التي سادت في القرن التاسع عشر، ألا وهي أن يكون مقراً لسلطان عظيم. وبعد إتمامه هذه الوظيفة، لم يكن أمامه أي خيار سوى أن يسلِّم مسؤولياته لأماكن أخرى.

أحياء العلماء في اسطنبول

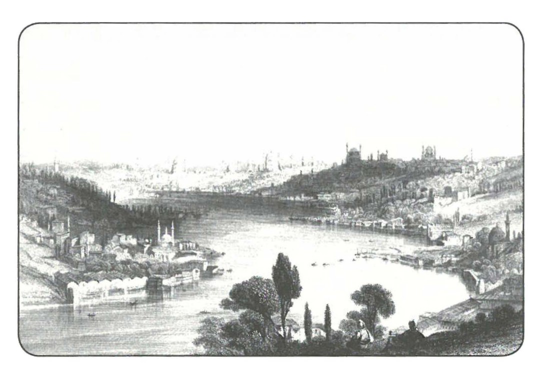
يمكننا أن ندعو حيَّي السليمانية ووفا -اللذين يُعتقَد أنهما يشكلان مركز المدينة- إضافة إلى أحياء فَزنَجلَر، وزينب، وفاتح، وفاتح تشارشمباسي، أحياء العلماء في اسطنبول، أي الأحياء التي كان يقطنها علماء المسلمين في اسطنبول. والسبب هو أن السلطان محمد الفاتح أسس في جوار مسجد الفاتح ما كان يُفترَض أن يكون المؤسسة التعليمية العليا، *Sahn-ı Seman*، وتعني القاعات الثماني.

كان المتخرجون من هذه المدرسة يواصلون تعليمهم من أجل الحصول على شهادة اسطنبول (*Istanbul Ruûsu*) الرفيعة بعد أن يكونوا قد دخلوا إحدى مدارس السليمانية (الأعلى مستوى)، التي بناها سليمان العظيم في القرن السادس عشر بالقرب من مسجد السليمانية. كان امتلاك شهادة اسطنبول ضرورياً بالنسبة إلى رجل يريد أن يصبح قاضياً أو مدرِّساً في السلطنة، أو الوصول إلى مركز مرموق كمنصب المفتي. وأولئك الذين لم يتمكنوا من اجتياز الامتحان والحصول على شهادة اسطنبول لم يكونوا يُعتبرون متعلِّمين حقاً وذوي سلوك حسن، بعكس الأشخاص الذين كانوا يتخرَّجون من المدارس. كانت الحياة في هذه البقعة من اسطنبول العثمانية متكيِّفة مع التعلُّم، حيث كان الطلاب يأكلون ويعملون وينامون في المدرسة. عندما كان يذهب بعض المدرِّسين (أي الذين نالوا في السابق شهادة اسطنبول) إلى المدارس لإعطاء محاضرات، كان الطلاب وغيرهم من المهتمِّين يتدفقون إلى الجامع الكبير للاستماع إليهم.

ما يلفت الانتباه هو أن الإصلاحات التعليمية الأساسية التي أُجريت

في تركيا القرن التاسع عشر هدفت إلى إضعاف المدارس وإنشاء نظام تعليمـي يتجنبهـا. لكـن المؤسسـات البديلـة التي أُنشـئت كانت تقع في المنطقة نفسـها من اسـطنبول. أُقيمت هناك مدارس، ستشـكِّل لاحقاً دار الفنون (*Darülfünun*)، وكذلك مؤسسات للتعليم الإعدادي، مثل مدرسة فنار لتعليم قواعد اللغة للرجال ومؤسسـة دار الشـفقة (*Darüşşafaka*). وحتى علماء الدين أنفسهم أسسوا مؤسسة جديدة لمساعدتهم في التأقلم مع البيئة القانونية الجديدة التي طالها الإصلاح، سمُّوها مدرسة القضاة (*Medresetü'l Kudat*) أو مكتـب النـوّاب (*Mekteb-i Nüvvab*)، بـل إنها كانت أكثر ميلاً للغرب والنظام القانوني الروماني من كليات القانون الحاليـة. عـلاوة على ذلك، قدَّمت هذه المدرسـة للمـرة الأولى منهاجاً تعليميـاً ثابتـاً، بعكـس الترتيب العشـوائي للمواد المعطـاة في المدارس القديمة، المرتكز على رغبات المدرِّسـين. بقي أن نعرف أن الكثير من قضاة تركيا في القرن العشرين تخرَّجوا من مدرسة القضاة.

إن تاريـخ أحيـاء العلمـاء هـذه مرتبـط بالتاريـخ الثقافـي للسـلطنة ككل. فـي البدايـة، يمكـن أن ندعو لهجة هذه المناطق بأنها لهجة تركية اسـطنبولية. كنـت فـي بعـض الأحيان أسـمع هذه اللهجة فـي طفولتي، تتحـدث بهـا، مثـلاً، سـيدات مسـنّات مـن اسـطنبول لم يسـبق لهن أن تلقيـن تعليمـاً رسـمياً، أي لـم ترتدن مدارس أو جامعـات لتعليم قواعد اللغـة. ولـو أنهـن ارتـدن تلـك المـدارس، لاسـتحال عليهـن الاحتفاظ بتلـك اللهجـة. علـى سـبيل المثـال، كانت هذه النسـوة تقلـن "*gelcak Perşenbe*" (تُلفَـظ "*geljak pairshenbay*" وتعنـي "الثلاثـاء القـادم") بـدلاً مـن "*gelecek Perşebmbe*" المعتـادة (التـي تُلفَـظ "*gelejek pairshembay*" وكانت بعض أحرف "*i*" تُلفَظ مثل أحرف "ü". كانت تلـك النسـاء تتحدثـن بوضوح وبنحو صحيح بحجـة أنهن إن لم تفعلن ذلـك، فلـن يتمكّـن المتعلمون مـن فهمهن. يمكننا القـول إن مفرداتهن

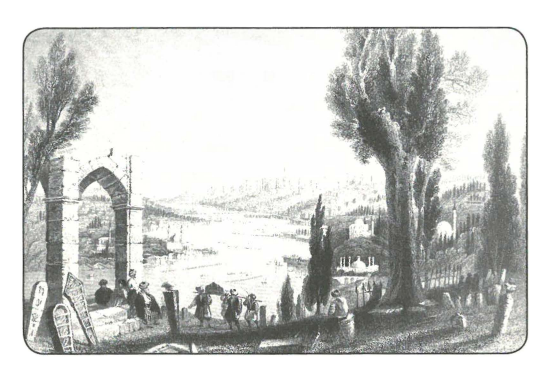


كانت تحوي مصطلحات عربية وفارسية أكبر بكثير من المفردات التي يتحدث بها الأساتذة والطلاب في الجامعات اليوم. باختصار، هؤلاء هم السكان المحليون الذين كانوا يعيشون في هذه الأحياء مع المدرِّسين والأئمة والإداريين رفيعي المستوى. لم يكن مهماً سواء أكنت فقيراً أم غنياً. بعض الشوارع القديمة من تلك الحقبة، والتي ما زلت أذكرها من طفولتي، لا تزال موجودة هناك، ويمكنك إيجاد صور لها في أرشيفات الصور. تُظهر إحدى الصور، مثلاً، منزلاً يقف بجوار بيت خشبي على حافة الانهيار مؤلف من طابق ونصف الطابق. أولئك الذين يحبون مشاهدة أشياء كهذه يمكنهم فعل ذلك في الأحياء القريبة من كاراجُمرُك، أي في جوار قسم البقايا المقدسة (*Hırka-i Saadet*) في قصر توبكابي.

في جامع الفاتح، كانت تُقام مراسم جنائز رؤساء الوزراء الذي ماتوا أثناء الخدمة. يمكن إيجاد قبورهم، إضافة إلى قبور عدد من العلماء المهمين، في هذه المقبرة. ودُفن هناك أيضاً، تحت شاهدة قبر على شكل عمود دائري، رجل الدولة والمؤرخ العثماني أحمد جودت

باشا، أول وزير عدل في السلطنة العثمانية، الذي يستحق تكريم الشمس الأولى والأخيرة التي تبزغ من مدارس القرن التاسع عشر. لقد جذب هذا النوع من الشواهد اهتمام المستشرق النمساوي هامر لدرجة أنه أعدَّ قبره في كلوستيرنيوبرغ بالقرب من فيينا بالطريقة نفسها. فمثل جودت أحمد باشا، كانت شاهدة قبره اسطوانية أيضاً وكُتب عليها باللغة العربية الله هو الباقي. هنا يرقد يوسف بن هامر، مؤرخ ومترجم لثلاث لغات. وفقاً لما أذكر، لم يكن هناك صليب على القبر. كانت شاهدة قبر شرقية تماماً، وبسيطة إلى حدٍّ بعيد وتفتقر للمظاهر المتفاخرة والذوق السيئ الذي نراه اليوم. هناك جو من الحزن يغلّف مسجد الفاتح. إنه يجعلك تشعر كما تشعر عندما تذهب إلى مقبرة وترى شواهد قبور مغطاة بالزهور لفتيات، وعرائس شابات، وسيدات متوسطات العمر. وهو يشبه الشعور الذي ينتابك عندما ترى شواهد قبور لشيوخ وأعضاء في إحدى الطوائف، حيث تمنحك إحساساً وكأنك موجود وسط مأوىً لأحد الدراويش.

كان حي الفاتح مركز الأدب العثماني وفي الوقت نفسه كان يغلي بأحاديث ومعارضة الطلاب. نجد في التاريخ حالات ثورات وحوادث مدرسية تتعلق بهذا الملا أو ذاك في هذا المسجد أو ذاك. في القرن التاسع عشر، أعلنت جماعة تُدعى *Kadızadelis* -والتي قادها لبعض الوقت أسطواني محمد أفندي- أن كل شيء تقريباً بِدَعٌ كريهةٌ وبالتالي محرَّمة -. على سبيل المثال، بالنسبة إليهم، كان ترنيم الكلمات التي تعلن حلول الصلاة (*kamet*) محرَّماً. في الواقع، ما يميِّز جوامع اسطنبول هو أداء المؤذنين الرائع لهذه المقاطع، فهم يؤدونها بأصوات ساحرة وألحان بديعة بحيث تنجح في جذب الذاوَّقة في اسطنبول، الذين يرتادون في العادة المساجد الكبيرة. سمعت ذات مرة أن مؤذِّناً رنَّم هذه الكلمات بشكل جميل جداً ومدَّ من بعده المصلُّون الساجدون كلمة



"اللـه" فـي جملـة "سـبحان ربي الله" بصوت عـال ومتناغم مع صوت المؤذن. حاول جماعة *Kadızadelis* منع مسرّات كهذه بحجة أنها بدَع. بالطبع، تحوَّل هذا إلى قضية سياسية وسبَّب قدراً كبيراً من الفوضى.

في اليوم التالي، أرسـل كوبرلو محمد باشـا الجنود الإنكشـاريين إلى جماعة *Kadızadelis* وضربوهم بشـدة. ونُفي أسـطواني أفندي إلى قبرص. في الحقيقة، بالنسبة إلى الدولة، كان الناس يملكون مطلق الحرية بالتصرف بهذه الطريقة أو الجدال كما يشاؤون، لكنهم كانوا يعرفون الرد الذي سيتلقّونه إذا حاولوا تقويض النظام السياسي والاجتماعي.

يمكنكم رؤية الطبيعة الوقورة للسـلطنة العثمانية ظاهرةً بجلاء إذا قمتـم بزيـارة موقع مدارس السـليمانية. إن المنطقة مليئة بمنازل العلماء الجميلـة، وهـي أبنيـة عاليـة (تُدعى *fevkani*) يسـكنها عمـال مهاجرون وعازبـون، لكنهـا لسـوء الحـظ مهملـة ومتروكـة للتداعـي. مـن المثيـر للدهشة بقاء هذه الأبنية حتى الآن، بالرغم من إجراءاتنا الفاترة من أجل الحفـاظ عليهـا. بإمكانكـم رؤيـة الذوق في هذه الأبنيـة، ولكن لاحظوا مدى لامبالاة الدولة والمجتمع في هذه الأيام، رغم حقيقة أن العائلات

البـارزة التـي تمثـل أيـاً مـن الثقافـات العظيمة في تركيا أغنـى بكثير من العائلات المشابهة في الخارج.

لو أُزيل 1 كم^2 من فلورنسا -مدينة في بلد نعتبره زاخراً بالثقافة- فماذا سيبقى من عصر النهضة الإيطالية العظيم؟ ماذا سيحدث لو دُمِّر 2 كـم^2 مـن رومـا ولـم تقـدم المدينة على فعل شـيء؟ ماذا سـيبقى من إرث عصر النهضة أو الإرث الباروكي في إيطاليا؟ أو ماذا سيحدث إذا تخلوا عن 2 كم^2 من أرض باريس أو إذا بنوا، كما حصل في اسطنبول، فندقاً سويسـرياً خلف اللوفر مباشـرةً، على ضفاف نهر السـين، كما في ماريس أو سان ميشيل؟ ماذا يبقى من الثقافة المتفاخرة لفرنسا في عصر لويس الرابع عشر؟ ماذا سيبقى من روسيا القديمة إذا حصل الشيء نفسه في موسكو، أو سانت بطرسبورغ؟ لسوء الحظ، لقد تخلَّت تركيا اليوم عن منطقة مسـاحتها 2 كم^2 تتكون من أحياء السـليمانية ووفا، وزيريك، وفاتح، تاركةً هذه المناططقة لتدافع عن نفسها.

إن المعالـم الطبوغرافيـة لهـذه المنطقة بحاجة إلى حماية، وكذلك السـكان المحلييـن. بطريقـة مـا، ينبغـي لنـا أن نحافـظ علـى اسـطنبول القديمـة، ومـن خـلال الدعـم المـادي، علينـا أن نشـجِّع الأجيـال التي سـتنقل هـذه الثقافـة إلى الأجيال التي تليها علـى مواصلة العيش هناك. أحد الحلول يمكن أن يتمثل في تشكيل مجتمعات جامعية جديدة هناك، مع أن جامعة اسطنبول نفسها ساهمت أكثر من غيرها في تدمير شحصية المنطقة وحياتها من خلال تشـييد تلك المباني البشـعة. كل هذا حدث خلال الأعوام الثلاثين السـابقة، وبسـبب هذا النشـاط المفرط، يتلاشـى وسـط اسـطنبول رويـداً رويـداً. هـذا أمر مشـين. في هـذه المنطقة التي نتحدث عنها، كل عمود وحجر ونقش يخبر قصة ما.

عندما تمشون عبر شارع مسجد كيرازلي، فإنكم سترون أنه مهمل كلياً. وعندما تدخلون مقبرة المسجد، فستجدون أن عدد قبور المسؤولين

والموظفين في الحكومة العثمانية كثير لدرجة أنكم ستُعذَرون إن اعتقدتم أنكم قطعتم اجتماعاً في القاعة الكبرى في قصر توبكابي. غير أن هؤلاء العثمانيين العظماء تُركوا وأُهملوا فلم تُقَم بحقهم أعمال ترميم مناسبة.

إن مكتب المفتي في اسطنبول اليوم كان في الماضي مكتباً لشيخ الإسلام، وقبل ذلك كان مقراً لقيادة الجيش الإنكشاري. كان هذا المبنى، المعروف باسم *Ağa Kapısı* (أي، بوابة الآغا) يشبه وزارة الحرب أو مكتب رئيس هيئة الأركان. وبعد إلغاء القوات الإنكشارية، سُلِّم هذا الموقع إلى شيخ الإسلام، الذي لم يكن يملك مبنىً خاصاً به. توجد على هذا المبنى كلمات مثيرة جداً للاهتمام: "كانت بوابة للنزاع، لكن الله حوَّلها إلى مكتب للفتوى)، ما يشير إلى أن هذه العبارة كُتبت بعد إلغاء القوات الإنكشارية في 1826 (1240 بحسب التقويم العثماني-الرومي).

عندما تدخل من البوابة وتنعطف يميناً، فإنك ستجد في الزاوية قبراً شديد البساطة للرجل العظيم الذي ترك بصمته على الإمبراطورية التي زَيَّنَت العالم، والذي جعلها تُعرَف من خلال عمله بأنها كانت إمبراطورية حقيقية، تنتشر على امتداد ثلاث قارات. هذا القبر المتواضع، الذي يشبه بيدق شطرنج صغير، يضم رفات المهندس المعماري الرائع سنان. وعندما تدخل إلى مقبرة مسجد السليمانية، فإنك ستلاحظ أن قبري سلطانيْن عظيميْن فتحا العديد من البلدان، سليمان العظيم والسلطان سليم خان (على بعد بضع كيلومترات عن الأول)، يتميزان ببساطة تفوق الخيال.

نحن لا نعتنِ بالمساجد أو القبور التاريخية الموجودة ضمن أسوار مدينة اسطنبول القديمة. لقد تركناها وأهملناها. لم نرفع أصواتنا عندما شُيِّدت مباني بصورة عشوائية وعندما وُضعت مقرات رئيسة لمنظمات في هذه المنطقة التاريخية. ألم يكن بالإمكان إيجاد أمكنة أخرى في مدينة

اسطنبول الهائلة الحجم لإيواء المقر الرئيس لإدارة الأمن الاجتماعي أو البنـك المركـزي التركي؟ إننا لا نفكر كثيراً في العواقب المحتملة لمثل هذا الإهمال، بوضع هذه المؤسسة أو تلك في هذا المكان أو ذاك. لقد أنشـأنا مكاتب غير ضرورية لمؤسسـات هي الأضعف نشـاطاً في جامعة اسطنبول. ولـم نكترث أبداً للصروح التاريخية الموجودة بالقرب من أبنية عصرية، صروح يقع على عاتقنا واجب حمايتها.

من هذه الصروح *Kilıse Camii* (المسجد الكنيسة)، وهي كنيسة يعود تاريخها إلى آخر السـلالات البيزنطية، والتي تحوَّلت بنجاح كبير إلـى مسـجد. وبعـد بضـع أمتـار مـن هذا المسـجد هنـاك مكتبة عاطف أفنـدي، التـي تُعتبَـر معلمـاً حقيقياً في تاريخنا الثقافـي. ومع ذلك، فإننا لـم نتحكم بعملية الإسكان والبناء في الشارع الذي يقع فيه هذان المبنيان التاريخيان، فهو يعج الآن بالورش المهنية. هنالك مبنى يجري تشـييده الآن بالقرب من قاعدة قناة فالينز المائية في شارع كوفاجيلار. من أعطانا الحق لتشييد هذه الأبنية البشعة، أو لنقبل بهذا التشييد؟ وكأن هذا ليس كافيـاً، إذ سُـمح بـأن يتجذَّر "حي فقر" هنـا. "أحياء الفقر" هو الوصف الـذي يمكـن أن نطلقـه علـى أماكن كهذه، أماكنٌ يبقـى فيها الناس يوماً أو يوميـن ثـم ينتقلـون إلـى مكان آخر، أماكن مسـكونة بعمال مهاجرين وعازبين (أي بعكس العائلات) أو بأفراد لا يساهمون في عملية الإنتاج بل يعيشـون على المسـاعدات فقط. "أحياء الفقر" ليسـت تعبيراً بلاغياً يُقصَد منه الإهانة، بل مصطلح علم-اجتماعي. وكما سـتتوقعون حتماً، إن المنطقة مليئة بالقمامة، وما يزيد الأمر سوءاً هو أنه الموقع الذي يرقد فيه قبر الشيخ وفا. ولكن، في هذا المكان أيضاً، ما زال بإمكانكم شراء بوظا وفا أصلية *Vefa boza* (مشروب)، إحدى مؤسساتنا التاريخية التي تصارع للبقاء. والأشـخاص نفسـهم الذين ينتجون بوظا وفا في الشـتاء يتحوّلـون فـي الصيـف لصنـع وبيع مشـروب شـيرا *şıra* (عصيـر فواكه

أخـفُّ). لكـن الكثير من سـكان اسـطنبول لا يعرفون هـذه المنطقة، لذا فهم يفتقدون لهذه الأشياء الجميلة.

يتصـادف، فيمـا يبـدو، أن المنطقة التي خُصِّصـت للتدمير -والتي تبلغ مساحتها 2.5 كم^2- هي في ذات الوقت مركز حكم وتاريخ وثقافة الأتراك. ولتقييم مأسـاوية هذا الوضع، ما عليكم إلا الذهاب والوقوف بالقـرب مـن مسـجد الفاتـح أو بجانـب قناة فالينز المائية. سـترون على أحد الجانبين مسـجد شاهزادباشـي يلوح من بعيد، وبموازاته على جهة اليمين، سترون مسجد السليمانية. كما لو أن المعماري سنان رسم هذه المدينة، بواسـطة مسـطرة، مسـتخدماً هذين المسجدين العظيمين كنقاط إشـارة، بالطبع مع وجود مسـجد ياووز سـلطان سليم في الخلفية. حتى في طفولتي، حينما لـم تكن الأبنية الشـاهقة البشـعة قد بُنيت بعد، كان باسـتطاعة المـرء المشـي مـن جامـع لآخر عبر شـوارع عريضـة. كانت اسطنبول تلك رائعة بحق، تحفةٌ بُنيت من الحجارة وزُيِّنت بالأشجار.

حتى عندما كنا نرمم اسطنبول، لم ننتبه إلى الهندسة. ولكن، حان الوقـت للانتبـاه إليها، لأننا لا نسـتطيع أن ندفـع كلفة إدارة ظهورنا لهذا الإرث، نقطةٌ لا يمكنني أن أشدد عليها بالقدر الكافي. لا يمكن لأحد أن يضحي ببضع أمتار مربّعة، حتى في الدول التي نعتبرها الأكثر احتواءً للمعالم الثقافية. لأنهـم يحكمون على أمتهم بالفناء، لحظة يفعلون ذلك.

السلاطين العثمانيون

حظيت السلالات الحاكمة في الأمم الأخرى بالكثير من الدراسات الشـاملة. على سـبيل المثال، خَلَّد إيفان زابلين -خبير بارز في التاريخ الروسي- الحياة القصيرة لعائلة رومانوف وعائلة روريك التي سبقتها في مجلداته الثقيلة الحياة اليومية للقياصرة الروس والحياة اليومية لزوجات القياصرة الروس والحياة اليومية لأبناء القياصرة الروس.

يحتـوي قصـر توبكابـي على عدد لا يُحصـى من الوثائق، وبعضها يزوِّدنا بمعلومات أكبر مما تزوّدنا به الوثائق المخزّنة في قصور أوروبا. وهذه المعلومات مفصَّلة لدرجة أنها تجعل من الممكن، ومن المسـلّي أيضاً، إعداد دراسـة تقارن بين الخمسـين أو السـتين نوعاً من الأطعمة التـي كانـت تُحضَّـر لأحـد السـلاطين فـي أي يـوم وبين مطبـخ القصر الفرنسـي خـلال حكـم لويس الرابع عشـر، على سـبيل المثـال. ويوجد أيضاً في السجلات المكتوبة بناءً على أوامر السلاطين إحصاءات تتعلق بالمصروف اليومي للقصر، ومعلومات حول هرمية السـلطة في القصر، وتفاصيل صغيرة حول الحياة اليومية للسلاطين العثمانيين. ومن الممكن أيضاً جمع معلومات مشـوقة جداً حول القصر والسـلاطين من نصوص كتبها سفراء في العاصمة العثمانية أو مسافرون أجانب جاؤوا إليها.

من هم السـلاطين العثمانيون بالضبط، وكيف كانوا يعيشـون؟ في الإجابة عن السـؤال الأول، يمكننا القول إن السـلاطين العثمانيين كانوا ينحدرون من سلالة قديمة. في الواقع، هناك سلالتان حاكمتان وحيدتان في العالم الإسـلامي دامتا لوقت طويل جداً. بالنسـبة للسـلالة العثمانية، التي لا تزال باقية حتى يومنا هذا، يُقال إنها بدأت مع أوغوز خان، ولكن

مـن الأرجـح أنهـا تعود إلـى عثمان غازي ووالده جونـدوز ألب. (يُقال أحيانا إن جوندوز ألب هو نفسـه أرطغرول غازي). لكن ما نعرفه حقاً هو أنه هذه السلالة استمرت سبعة قرون. أما السلالة الإسلامية الأخرى التي دامت طويلاً جداً، فهي السلالة الحاكمة التي تعود إلى جنكيز خان واستمرت مع ملوك القرم وخازان وأستراخان.

فـي سـياق أول مائـة وخمسـين عامـاً من حكم السـلالة العثمانية، جرى تبنِّي مبدأ يقضي بزواج أبناء السـلطان -أي المرشـحين للجلوس على العرش- من بنات السلطنات المجاورة. عندما تزوج بيازيد الثاني، ابـن مـراد الأول، مـن ابنة حاكم منطقـة جيرميان، والتي كانت عاصمتها كوتاهيـا فـي غـرب تركيـا، تمثَّلت الهدية السـخية التي تلقاها السـلطان العثمانـي فـي ضـم جيرميان إلى أراضيه. ومن الواضح أن زواج أورهان غازي بابنة الإمبراطور البيزنطي كانتاكوزينوس كان يعني أن الدم الأزرق النبيل امتزج مع الدم العثماني، وهي مسـألة ذات أهمية عظيمة بالنسـبة للعالم المسيحي. وكما نوّهنا سابقاً، فإن أوزن حسن اختار أن يقيم قرابة نسب مع عائلة كومنين، حكام مملكة طرابزون-الرومية.

تزوج ياووز سلطان سليم خان حفصة سلطان، ابنة منغلي جيراي. رغم أن المؤرخ التركي تشاغاتاي أولتشاي أثار شكوكاً شرعية بخصوص أسـلاف حفصة سـلطان، ولكن اتُّفق عموماً على أن حفصة سـلطان -أم السـلطان سـليمان القانوني- هي ابنة أحد خانات القرم. هنا نرى نقطة تتقاطع فيها العائلتان الأسطوريتان العثمانية والجنكيزية.

منذ ذلك الحين، أصبح البلاط العثماني يحوي ليس فقط أميرات ذوات دم أزرق، وإنما أيضاً نساء جميلات وذكيات. والمرأة التي يمكن لنا أن نسـميها أم هذه السـلالة هي الشـخصية الغامضة هوريم سـلطان، المعروفة في الغرب باسم روكسيلانا، التي يُزعَم أنها ابنة قس من منطقة جاليسيا في غرب أوكرانيا.

رغم أن هوريم سلطان لم تكن أمّاً لسلطان (*valide sultan*)، إلا أنها مُنحت منزلة أم لأبناء السلطان. لقد اشتُهرت في اسطنبول والقدس معاً بأنشطتها الخيرية المتنوعة. وكانت، علاوة على ذلك، شديدة الاهتمام بالشعر، وليس هناك شك في أنها كانت بارعة في استخدام الكلمات. ولكن، رغم أن مراسلاتها مع سليمان القانوني تستحق حيِّزاً في تاريخ الأدب التركي، إلا أن أحداً، فيما يبدو، لا يبذل أي جهد لدراسة أعمالها من أجل نقلها للجيل القادم.

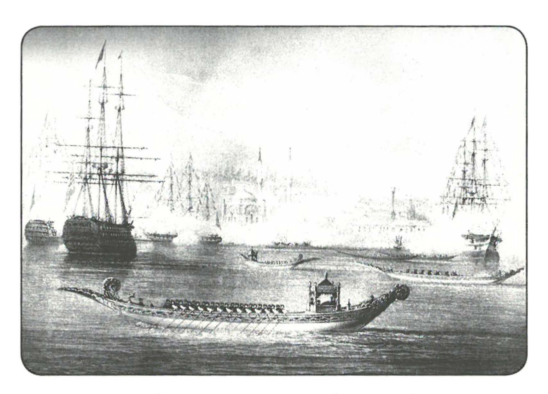
والأم الرائدة الثانية للسلالة هي خديجة تورهان سلطان، زوجة السلطان إبراهيم الأول. ولكن يجب ألا ننسى أبداً كوسام ماه بيكر سلطان، زوجة أحمد الأول، وأم مراد الرابع وإبراهيم الأول، وجدة محمد الرابع، وقد منحتها هذه العلاقة الأخيرة لقب "الجدَّة". لكننا لا نعرف على وجه اليقين أين وَلدت هذه الأم هؤلاء الحكام العظماء، الذين لعبوا دوراً مهيمناً في الحريم العثماني لوقت طويل جداً، كما أن أصول هوريم سلطان وأمهات السلاطين الأخريات ليست مؤكدة بالقدر الذي تتمتع به أصول السلاطين الذكور. غير أننا نعرف بالتأكيد أن لقب "سلطان" كان يُمنَح للأمهات ضمن السلالة الحاكمة العثمانية، الأمر الذي لم يكن يحصل مع الخاسكيات *hasekis* (الخاسكية هي المحظية التي تنجب ولداً للسلطان).

كان السلطان العثماني مضطراً إلى اتباع روتين صارم فيما يتعلق بأنشطته اليومية. فعلى سبيل المثال، كان يُحدَّد مسبقاً المكان الذي سيجلس فيه في القصر بعد مغادرته جناح الحريم في الصباح -سواء في كشك (مبنى خارجي ملحق بالقصر) ريفان، أو كشك بغداد، أو قاعة الجمهور، أو المكتبة التي بُنيت بأمر من أحمد الثالث، أو أمكنة مشابهة للقسم الداخلي. وهذا ينطبق على أشياء كثيرة أخرى، مثل برنامجه اليومي، ومن سيقابل من الآغاوات، ومتى سيتناول طعام الغداء -كان

هذا يحصل في الساعة الحادية عشرة، بسبب تناوله لطعام الفطور باكراً، وأين ستُعَدّ الوجبة وكيف ستُقدَّم كانا أيضاً من بين الأمور المرتَّبة مسبقاً. بعد حكم بيازيد الثاني، بدأ القصر باستخدام أوانٍ خزفية، الأمر الذي يفسِّر سبب وجود تلك المجموعة الغنية من الخزفيات في قصر توبكابي. والترتيب التالي كان يتعلق بتذوُّق الطعام. أولاً، كان الطبّاخون يتذوقونه بأنفسهم ومن ثم كان يُجرَّب على خدم خاصّين أُوكل إليهم واجب منع أي محاولة تسميم أو اغتيال. ومع أن المطبخ كان يعدُّ للسلطان ستين نوعاً من الأطعمة، إلا أنه لم يكن يأكلها كلها بالطبع، بل إنه في بعض الأحيان كان يكتفي بالنظر إليها، وفي أحيان أخرى كان يتذوقها فقط. وبحسب تقليد شرقي وتركي قديم، ما لم يكن يأكله السلطان، كان يأكله آخرون من بعده وفقاً للبروتوكول. وفي الليل، كان السلطان يلجأ إلى قسم الحريم، وما سيحصل هناك، وأي محظية سينام معها، وتحت أي ظروف، كل هذا أيضاً كان يُحدَّد على أساس إجراء رسمي.

جميع السلاطين كانوا يتقنون حرفة أو أكثر ويمتلكون معرفة في مجال العلوم. إننا لا نعرف بالضبط ما هي المهنة التي اختص بها كل سلطان، لكنهم كلهم كانوا يملكون حرفةً معينة. كان السلطان سليمان القانوني، إلى جانب كونه حاكماً لسلطنة ضخمة، صانع مجوهرات ماهراً للغاية. ولهذا السبب، كانت تُجلَب قطع مجوهرات رائعة الجمال بين الحين والآخر إلى اسطنبول من مدن أجنبية مثل فينيسيا، من أجل فحصها من قبل السلطان الخبير. ومن الأمثلة على ذلك تاج جُلب من فينيسيا وكتب عنه البروفيسور غورلو نجيب أوغلو دراسة تُظهر ولع السلطان بفن عصر النهضة. في الواقع، إن سليمان نفسه كان فناناً بارعاً.

كان السلاطين يملكون مواهب مثيرة للاهتمام إلى حدٍّ بعيد. على سبيل المثال، كان مراد الثالث شاعراً وترك ديواناً طويلاً وجديراً بالإعجاب. إن تذوّق هذا السلطان للأقمشة الفاخرة يشير إلى اهتمامه



بهـذا المجـال، أو علـى الأقـل بفن زخرفة الكتب. أما بالنسـبة إلى مراد الرابـع، فقـد كان رياضيـاً عظيماً. كان هذا القائد العسـكري البارز قادراً علـى اسـتخدام هـراوة ثقيلـة إضافـة إلى كونـه رامي سـهام بارعاً، وفي الوقت نفسـه، كان كاتباً رشـيقاً، مع خط يد جميل، وكان يمتلك معرفةً وولعاً بالشعر والموسيقا.

كان محمـد الرابـع مشـهوراً بحبـه للصيد وكان يمضـي الكثير من وقتـه فـي الصيـد (بالطبـع، كي يكون صياداً ماهـراً، كان يجب أن يكون رياضيـاً جيـداً أيضـاً، وقد كان كذلك بالفعل). كان الصيد جزءاً أساسـياً من الحياة السياسية واليومية العثمانية.

مثل مراد الرابع، كان مراد الثالث، خطاطاً مميزاً. وكان سليم الثالث مؤلفاً موسيقياً موهوباً وغزير الإنتاج لدرجة أنك يمكن أن تذهب بعيداً وتدعـوه سـلطاناً بـدوام جزئي. وكان خَلَفَه محمـد الثاني خطاطاً مبتكراً ومؤلفاً موسيقياً بارعاً في آن واحد، وإن ليس في مستوى عمه سليم.

كل الأدلـة تشير إلـى أن عبـد الحميـد الثاني كان نجـاراً موهوباً،

ولو لم يكن سلطاناً لكان قد جمع ثروة كبيرة من ممارسة حرفته فقط. ليس من المبالغة القول إن تصميماته لم يكن لها نظير. وللبرهنة على ذلك، يمكنكم أن تذهبوا وتعاينوا نماذج من عمله لا تزال معروضة في اسطنبول: خزانات صنعها بيديه، تُستخدَم اليوم لتخزين سجلات المحكمة في مكتب المدير الإقليمي للشؤون الدينية في اسطنبول؛ وبعض الطاولات في توبكابي؛ ومكتبة في جامعة اسطنبول؛ وبعض القطع في قسم معين من قصر يلدز يمكن اعتبارها الخطوة الأولى على طريق تطوير متحف للمدينة.

بالنسبة إلى عبد المجيد خان، فقد كان رساماً عصرياً ومؤلفاً موسيقياً يغلب على مؤلفاته الطابع الغربي. وأعماله الموسيقية تخرج إلى النور اليوم. أما عبد العزيز خان، الذي صوَّره مؤرخوه خطأً بأنه مجرد مصارع محب لأكل لحم الحَمَل، فقد كان رساماً موهوباً ومؤلفاً موسيقياً بارعاً أيضاً، وكانت أعماله، المؤلفة وفق الأسلوب التركي والأوروبي معاً، تحظى بإعجاب المستمعين.

كان مراد الخامس ماهراً في العزف على البيانو، والتأليف الموسيقي والرسم. أما سيف الدين أفندي، أحد أبناء السلطان عبد العزيز، فقد كان يملك موهبة خاصة -كان هذا الأمير المبجَّل يصعد وينزل على السلالم الضيقة لمئذنتي أحد المساجد بسرعة كبيرة ويعلِّق بينهما اللافتات (*mahyas*) المخصصة للاحتفال بشهر رمضان المبارك. وإضافة إلى مهارته الغريبة هذه، فقد كان أيضاً مؤلفاً موسيقياً موهوباً وقطعه الموسيقية لا تزال تلقى استحسان المستمعين حتى الآن.

كما رأينا إذاً، فالسلاطين العثمانيون كانوا يملكون عدداً من المواهب المثيرة للاهتمام، لكنهم كانوا يعيشون في قصر بسيط جداً وكانوا هم والمحيطون بهم يخضعون لبروتوكول صارم دام لمدة طويلة جداً. ولم يطرأ على هذا البروتوكول أي تغيير إلا في القرن التاسع عشر،

وبشـكل جزئـي فقـط. ومما يدل على ثبـات الحياة في القصر حقيقة أن عمليات ختان السلاطين كانت تجري في مكان محدد مسبقاً، إما غرفة الختان أو قسم البقايا المقدسة، وهما متجاورتان في الواقع. وظل هذا التقليد سـارياً، أي إجراء عمليات الختان في مكان محدد مسـبقاً، حتى بعد الانتقال إلى قصر دولمابهتشه.

عند وفاة أحد السلاطين أو أحد أبنائهم، كان يُنقَل إلى قسم البقايا المقدسـة فـي قصـر توبكابـي ليُغسَّـل ويُكفَّن وفقاً للطقوس الإسـلامية. وكانـت الجثـة الجاهـزة للدفـن تُؤخَذ من تلك الغرفة. وكان السـلاطين مُلزَمـون دائمـاً بزيـارة هـذا القصـر، وظلّـت المقتنيات الثمينـة الخاصة بالعائلة موجودة في قصر توبكابي حتى انهيار السلطنة. بكلمات أخرى، كل الأشـياء الثمينـة التـي نراهـا معروضة اليوم كانـت دائماً موجودة في المكان نفسه.

إن المراسـم الأساسـية التـي كان السـلاطين مـن خلالهـا يتصلون بالعامة هي مراسـم تقلُّد السـيف. يمكن اعتبار هذه المراسـم كبديل عن التتويـج، الـذي لـم يكـن جزءاً مـن تقاليـد الدولة العثمانيـة. كان حكم السـلطان يبدأ رسـمياً في حي أيوب سـلطان عندما كان يُقلَّد سـيفاً إما مـن قبـل كبار شـيوخ طائفـة المولويين، التي ينتمي إليهـا أعضاء العائلة الحاكمة، أو من قبل مسؤول ديني رفيع المستوى كان يُعرَف باسم نقيب الأشراف (*nakibü'l eşraf*). بالطبع، يحدث ذلك بعد أن يكون السلطان قـد انتهـى مـن زيارة قبر سَـلَفَه، ومن ثم الجلوس علـى العرش الذهبي الـذي يكـون قـد وُضع أمام باب السـعادة في قصـر توبكابي. وفي تلك الأثناء، يقدِّم مسـؤولو الدولة البيعة له. بعد ذلك، يعلن المعلنون تسـلُّم السلطان الجديد للعرش في كل ركن من أركان السلطنة، بالقول، على سـبيل المثال، "أصبح البلد والأمة يدينان بالولاء للسـلطان إبراهيم (أو سليمان... إلخ) خان". وهذا التقليد لم يتغيَّر أبداً.

حتى السلطان الأخير، وحيد الدين خان، جلس في مكانه على العرش الذهبي أمام باب السعادة وتلقى البيعة بالطريقة نفسها. الخرقان الوحيدان لهذا التقليد حدثا عندما نفَّذ حسين عوني باشا انقلاباً ناجحاً لصالح مراد الخامس، الذي كان حسين وزير حربيته، وفي المرة الثانية، عندما قدَّم أعضاء جمعية الاتحاد والترقّي، في أعقاب ما يُسمَّى بحادثة الواحد والثلاثين من آذار 1909،[13] بيعة متعجلة جداً لسلطانهم المفضّل رشاد في وزارة الحربية.

في كل يوم جمعة، كان السلطان يؤدي صلاة الجمعة في أحد مساجد اسطنبول، تقليدٌ يُعرَف باسم *selamlık*. والتصفيق المذكور في الوثائق التي تصف هذا التقليد لا تعني في الحقيقة تصفيق اليدين، لكنه يشير إلى ما كان يقوم به أولئك الذين يشاهدون مرور السلطان في المكان، حيث كانوا يقولون: "أيها السلطان لا تكن متكبِّراً فإن الله أكبر". وكما ذكرنا سابقاً، في الحقبة الكلاسيكية من الحكم العثماني، كان بعض أفراد العامة يكتبون طلبات استرحام ويضعونها في جيب موصول بركاب السلطان. وهذه الطلبات المكتوبة باللغة التركية وبلغات أخرى أيضاً –وهي من أهم الوثائق التي يمكن إيجادها في الأرشيفات العثمانية– كانت تُجمَع من قبل أحد الموظفين وكان يجري التعامل معها بجدية فائقة. وفي بعض الأحيان، كانوا يجدون طلبات شديدة الأهمية، فيتم تسليمها إلى وزير يُسمَّى *Rikab-ı Hümayun* –الوزير المفوَّض من قبل السلطان للاهتمام بالمسائل الحساسة عندما يكون هو نفسه خارج البلاد في إحدى الحملات العسكرية.

(13) ملاحظة المترجم: تشير حادثة الواحد والثلاثين من آذار إلى تمرد فاشل في 1909 نفذته قوة عسكرية بهدف إنهاء "المرحلة الدستورية الثانية"، التي كانت قد شُرِّعت مؤخراً، ولكبح النفوذ المتعاظم للجنة الاتحاد والترقّي. ومن الأهداف الرئيسة الأخرى، إعادة ميزان القوة لصالح السلطان عبد الحميد الثاني، الذي أُرغم على الاعتراف بدرجة معينة من التدخل البرلماني، غير أن التمرد أفرز نتائج عكسية، فهو سُحق والسلطان خُلع.

كان التواصل بين السلطان ورئيس وزرائه يجري عبر نوع من الرسائل تُسمَّى *telhises*. وهذه الرسائل الصادرة من مكتب رئيس الوزراء مصادر ثمينة فيما يتعلق بالحياة الإدارية والسياسية في السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر.

وكان كل واحد من السلاطين العثمانيين يمتلك شخصية مختلفة عن الآخر. فبيازيد الأول، مثلاً، كان أقرب إلى المفكِّر منه إلى الحاكم، في حين أن محمد الأول كان حاكماً شديد المكر وكتوماً. ولهذا السبب، تمكَّن الأخير من هزيمة أشقائه خلال فترة فراغ السلطة (*Fetret devri*) في بداية القرن الخامس عشر، ونجح كذلك في استعادة مناطق معينة من الأراضي العثمانية. أما مراد الثاني فكان شديد الاهتمام بالأدب الشرقي وكتب السياسة، وقد صدرت ترجمات كثيرة في عهده. وجلب محمد الفاتح التنوير إلى حقبته وكان مثار دهشة، وحتى حسد، الجميع. ومع أننا كتبنا عنه بشيء من التفصيل في الفصل الثامن، ولكن تبقى هناك حاجة إلى الحديث قليلاً حول موهبته اللغوية ومعرفته العميقة في التاريخ.

لكن محمد الفاتح لم يكن السلطان الوحيد الذي يتحدث لغات أجنبية. فالأمير أحمد، شقيق ياووز سلطان سليم، كان يمتلك معرفة واسعة باللغة العربية والسياسة حيث إنه ألَّف كتاباً باللغة العربية حول السياسة! والسلطان سليم نفسه كان ملمّاً باللغة الفارسية والشعر الفارسي. أما سليمان القانوني، فكان قارئاً نهماً ومفسِّراً متبصراً للشعر.

وكان ياووز سلطان سليم عصبي المزاج إلى حدٍّ بعيد، ويكره الكذب على وجه الخصوص. في الواقع، إن هذه الصفة مألوفة جداً بين السلاطين. كان هذا السلطان يقطع رأس أي وزير بعد أن يتضحّ لديه تماماً أنه كذب. كان الخداع يُعتبَر السلوك الأشد خطراً على الدولة وأمنها، ولا مغفرة لرجل دولة يمارس هذا النوع من السلوك. ويبدو أن

هناك استثناءات قليلة لهذه القاعدة، حيث أُعفي بضع كذابين مزعومين من الإعدام. لكن أحداً لم يفلت من الحظر على المشاركة في الحياة السياسية بعد افتضاح كذبه -رغم أن بعض الضحايا كانوا رجال دولة بريئين تماماً. على أي حال، كان المفتاح الأساسي للبقاء في هذه السلالة الحاكمة هو الجمع بين الفضائل والنجاح وعدم التسرُّع في الإفصاح عن رأي المرء فيما يتعلق بالقضايا السياسية. فحتى المتهورين من أمثال ياووز سلطان سليم كانوا يخفون مشاعرهم.

خلال الزمن الذي عاشته السلطنة، لم يتجرأ أحد على استبدال هذه السلالة الحاكمة بأخرى. هذه السلالة التي كانت تملك طرقاً خاصة في إدارة العلاقات العامة. علاوة على ذلك، لقد ساعدت على إنتاج سلسلة من القادة البارعين، ووفَّرت فرصاً لعدد كبير من الفنانين الموهوبين. ولكن، رغم أن المزايا الفريدة للسلالة الحاكمة العثمانية مكَّنت الدولة والأمة من بلوغ ذروة القوة والرخاء وولوج العصر الصناعي، إلا أن الأخطاء الفريدة أدت إلى انهيارها أيضاً.

الباشوات العثمانيون

كانت السلطنة العثمانية تُحكَم من قبل باشواتها. وهنا لا بد من إيضاح المزيد حول كلمة "باشا". هنالك أصلان للكلمة، أصل فارسي، "*Pa-i Shah*"، ويعني "قدم الشاه"، والآخر تركي، "*başağa*"، أي رئيس الآغاوات. وقد لقي الأصل الأخير قبولاً أكبر من الأول.

كان الباشوات يبدأون من رتبة "*Mirliva*"، التي تعني أنهم كانوا قادة عسكريين للمجتمع التركي، وهي تكافئ رتبة بريغادير جنرال (عميد) اليوم. وكان هؤلاء القادة مسؤولين عن المقاطعات (*sajaks*)، وهي تشبه تقريباً المحافظات -الأصغر حجماً منها- في تركيا اليوم. بعبارة أخرى، كانوا رجالاً عسكريين وأعضاء في الطبقة العسكرية ولكن مع واجبات إدارية أيضاً.

حتى نهاية القرن التاسع عشر، لم يكن هناك أي تمييز في النظام الإداري العثماني بين الجنود والمدنيين أو بين الجيش والخدمة المدنية. كان حكّام الأناضول وروميليا يُعتبَرون أرفع رتبة من حكام المقاطعات؛ وحكام المناطق؛ والباشوات المستقرين في القصر، الذين كانوا يحضرون الديوان السلطاني بصفة وزير أول، أو وزير ثان، أو وزير ثالث؛ وأدميرال الأسطول، الذي كان يملك رتبة وزير ومارشال في آن واحد. هذه هي البنية العامة لنخبة الدولة في السلطنة العثمانية، مع وجود بعض الحالات الاستثنائية، بالطبع. حتى القرن التاسع عشر، كان القادة الذين يحكمون الولايات، التي كانت حدودها أكبر من حدود المحافظات التركية في هذه الأيام، رجالاً عسكريين أكثر منهم إداريين مدنيين، لكنهم كانوا ينفذون واجبات عسكرية ومدنية معاً.

كان أدميرال الأسطول، وهو قائد عسكري يمتلك منصب وزير، عضوا في الديوان السلطاني. في الأوقات التي لا تكون الخزينة قادرة على تقديم دفعات طارئة، كان يتوجب على الأدميرال أن يكون قادراً على تغطية نفقات بناء السفن والاهتمام بأحواض السفن من جيبه الخاص، إضافة إلى ضرورة أن يكون قائداً ديناميا وعملياً. لم تكن المعرفة بالملاحة شرطاً جوهرياً للمنصب. على سبيل المثال، لعلنا نتذكّر أن محمود شوكت باشا (أحد رؤساء وزراء السلطان محمد الفاتح) ومحمد باشا سوكولوفيتش أثبتا أنهما بحّاران ماهران بقدر القادة البحريين الآخرين، رغم أنهما لم يتلقّيا تدريباً خاصاً بالحياة البحرية.

يذكر المؤرخ التركي، يلمز أوزتونا، أن أدميرال الأسطول أحمد باشا من مدينة قيصري حزن بشدة لفقدانه لقب *Kaptan-ı Derya* وتسميته بدلاً من ذلك وزيراً للبحرية، وهذا قبل الانقلاب على السلطان عبد العزيز (1876). ولإبطال هذا التغيير، يدّعي أوزتونا أن أحمد باشا تعاون في الانقلاب الذي جرى باسم وضع دستور. في الحقيقة، رغم أن سبب تصرفه ليس معروفاً بصورة مؤكدة، إلا أن هذا التفسير يبدو معقولاً. وقد يكون من المنصف القول إن وزير البحرية يجب أن يكون قادراً على الاحتفاظ بلقبه السابق.

ليس كل من كان يحمل رتبة وزير كان جندياً. يمكننا أن نذكر على سبيل المثال أعضاء الديوان السلطاني الذين يحملون لقب نيشنجي *nişancı* (كان النيشنجي مسؤولاً عن إضافة اسم السلطان إلى جميع الوثائق الرسمية). وفي المقابل، كان هناك قادة عسكريون في الجيش الإنكشاري يملكون صفة وزير لكنهم لم يكونوا يُدعون باشوات. كان رئيس القوات الإنكشارية عضواً في الديوان السلطاني ووزيراً برتبة مارشال، ومع ذلك كان يُدعى آغا.

بعـض الباشـوات كانـوا يمارسـون مهنـة معينـة، مثل محمد باشـا الجـرّاح، الشـهير بقدراتـه الجراحية، الذي نجح أيضـاً في الوصول إلى منصب رئيس وزراء. وقد سُـمِّي أحد أحياء اسـطنبول باسـمه، أي حي جـراح باشـا، حيـث أمـر ببناء الكثير من المسـاجد (إحدى كليتي الطب في جامعة اسـطنبول تحمل اسـمه أيضاً). كان بناء اسـطنبول يقع، إلى حدٍّ ما، على عاتق الباشـوات. ومن خلال رعاية بناء الحمامات التركية والمدارس، والأهم من ذلك كله الجوامع، وضع الباشوات أسس أحياء العاصمة العثمانية. وبعض المباني التي أمروا ببنائها مثيرة للاهتمام إلى حدٍّ بعيد. إن الدور الذي لعبه الباشـوات في تطوير اسـطنبول هو سـبب تسـمية العاصمة "مدينة الباشـوات"، ولهذا السـبب أيضاً، تحمل الكثير من أحيائها أسماء باشوات.

فـي المرحلـة الكلاسـيكية، كان الضبـاط ذوو المراتـب العليـا في الجيـش العثمانـي متخرجيـن مـن القسـم الداخلـي. مع ذلـك، فقد كان هناك أيضاً رجال لم يتلقوا تدريبهم هناك، لكنهم أُنشئوا ليكونوا جنوداً إنكشـاريين فـي الثكنـات التـي أُقيمت من أجل المجندين الشـبان. ليس هناك أي شك في أن عملية تجنيد الفتيان (دوشرمة) كانت تمثل أساس النظام العسكري العثماني. ومن المؤكد أيضاً أن غالبية المجندين، ابتداءً من القرن السابع عشر، كانوا فتياناً أتراكاً من الأناضول وروميليا. عندما كان يؤخذ أحد الفتيان من بلدته -هذا كان يحدث عادةً بين سن العاشرة والثانية عشرة- كان يُؤتى به إما إلى قصر أدرنة، أو قصر غلطة، أو قصر توبكابي، وذلك بناءً على مظهره الجسماني وذكائه وقدراته. والمجندون الذيـن كانـوا يُجلَبـون إلى هـذه القصور كانوا بالطبع أفضل من الآخرين فيما يتعلق بالقراءة والكتابة وبعض أشكال الفنون، رغم أنهم لم يكونوا جميعهم قادرين على التفوق. وقد أصبح بعضهم رجال دولة مشهورين، ومن أبرزهم محمد باشا سوكولوفيتش الذي شغل منصب رئيس وزراء

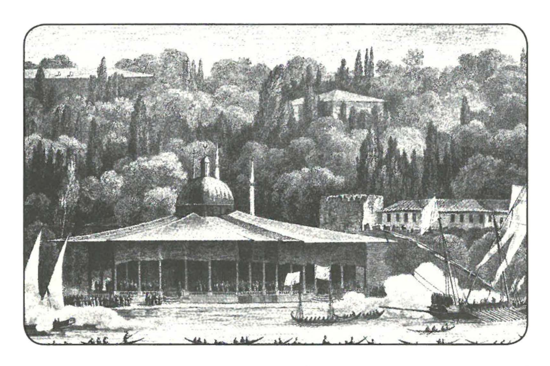
لمدة أربعة عشر عاماً ونصف العام، خلال حكم ثلاثة سلاطين مختلفين. كما ذكرنا سابقاً، جاء هذا الرجل من بلدة سوكول البوسنية ووُلد في عائلة متدينة من أصول صربية. وقد جُنِّد في الجيش بموافقة عائلته التي تحوَّل جميع أفرادها لاحقاً إلى الإسلام، باستثناء شقيقه بيتش (معروف بالتركية باسم إيبيك) الذي أصبح بطريرك الصرب.

بين أولئك الفتيان المجندين، نجد رياضيين بارعين، وموسيقيين وخطاطين موهوبين، وأشخاصاً ذوي معرفة واسعة بالأدب وشخصيات رائدة في الفكر والفقه الإسلامي. ومن هؤلاء المجندين السابقين، لطفي باشا، وهو رئيس وزراء سليمان القانوني وكاتب أطروحة *Asafname*[14]. وهناك أيضاً إبراهيم باشا، اليد اليمنى للسلطان سليمان القانوني، الذي انتهى نهاية مؤسفة، كما ذكرنا في الفصل الثاني.

ومن الباشوات الذين لم يدخلوا القسم الداخلي رجال أمّيون مثل النبَّال (*Kemenkeş*) كارا مصطفى باشا، رئيس الوزراء الشهير في عهد مراد الرابع وإبراهيم الأول. ولكن، رغم أمّيته، فقد أثبت نفسه كإداري فذ. بالنسبة إلى المسائل المالية، تمتع كارا مصطفى باشا بدقة وفطنة أي متخرج من القسم الداخلي، إلى جانب كونه وزيراً ناجحاً جداً. ويرجع لقبه النبّال إلى حقيقة أنه كان بارعاً إلى درجة كبيرة في هذه الرياضة، وخاصة في أوقات الحرب. باختصار، كان ناجحاً كرجل عسكري وكمسؤول مدني في آن معاً.

ليس هناك أي شك في أن كوبرولو محمد باشا، الذي لعب دوراً بارزاً وفريداً في تاريخ الدولة والسلطنة العثمانية، كان يُعدُّ من بين الباشوات الأمّيين الذين جاءوا من الجيش الإنكشاري. لكن ابنه، فاضل أحمد باشا، عوَّض نواقص أبيه التعليمية خير تعويض وأصبح أفضل

(14) ملاحظة المترجم: *Asafname* هي أطروحة حول الحكم العثماني، وتُعتبَر مصدراً هاماً لأي شخص مهتم في التاريخ السياسي العثماني.



أساتذة المدارس في زمنه قبل أن يجد طريقه إلى المؤسسة العسكرية. وسيصبح فاضل أحمد أيضاً واحداً من أبرز رؤساء الوزراء في التاريخ العثماني.

وبين الباشوات العسكريين الذين قادوا الدولة العثمانية نجد أيضاً أشخاصاً كان لهم جذور في فئة علماء الدين. بالمقابل، كان هناك أيضاً أشخاص انتقلوا من الجيش إلى فئة العلماء. ابن كمال، الذي نعرفه باسم كمال باشازاده، كان واحداً منهم. لا بل يمكننا أن نجد في القرن التاسع عشر شخصاً، ألا وهو المؤرخ والقانوني الشهير أحمد جودت باشا، انتقل من رتبة قاض عسكري (*kazasker*) إلى الطبقة الإدارية ومن ثم حصل على لقب باشا.

كانت الطبقة العسكرية في السلطنة العثمانية تسيطر على الحياة المدنية. ولكن، ينبغي لنا ألا ننسى الموظفين المدنيين الكثُر الذين لعبوا كمقابل موازن لهم، مثل الموظفين الماليين وأمناء الصناديق المحليين الذين تدرّبوا ليكونوا مسؤولين، والمسؤولين اليونانيين

الأرستقراطيين (*Phanariots*)[15] والأرمن والأتراك العاملين في مكتب السكرتير التنفيذي لرئيس الوزراء (رئيس الكتّاب). يمكننا أن نتذكر في هذا المجال الأعضاء البارزين في العائلتين التركيتين-اليونانيتين، ماوروكورداتو وأرجيروبيولوس، بالإضافة إلى الباحث الإسلامي الشهير كاتب جلبي، الذي يشير إليه الأوروبيون باسم حاجي كاليف أو حاجي كالفا.

كانت فئة علماء الدين تتضمن قضاةً مسؤولين عن الخدمات القانونية والبلدية، ورؤساءهم القضاة العسكريين، وشيخ الإسلام -بدءاً من القرن السابع عشر- الذي كان يُعتبَر العضو الأول في هذه الشريحة.

قبل أن تشرع السلطنة العثمانية في عملية التحديث، كانت الدولة تُدار من قبل أشخاص من أمثال الذين تحدثنا عنهم حتى الآن. بعضهم كانوا فتياناً أتراك من الأناضول أو روميليا، والبعض الآخر كانوا ألبانيين أو بوسنيين. ولكن، بالإضافة إلى المسؤولين الذين كانوا في الأصل من بين الفتيان المجندين، فقد كان هناك أيضاً أشخاص دخلوا القصر أو القوات الإنكشارية في سياق عملية ارتقاء مهني. كما نوَّهنا سابقاً، هؤلاء الأشخاص كانوا مختلفين من حيث المهن والقدرات والمعرفة. ولكن، ينبغي التشديد على أن أياً منهم لم يكن يُعتبَر أعلى منزلة من الآخرين على أساس قدراته ومستوى معرفته.

شهد القرن التاسع عشر ظهور مجموعة من الأشخاص غير المتدربين، الذين يمكن تسميتهم الباشوات العاديين، لأن التدريب الوحيد الذي تلقّوه كان على مستوى جنود من الرتب الدنيا. ومن الأمثلة على هؤلاء، يادي سكيز حسن باشا، المعروف باسم حاجي حسن باشا

(15) ملاحظة المترجم: عاش أفراد العائلات اليونانية الأرستقراطية (*Phanariots*) في حي فنار في اسطنبول (على ضفاف القرن الذهبي) ولعبوا أدوراً جوهرية في الإدارة والحكومة العثمانيتين.

من تشوروم، وطاهر باشا، قائد مجموعة حاملي البنادق الألبانية الشهيرة. وينبغي لنا أن نذكر أيضاً عبد العزيز باشا، أحد شهداء الحرب اليونانية (1897). ومع أن بعض هؤلاء الباشوات العاديين لم يكونوا يعرفون كيف يقرأون الخرائط، إلا أنهم كانوا يملكون ذواكر فوتوغرافية حول الطبيعة الطبوغرافية لدرجة أنهم كانوا أحياناً يعرفون المناطق المحيطة بهم أفضل من أولئك الذين يستطيعون فك رموز الخرائط.

بحسب جميع الروايات، خضع الجيش التركي في القرن التاسع عشر لعملية تحوُّل واسعة النطاق، وما ساعد على ذلك هو إدخال العلوم الطبيعية إلى التعليم العصري. بدءاً من القرن الثامن عشر، حلَّت الجيوش الحديثة، المركزية والدائمة، محل الوحدات العسكرية التقليدية. بعد أن أجرى العدوّان الثابتان للسلطنة العثمانية -أي الكتلة الألمانية-النمساوية وروسيا القيصرية- إصلاحات عسكرية مشابهة، لم يكن أمام العثمانيين أي خيار سوى النسج على منولهما.

لقد ساعدت كليات الهندسة المؤسسة حديثاً في ذلك الحين في تدريب مهندسين جدد قادرين على المساهمة في تعزيز فعالية وحدات المدفعية ووحدة المهندسين العسكريين. هذا ما حدث بالضبط في فرنسا. لقد صمَّم هؤلاء المهندسون جسوراً وأبنية كي تُستخدَم من قبل الجنود وفي أوقات التعبئة. وبعد ذلك جاء تدريب الأخصائيين، مثل الأطباء البيطريين، والأطباء، والجرّاحين العسكريين، الذين كان يُفترَض بهم تلبية احتياجات الوحدات التقنية، مثل فرق الخيّالة التي كانت جزءاً أساسياً من الجيش الدائم الجديد. في القرن الثامن عشر، أصبح واضحاً أنه لم يكن هناك ما يكفي من الأطباء البشريين والبيطريين. ولهذا السبب، انتشر الطب البيطري العسكري والطب البشري العسكري إلى الدوائر المدنية، وفي القرن التاسع عشر مُنحت الكليات المدنية منزلة أكثر رسمية، مثل المدارس الإدارية والقانونية والتجارية، وذلك

بهدف تطوير إدارة أشد فعالية لمالية الدولة المركزية. منذ ذلك الحين، بدأنا نشهد ابتكاراً في الطبقة العسكرية العثمانية، بالتوافق مع الأساليب العصرية، وظهور نموذج جديد من الجنود والضباط.

هنالك عدة ابتكارات ساهمت في التحديث السريع لنمط القيادة في الجيش العثماني، من بينها إصلاح الأكاديمية العسكرية (*Mektep-i Harbiye*) مباشرةً بعد إلغاء القوات الإنكشارية (1826)، والأهم من ذلك إنشاء مدرسة للضباط الأركان (*Erkan-ı Harb Akademisi*) في العام 1848، التي كانت مثيلاتها موجودة منذ وقت طويل في بعض الجيوش الأوروبية. هاتان المؤسستان بالذات هما اللتان مهّدتا الطريق أمام تطوير الجيش العثماني وظهور مجموعة قيادية شكّلت تاريخنا المعاصر.

كان باشوات القرن التاسع عشر ينتمون للطبقة المدنية -أي الإدارية- بالإضافة إلى الطبقة العسكرية. كان بينهم رجال مثل مدحت باشا، الذي خدم كمحافظ مع احتفاظه برتبة وزير، ورسّامون مثل شاكر أحمد باشا وباشوات بارزون من كلية الطب. هؤلاء الأشخاص قد ينتمون إما إلى الطبقة العسكرية أو المدنية، ولكن كان هناك أيضاً أشخاص ذوو جذور عسكرية صرفة. في بعض الأحيان، كانت هاتان الطبقتان تشتبكان في نزاعات ثانوية حول البروتوكول، وخاصةً فيما يتعلق بإدارة الولايات. ولكن، عندما تحوَّلت الولايات لاحقاً إلى محافظات، عُهدت إدارتها إلى باشوات إداريين. وفي المقابل، كانت المناطق العسكرية تتضمن أحياناً عدة ولايات، فالمنطقة المسماة أدرنة ظلت مسؤولة عن روميليا كلها، والجيش الأول عن اسطنبول، ومنطقة أرزنجان عن الشرق، وبغداد ودمشق واليمن عن المنطقة العربية. وكان هناك تنظيم مشابه في سلاح البحرية أيضاً. في السابق، كان الأدميرال المتمركز في قاسمباشا *Kasımpaşa* مسؤول عن تطبيق القانون والحفاظ

على النظام في قاسمباشا والسيطرة على عدد من الجزر التي يمكن اعتبارها إقطاعيات خاصة به. في حين كانت تُسلَّم عدة أرخبيلات إلى أولئك الذين يحملون رتبة *sanjakbey* (أي حاكم مقاطعة). لكن نهاية نظام المِلْكية الإقطاعية، الذي تستند إليه عملية التوزيع هذه، أدت إلى إعادة هيكلة القوة البحرية.

جلب هذا النظام العسكري الجديد معه هيئة أركان جديدة يستحق بعض أعضائها الإشادة لتميّزهم. وخير مثال على ذلك غازي أدهم باشا، بطل معركة دوميكه في الحرب التركية-اليونانية في 1897. وما يثير الإعجاب بشكل خاص هو أن الجانب الثقافي في شخصية أدهم باشا، الذي جلب معه إلى تركيا عدة قطع تاريخية ثمينة. وهو لم يحقق النجاح في الحرب اليونانية وحسب، وإنما في كل معركة اشترك فيها، مثلما فعل غازي أحمد مختار باشا. وكان محمود شوكت باشا، رئيس الوزراء ووزير الحربية في السنوات الأخيرة من عمر السلطنة، واسع الثقافة لدرجة أنه ألَّف عدة كتب. كل هؤلاء الرجال كانوا باشوات من المدرسة البروسية، إضافة إلى معرفتهم الواسعة بالمسائل العسكرية والتاريخية.

هذه المجموعة، التي كانت قد بدأت تصل إلى المقدمة، كانت مؤمنة بتحديث السلطنة. بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الرجال العسكريين المولودين في ثمانينيات القرن التاسع عشر -أبرزهم مصطفى كمال باشا[16]، وكاظم باشا-كاراباكير، وفوزي باشا، وعلي فؤاد باشا- كانت تشاركهم نفس الهدف وتملك نفس المزايا، رغم أننا لا نستطيع أن نقول الشيء ذاته عن أنور باشا الذي أوصل السلطنة والجيش إلى طريق

(16) ملاحظة المترجم: مصطفى كمال هو الاسم الحقيقي للقائد العسكري والثوري الذي سيلعب لاحقاً الدور الرئيس في تأسيس وتطوير الجمهورية التركية. في 1934، صوَّت البرلمان التركي لمنحه لقب أتاتورك *Atatürk*، الذي يعني "أبو الأتراك".

الهزيمة من خلال سعيه للحصول على ترقية مبكرة. في أوج الحرب العالمية الأولى، أي بين 1917 و1918، رُقِّي جميع أفراد هذه المجموعة إلى رتبة عميد، وكانوا آنذاك في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من أعمارهم فقط، ما يشير إلى أنهم أصبحوا جنوداً ذوي خبرة واسعة في عمر مبكر جداً. ولكن لم العجب؟ فهؤلاء الرجال أمضوا سنتين في مطاردة قطّاع الطرق في دمشق واليمن، تلتهما ثلاث سنوات أخرى في جبال مقدونيا. أي في الوقت الذي كانوا يحاولون التحضير للحرب كانوا مضطرين إلى التعامل مع مجموعات من قطاع الطرق.

خلال الاضطراب الذي شهدته أواخر أيام السلطنة العثمانية، اكتسب هؤلاء خبرة كبيرة ورُقُّوا في وقت مبكر، وفي نهاية المطاف خاضوا حرب الاستقلال التركية كجنرالات وهم في عمر الخامسة والثلاثين تقريباً. هؤلاء هم الرجال الذين قادوا القوات التركية في حرب الاستقلال، بعد أن تعلَّموا كل ما كانوا بحاجة إليه في الدردنيل والقوقاز، وفي جاليسيا واليمن وبغداد وفلسطين، وعلى جبهة السويس. ومن بينهم يمكننا أن نجد عدداً من الشخصيات الآسرة، مثل عمر فاروق أفندي ابن الخليفة الأخير عبد المجيد، الذي كان صديقاً لمصطفى كمال، وجندياً جيداً تلقّى تعليمه في بروسيا. خلال الحرب العالمية الأولى، قاتل في جبهة مارنه ضد فرنسا إلى جانب حليفة تركيا، ألمانيا. ولهذا السبب، منحه السلطان ميدالية \النسر \الأسود، ليس لأنه كان أميراً بل لأنه كان يستحق التقدير على جهوده. وبشكل مشابه، ميَّز الأمير عثمان فؤاد أفندي نفسه كقائد في جبهة السويس.

من الأعضاء الآخرين في هذا الجيل، كان هناك أيضاً شوكرو باشا الذي دافع ببسالة خلال حروب البلقان، وعلي رضا باشا الذي قاتل بشجاعة أيضاً دفاعاً عن حصن شكودر، والذي حصل لاحقاً على لقب باشا للمرة الثانية (في 1908، أُلغيت باشويته الأولى عندما خُفِّضت رتبته

إلى كولونيل). وينبغي لنا أن نذكر أيضاً علي نظامي باشا، الذي تعلَّم في المدارس البروسية والفرنسية، وعاصم جوندوز وعصمت إنونو، اللذين كانا من ضمن أعضاء هيئة الأركان خلال حرب التحرير وأظهرا قدرات مميزة في هذا المجال. إننا نعرف تماماً من الذين استجمعوا قوى السلطنة، إلى جانب مصطفى كمال باشا، بعد أن بدت وكأنها انهارت خلال الحرب العالمية الأولى وبعد أن كانت في تلك الحالة المؤسفة خلال الهدنة. أولئك الرجال الذين أنقذوا البلد من محنتها عبر إطلاق مقاومة مجيدة.

لقد نجحت هذه المجموعة في اكتساب المعرفة والفطنة، إلى جانب المهارات العسكرية لسببين رئيسين. الأول، لأنهم استفادوا من اتساع التعليم في الحقبة الأخيرة من السلطنة، والثاني، لأنهما راكموا خبرة ثمينة من خلال العيش في أرض مترامية الأطراف، الأمر الذي مكَّنهم من اكتساب النضج في عمر مبكر جداً.

القضاة العثمانيون

كان منصب القاضي يمثل موقعاً هاماً في السلطنة العثمانية وجميع البلدان الإسلامية. ويعود أصل الكلمة إلى اللغة العربية، إلى الفعل قضى ويعني حَكَمَ. ولكن، مع أن منصب القاضي كان ظاهرة مميزة بالفعل، إلا أنه في الوقت نفسه لم تكن كذلك، لأن القضاة وُجدوا على الأرض منذ وُجدت المجتمعات والدول الإنسانية.

بعيداً عن كونه قاضي محكمة، كان القاضي العثماني كاتب عدل، ومفتشاً للأوقاف الدينية في البلدة، ورئيس بلدية، والوظيفة الأخيرة مهمة بصورة خاصة لأن القضاة في أوروبا في العصر الوسيط حكموا المدن بالطريقة نفسها. على هذا الأساس، فالقاضي كان مشرفاً على، ورئيساً للمدراء والموظفين المسؤولين عن الحفاظ على الأمن وتطبيق القانون في البلدات والمدن. كان الموظف المسؤول عن مراقبة السوق في بلدة ما، والذي يُسمَّى المحتسب، تابعاً مباشراً للقاضي، وهو ليس ترتيباً هاماً وحسب، وإنما يتطابق أيضاً مع الوضع في الإمبراطوريات الأخرى. فالقاضي العثماني كان يشبه المشرف *praefectus* في روما القديمة، والحاكم *eparch* أو *nomarch* في الإمبراطورية البيزنطية، في حين أن الموظف الموافق للمحتسب هو *agoranomos* (أي المشرف على السوق/ *agora*) ويتبع للحاكم *eparch* مباشرةً.

رسَّخت السلطنة العثمانية، في مختلف أنحاء أراضيها الضخمة وفي حياة منطقة البحر المتوسط، نظاماً إدارياً على درجة هامة من المركزية. كان القضاة يُعيَّنون من قبل اسطنبول في جميع المقاطعات ضمن الأراضي العثمانية، بالإضافة إلى الأقضية.

والمشـرفون علـى القضـاة فـي روميليـا والأناضـول هـم القضـاة العسكريون (*Kazasker efendis*) في المناطق التي يوجد فيها القضاة، مـع تخصيـص هرميـة مختلفـة لمصـر. بكلمـات أخـرى، كان القضـاة العثمانيون يعملون في سـائر أنحاء السـلطنة الممتدة على أراضي ثلاث قـارات، مـن أصغـر قضـاء إلـى أكبر منطقـة إدارية، لكنهـم جميعاً كانوا يُعيَّنون من اسطنبول.

بما أن القاضي كان ينتمي إلى فئة المتعلمين العثمانيين، فهذا يعني بالضـرورة أنـه كان متخرجـاً من إحـدى المـدارس. وخرِّيجو المدارس كانـوا يبـدأون حياتهـم المهنية بواحدة من ثلاث مهن. الأولى، أن يكون مستشـاراً لمفتي ما؛ والثانية، أن يكون مدرِّسـاً في مدرسـة؛ والثالثة، أن يكون قاضياً. أولئك الذين يدخلون في إحدى هذه المهن الثلاث كانوا يتمتعون بتقدير عالٍ جداً في معظم الدول الإسلامية. ولكن، كان هناك بُعْـد خـاص للنظـام العثمانـي. فبالنسـبة إلـى النظام، كل هـؤلاء القضاة كانوا متسـاوين، أفقياً وعمودياً، ولكي يتم تعيينهم كانوا بحاجة إما إلى الخضـوع لتدريـب معيّـن أو لاجتيـاز امتحان خاص. لـم يكن مهماً كم عـدد السـنوات التـي أمضاهـا القاضي المسـتقبلي في هذه المدرسـة أو تلـك. لكـن المهم هو أن يكـون قد اجتاز الامتحانات المرتبطة بالتعليم المدرسي، والأهم من ذلك هو أن يكون قد تخرَّج من إحدى المدارس الكبرى، مثل مدرسة الفاتح في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أو مدرسة السليمانية في القرن السادس عشر. وأولئك الطلاب الذي حازوا على استحسان مدرِّسيهم وتخرَّجوا من هذه المدارس بمستوى يؤهلهم ليكونـوا مسـاعدي مـدرِّس (*danişmends*)، كانـوا يخضعـون لامتحـان كتابي وشـفهي بإشـراف لجنة مؤلفة من أشخاص متنوعين. وإذا نجحوا فـي اجتيـاز هـذا الامتحـان، فكانوا يُعتبَرون جديرين بأن يحملوا شـهادة اسطنبول *Istanbul Ruûsu* العالية. وأي شخص لا يحمل هذه الشهادة،

لم يكن لديه أمل بالتمتع بالتقدير نفسه الذي كان يتمتع به حاملوها، حتى لو درس أربعين عاماً في إحدى المدارس، فضلاً عن مسألة أنه لن يكون قادراً على أن يكون مدرِّساً، أو مستشاراً لمفتي، أو قاضياً.

كما كانت هناك مستويات مختلفة للقضاة، فإن مدرِّسي المدارس أيضاً كانوا يُصنَّفون في درجات مختلفة في الأناضول وروميليا ومصر. كانوا يبدأون بالعمل بأجر يومي يعادل 25 فلساً (*akçe*). وأولئك الذين ينالون الدرجات الدنيا، كانوا يُعيَّنون في البلدات الصغيرة، في حين أن أصحاب الدرجات الأعلى كانوا يُعيَّنون في المدارس، أما المتفوقون فكانوا يُرقَّون لموقع أعلى. وإذا كان هناك شخص لامع بصورة استثنائية، فمن الممكن أن يُعيَّن في منصب أعلى من ذلك أيضاً.

كما نعرف جيداً، كان جودت باشا -أحد أبرز الإداريين القانونيين في التاريخ العثماني- شاباً صغيراً جداً عندما بدأ العمل كمدرِّس في مدرسة السليمانية العظيمة. كان يملك درجة كبير المدرِّسين (*Kıbar-ı Müderris*)، أي ما يعادل درجة البروفسور في أيامنا هذه. وبسبب إنجازاته المميزة، مُنح جودت باشا لقب قاضٍ عسكري *kazasker*. وعندما كان يخدم في هذه الوظيفة، ترك وراءه فئة علماء الدين، وانتقل، كوزير، إلى فئة الإداريين. أما القاضي العادي، فكان يبدأ عمله في بلدة صغيرة في الأناضول أو روميليا مقابل 25 فلساً في اليوم. وهذا يعني عملياً أنه كان مضطراً إلى استخراج راتبه من الرسوم المدفوعة للمحكمة. ومع الزمن، كان يُرقَّى وينتقل إلى مكان آخر، مع عدم إمكانية بقائه في مكان واحدة لمدة تزيد عن سنة ونصف أو سنتين. وسبب هذا النقل الدائم هو الاعتقاد بأن القاضي إذا بقي في مكان واحد لفترة طويلة فسيعتاد السكان عليه، الأمر الذي سينقص من هيبته بينهم. وكما نتذكر، فالقاضي كان في الوقت نفسه رئيس البلدية، والمفتش على الأوقاف الدينية، والشخص الذي يشرف على جمع الضرائب. وعلاوة على ذلك،

إذا كانت هناك قلعة في المكان المعيَّن فيه، فإن القاضي كان مسؤولاً عن التأكد من أن الحامية أو حراس القلعة كانوا يقومون بواجبهم بشكل جيد.

بعض القضاة كانوا موكلين بمراقبة وتقييم أداء قضاة آخرين، وكانوا يُدعَون *mehayif müfettişes*. والأهم من ذلك هو أن بعض القضاة، في ظروف معينة، كانوا يحرِّضون الناس على كتابة طلبات التماس جماعية من أجل إرسالها إلى الحكومة المركزية. بحسب الشريعة، لم يكن القاضي مجرد مسؤول في الدولة، بل ممثلاً للرعية أيضاً. كان القاضي يمثل السلطة القانونية الوحيدة في المحكمة، لكن هذا تغيَّر في القرن التاسع عشر.

من هذه التغييرات استحداث منصب جديد هو المدّعي العام. حتى المحامين لم يكونوا موجودين قبل ذلك الحين. هذا النوع من الوظائف ليس موجوداً ضمن الشرع الإسلامي، وعلى كل حال، كانت الحاجة إليه قليلة في المرحلة التي نناقشها. ولم يكن القاضي ينفذ قواعد الشريعة فقط، بل كان يُفترَض به أيضاً أن ينفذ القوانين السلطانية العرفية غير المكتوبة (*örfi sultanı kanunlar*)، التي كان ينبغي تفسيرها على أساس الشريعة الإسلامية. باختصار، كان القاضي، كإداري، يحمل على عاتقه مسؤوليات كثيرة.

هذا الأمر كان يؤدي أحياناً إلى نتائج مأساوية. على سبيل المثال، في الفترة القريبة من انطلاقه في حملة بغداد (1636)، أمر مراد الرابع بشنق قاضي إزنيك بسبب عدم إزالة الثلج من الطرقات، أي أن القاضي عوقب لأنه أهمل في تنفيذ واجباته الإدارية. لكن هؤلاء المسؤولين -الذين كانوا قضاةً أولاً وأخيراً، رغم كونهم إداريين حكوميين في الوقت نفسه- كانوا إجمالاً يتمتعون بدرجة ما من الحصانة. ولم يكن بالإمكان شنقهم أو قتلهم بالسيف. وهذا واضح في وثيقة رسمية مؤرخة

في 1595 نشرها البروفيسور خليل إنالجيك، وفيها هدَّد السلطان بعض المسؤولين بما يلي: "إن لم تنجزوا واجبكم، فسأطبق بحقكم العقوبات التالية". وتحوي الوثيقة تهديداً فظيعاً بأن "القضاة أيضاً يمكن أن يُضرَبوا ضرباً مبرحاً ويُقتَلوا". ولكن، ليس هناك أي دليل على تعرُّض أي قاض لمثل هذا النوع من الضرب المبرِّح. وما يبدو أن الوثيقة تريد قوله هو التالي: "يجب ألا تعتمدوا، بأي حال من الأحوال، على أن السياسة لن تُنفَّذ بالسيف. فإذا حدث وارتكبتم أي فعل غير قانوني، فسأحكم عليكم بالموت وأقتلكم من دون أن آخذ دمكم"، ما يشير إلى نوع من العقوبات كان سائداً قبل الإسلام.

عند حصول قاضٍ ما على ترقية، فإنه كان يسافر إلى موقعه، ثم يعود إلى اسطنبول وينتظر هناك إلى حين تعيينه في منصب أعلى. وكان هذا الانتظار بين المناصب يُعرَف باسم *mazuliyet*، وهو لا يعني طرداً من العمل بسبب إساءة التصرف. وفي نهاية انتظاره، كان القاضي يُعيَّن في مقاطعة أكبر أو أرقى، ويُمنَح لقب قاضي المولوية *mevleviyyet kadı*. وأولئك القضاة، المنتظرون ترقيتهم للمولوية في اسطنبول، كانوا يُسمّون *tahtabaşes*.

دعوني أخبركم طرفة صغيرة. كان هناك قاضٍ من بلدة كيركلاريلي (*Kırklareli*) في المنطقة الأوروبية من تركيا المعاصرة، وفي ذلك الزمن كانت البلدة تُعرَف باسم كيركيليس (*Kırkkilise*)، ويعني هذا الاسم أربعون كنيسة. أثناء انتظاره في اسطنبول للترقية، قدّم طلباً يصرّ فيه على تعيينه في مقاطعة ماناستر (*Manastır*) المهم (*Manastır* هي الكلمة التركية المرادفة لكلمة *Monastery* بالإنكليزية، والتي تعني دَيْراً) في مقدونيا. ردّ المسؤولون عليه قائلين، "هذا موقع هام جداً، وأنت لا تتمتع بالخبرة الكافية". فأجابهم القاضي، قائلاً: "بالله عليكم، لقد نجحت في إدارة أربعين كنيسة، وتقولون لي إنني لن أستطيع أن أدير دَيْراً؟"

لا شـك في أن نظام القضاة كان يتضمن آليات رقابة ترتكز على الهرمية، والمستوى التعليمي، والخبرة، والامتحان. لكن الفساد والرشوة ضمـن طبقـة القضـاة والإدارة معاً أديـا إلى تقويض هذه الآليات بصورة كاملة. ظل منصب القاضي باقياً حتى سقوط السلطنة العثمانية.

أود هنا أن أذكر وثيقة تكشـف لنا شـيئاً ما حول منصب القاضي، الـذي أصبـح الآن جـزءاً مـن التاريخ. في مقبرة كاراجا أحمد في منطقة أشـكادار فـي اسـطنبول، نجد بين شـواهد القبور التـي تتداعى وتختفي يومـاً بعـد يـوم قبوراً لعدد من القضاة رفيعي المسـتوى. كُتب على أحد القبـور العبـارة الجميلـة، "هو الباقـي". والنعي المكتوب موجّه للقاضي السابق لمصر، الذي توفي في جوار دمشق أثناء سفره برّاً من حماه في سوريا إلى طرابلس. ويُشار إليه باسم، سلطان أحمد إمام زاده (*Sultan Ahmetimamızade*)، وهـذا الاسـم يشـير إلـى أن القاضي المتوفي كان ابنـاً أو حفيـداً (*zade-*) لإمـام فـي أحد مسـاجد السـلاطين، التي كانت تُبنـى بأمـر مـن أحد أفراد عائلة السـلطان وكانت تملك فـي العادة أكثر من مئذنة. هؤلاء الأئمة كانوا يتمتعون بثقافة واسعة ويتلقون أجوراً عالية نسـبياً، وكانوا مشـهورين في جميع أنحاء اسـطنبول. وكُتب أيضاً على الشـاهدة، "الفاتحة على روح المتوفى السـيد مصطفى أفندي، 1919". إذاً، نحن نتحدث عن السنوات الأخيرة للسلطنة، التي كانت قد فقدت دمشق قبل عام واحد، لكن قاضيها كان لا يزال موجوداً في مكانه.

من الواضح أن معظم الأشخاص الذين بلغوا منزلة القاضي كانوا يمتلكون الثقافة التي يتطلبها هذا المنصب من عائلاتهم وكانوا يقومون بواجبهـم فـي الزوايا الأربع لهذه السـلطنة الضخمـة. يمكننا إيجاد قبور كهـذا القبـر المذكـور للتو في كل مكان، وإذا دققت في أصول المتوفي فإنك ستلاحظ أن شخصاً وُلد في روميليا -على سبيل المثال- مدفون فـي بغـداد أو طرابـزون. وبالعكـس، يمكنـك أن تجد فـي الأناضول أو

روميليا قبراً لابن عالم دين من طرابزون أو اسطنبول.

لا شك في أن فئة القضاة فقدت دورها في العام 1826، مع إلغاء القوات الإنكشارية، الحدث الواعد كما يُسمَّى. عندما أُلغيت القوات الإنكشارية، تعرَّض النظام العام للاهتزاز، وليس الجنود فحسب، لأن القادة المسؤولين عن أمن المدن، مثل *asesbaşı* و*subaşı*، كانوا من الجيش الإنكشاري أيضاً. وحتى مقرات قيادة الشرطة كانت تحوي جنوداً انكشاريين تابعين للسلطان لضمان حفظ الأمن، لكن هذه كانت مسؤولية جنود في البحرية يُسمّون *levents* في المناطق التي تحوي أحواضاً لرسو السفن مثل قاسم باشا، بالإضافة إلى الجزر وبعض الموانئ. وكان القضاة يعتمدون على الجنود الإنكشاريين في تنفيذ الأحكام، ليس في اسطنبول فقط بل في سائر أرجاء السلطنة. ولهذا السبب، عندما أُلغي الجيش الإنكشاري، فَقَدَ القضاة مسؤولياتهم بالتدريج. في البداية، أُلغي دورهم كرؤساء للبلديات وكمفتشين، بالإضافة إلى مسؤوليتهم عن الشؤون المالية. ولاحقاً، عندما جرى توحيد الأوقاف ضمن إدارة منفصلة، اضطر القضاة إلى تسليم السلطة عليها أيضاً. وأخيراً، عندما أُنشئت محاكم إدارية وجزائية، لم يبقَ للقضاة من واجبات سوى القضايا التي تقع ضمن مجال قانون الأحوال الشخصية.

بشكل تدريجي، ضَعُف التعليم الذي كان يُعطى لفئة القضاة في المدارس وفقَدَ وظيفته مع تقدّم السلطنة بالعمر. وهذا لأن التعليم غير الديني والمدارس غير الدينية، في مرحلة الإصلاح الحكومي والإداري (*Tanzimat*)، أصبحت مفضَّلة على النظام التعليمي الديني السابق. ورداً على ذلك، اتّخذت مجموعة علماء الفقه الإسلامي على الفور ما اعتبروه إجراءات ضرورية، حيث أسسوا مدرسة قانونية للقضاة سُمِّيت مدرسة النوّاب أو مدرسة القضاة، وكان المنهاج الذي يُدرَّس فيها – ينبغي التنويه إلى ذلك- أقرب إلى القانون الغربي من منهاج المدرسة

القانونيـة *Mekteb-i Maarif-i Adliye* (مكتبـة المعـارف العدلية)، التي أسسـها محمـود الثانـي. كانت مدرسـة النوّاب هذه تـدرِّس بعض فروع القانـون الغربـي، وحتـى القانـون الرومانـي. وكانـت تحـدد مسـبقاً أيام الأسـبوع والسـاعات التي سـيجري فيها إعطاء الدروس، بعكس النظام التعليمي الإسلامي السابق، ولكن بما يماثل مدرسة الإدارة (*Mekteb-i Mülkıye*) وكليات الحقوق المعاصرة. علاوة على ذلك، كان المدرِّسون يخضعون لنظام صارم شأنهم في ذلك شأن الطلاب. بهذه الطريقة، نجح الفقهاء في استعادة موقعهم في الحياة القانونية للسلطنة، لدرجة أنه عند تأسـيس الجمهوريـة (1923) وتبنّـي القانون المدني (1926) –ما يؤشـر إلـى الانتقـال إلـى نظـام قضائي وفق النمط الغربـي– كان بعض القضاة البارزين وأعضاء في محكمة الاسـتئناف ينتمون للفئة القانونية السـابقة، أي كانوا من خرِّيجي مدرسة النوّاب.

لا يمكن أن يكون هناك أي شك في أن من بين منجزات المرحلة الأخيرة من السلطنة العثمانية إنشاء إدارة مركزية من خلال فرض نظام تدريبـي وامتحانـي علـى فئـة الإداريين، وتثبيت النظام القضائي لسـلطنة مترامية الأطرف كالسـلطنة العثمانية بواسـطة مبادئ أساسـية محددة. في هذا الخصوص، تختلف السلطنة العثمانية عن الإمبراطوريات الإسلامية الأخرى في التاريخ.

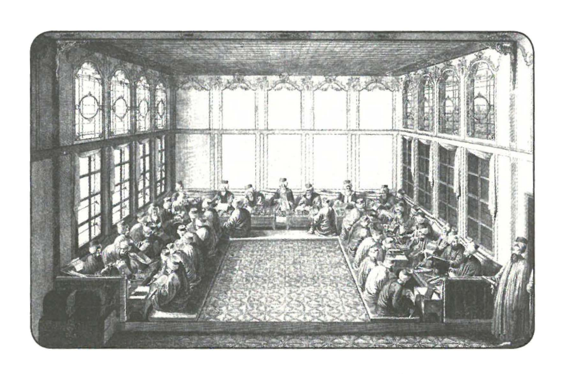
كان القضـاة والقضـاة العسـكريون يلعبـون دوراً فائـق الأهمية في السلطنة العثمانية. قبل مجيء شاغلي منصب شيخ الإسلام إلى المقدمة مع فئة العلماء في القرن السـابع عشـر –تطورٌ بدأ خلال حكم سـليمان القانوني بدفع من أبو السـعود أفندي– كان رؤسـاء القضاة الملقبّون بـ *kadıy-ı lesker*، أي قاضي الجنود، يتمتعون بأهمية كبيرة جداً. وكانوا أعضاء في الديوان السلطاني، في حين أن شيخ الإسلام لم يكن عضواً فيه.

لكي يبلغوا القمة، كان الناس بحاجة إلى امتلاك حياة مهنية حافلة. خلال تاريخ السلطنة العثمانية، نصادف عائلات مميزة جداً تنتمي لمدرِّسي المدارس والقضاة، مثل أبو إسحق زاده وكاراتشلبي زاده، وكوبرولو زاده، ومينكاري زاده، وعدد لا يُحصَ من عائلات علماء الدين. ومن خلال أنماط حياتهم وثروتهم، من دون ذكر دورهم البارز في الحقل الثقافي، ساهم هؤلاء الأشخاص في تحويل وتقدّم الثقافة العثمانية.

لهذا السبب نحن بحاجة إلى أن نعرف الكثير حول فئة القضاة. يجب أن نكون حريصين جداً على الحفاظ على شواهد قبور العلماء والقضاة في مقابر اسطنبول الكبرى، فهذه الشواهد، في نهاية الأمر، مصادر تاريخية. ولكن، لسوء الحظ، كل يوم تتعرض قبور مجموعة كاملة من العلماء لدمار بالجملة...

الديوان

إن عبـارة *Dıvan-ı Hümayun* ذات أصـل فارسـي نقـي، ويمكـن ترجمتها بعبارة "الديوان (أو المجلس) الإمبراطوري". منذ بداية السلطنة، كان الديوان هو المؤسسة التي يجتمع فيها حكام الدولة برئاسة السلطان. وفقـاً لمـا هـو متناقل، خلال عهد مراد الثانـي، جاء أحد الدراويش إلى هذا الاجتماع، الذي كان ملتئماً على أريكة على مرأىً من عامة الناس، وسألهم: "من منكم السلطان مراد؟" بكلمات أخرى، خلال تلك الفترة، كانت العلاقة بين الحكام والدولة من جهة وبين الناس الذين يحكمونهم من الجهة الأخرى قد بدأت تصبح وثيقة إلى درجة فقدت معها الدولة هيبتها. وبسـبب مثل هذه الحوادث، أبعدَ الديوان نفسـه عن العامة. مع أن صدى النقاش الدائر في غرفة الاجتماع في قصر توبكابي كان يمكن سـماعه أحيانـاً فـي الخارج. وبعد حكم السـلطان محمد الفاتح، توقف السـلاطين عـن تـرؤس الديوان، الذي كان يحكم العالـم عملياً، وبدأوا بمراقبة المناقشات في غرفة صغيرة تقع فوق غرفة الاجتماع مع وجود فاصل بينهما على شـكل سـاتر. نادراً ما كانوا يَحلُّون الاجتماعات عبر الصـراخ، ولكـن غالبـاً بواسـطة الطرق على السـاتر بالعصى. وبعد حلِّ الاجتمـاع، كان رئيـس الـوزراء والأعضاء الآخرون في الديوان يدخلون إلى غرفة مقابلة السلطان (*Arz Odası*) بالمشي عبر باب السعادة. كان السلطان يصغي إليهم جميعاً ويأخذ منهم ملخصاً عن المناقشات. وإذا كان رئيس الوزراء يريد أن يناقش موضوعاً ما مع السلطان على انفراد، فإنه كان يلتزم الصمت، فيعرف الأعضاء الآخرون في الديوان أن عليهم المغادرة.



كان الوزير، أو رئيس الوزراء، يقدم اقتراحاته إلى السلطان على شكل وثيقة كانت تُسمَّى، بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، *telhis*، أي رسالة. وكان السلاطين يعلنون أوامرهم بشكل مكتوب في وثيقة تُدعى *hatt-ı hümayum*، أي رسالة سلطانية. وهذه الأخيرة تختلف عن رسائل أخرى مكتوبة باسم السلطان. بصفة عامة، كانت الرسائل التي يعطيها السلاطين لرئيس الوزراء تحوي تعابير رسمية تارةً وغير رسمية تارةً أخرى مثل "*Vezir-i meali semir'in*" (وزير، بمعنى الصديق) أو "*Benim Vezirim*" (أي وزيري). وفي هذه الرسائل يمكننا أن نميِّز أيضاً خط يد السلاطين. فمراد الرابع، على سبيل المثال، كان قادراً على الكتابة بخط أنيق للغاية، في حين أن خط يد أحمد الثالث كان يُعتبَر عملاً فنياً، أما محمود الثاني فكان خطاطاً حقيقياً. ولكن، يُفضَّل عدم الحديث كثيراً عن خط يد سليم الثالث.

كان الديوان عملياً هو اللجنة التي تحكم السلطنة، ولم يكن مجرد مجلس للوزراء. لا يمكن القول إن القرارات المتخذة في هذا الديوان كانت نافذة بحكم القانون، لكنها كانت مُلزمة بحكم الواقع، لأن

رئيس الوزراء كان يملك سلطة مطلقة. وقد أصبح وضع جدول أعمال الاجتماعات وعقد الاجتماع وفضّه تحت رئاسته تقليداً بمرور الزمن.

جرت العادة على أن يؤدي أعضاء الديوان صلاة الفجر في جامع هاجيا صوفيا، الذي كان يُعَدُّ الجامع رقم واحد في العالم الإسلامي، وكان هذا مدوَّناً في البروتوكول أيضاً. (بشكل مشابه، قبل أن يغزو العثمانيون اسطنبول، كانت الكاتدرائية الضخمة حيئنذ تُعتبَر الكنيسة رقم واحد في العالم المسيحي). كان الأشخاص القادمون إلى قصر توبكابي من هاجيا صوفيا يمرّون عبر البوابة السلطانية على جيادهم قبل أن يترجَّلوا عنها عند باب السلام (الذي يُسمَّى أيضاً الباب الأوسط)، وهو المدخل الرئيس، حيث يوجد مكتب بيع التذاكر اليوم. كان هناك عدد قليل جداً من الاستثناءات لهذا التقليد المتمثل بالترجُّل عن الجياد، كما حدث في العام 1739 بعد النصر الذي حققه إيواظ محمد باشا في معاهدة بلغراد للسلام. فقد سُمح للباشا بعبور المدخل على صهوة جواده بفضل مكرمة استثنائية من السلطان محمود الثاني. لكن الوصول إلى الساحة الثانية ركوباً على الجواد كان امتيازاً خاصاً بالسلطان وحده. كان أعضاء الديوان، الذين يجلسون في أماكن محددة وفق تسلسل معين، يبدأون نقاشهم بعد وصول رئيس الوزراء، وأثناء الاجتماع، كان الخدم يقدمون لهم مشروبات وأطعمة خفيفة موسمية منعشة.

كان الديوان يتكوَّن من رئيس الوزراء، يليه بالترتيب نزولاً من حيث الأهمية الوزير الأول فالثاني فالثالث فالرابع. وكما ذكرنا في مكان سابق، كان القضاة العسكريون المسؤولون عن الأناضول وروميليا من بين الأعضاء، رغم أن شيخ الإسلام لم يكن كذلك أبداً. ولم يُوضَع ضمن هيئة مستشاري المفتي إلا بعد سنوات كثيرة من مرحلة الإصلاح الحكومي والإداري (*Tanzimat*)، وكان يحتل المرتبة الثانية في هرمية السلطة بعد رئيس الوزراء. لكن شيخ الإسلام لم يأخذ موقعه أبداً تحت

برج العدل، أو قصر العدل (*Kasr-ı Adl*)، حيث كان يجتمع الديوان.

ويأتي في المرتبة بعد الوزراء، بالطبع، آغا الجيش الإنكشاري، وهنا آغا تعني جنرال. وبصفته مارشالاً، كان أدميرال الأسطول يأتي بعد الجنرال. وثمة أهمية خاصة لاشتراك النيشنجي -المسؤول الأعلى في خدمة العلاقات الخارجية في السلطنة- في الديوان. كانت مسؤوليات النيشنجي أكبر بكثير مما يمكن أن تظنوا، فهو كان مسؤولاً عن تسجيل جميع الأراضي في السلطنة العثمانية، مع احتفاظه بسجلات جميع الإقطاعيات الصغيرة (*tımar*) والكبيرة (*zeamet*). وكان تفويضه يشمل إصدار الشهادات وحفظها وتحسين إجراءات العمل. وبصفته المسؤول الأعلى في خدمة العلاقات الخارجية، فإنه كان يشرف على ما يُسمَّى برئيس الكتّاب، المسؤول عن إدارة عدد كبير من الموظفين المختصين بالعلاقات الخارجية بالإضافة إلى مترجمي الديوان. وكان أيضاً رئيساً للقسم الذي يتعامل مع المراسلات الأجنبية الصادرة والواردة. بالطبع، كانت مهمته التي تحتل الأهمية الأعلى تتمثل في مسؤوليته عن تسجيل الأراضي. كان النيشنجي ينظم وثائق آلاف الإقطاعيات، التي كانت تُعتبَر أساس الإدارة المالية والتنفيذية والعسكرية. ومع أن أراضي الإقطاعيات كانت تُوزَّع عادةً بحسب ما يمكن أن تقدمه هذه الإقطاعيات في زمن الحرب، فإن تطوير وتنظيم وتوزيع هذه الأراضي كان يعتمد بشكل كلي على قدرة وإدراك وعدالة النيشنجي. بالطبع، كان يأتي مع هذه الواجبات بعض الواجبات الأخرى، مثل مراقبة الإقطاعيات، والإشراف على تلك التي تُركت من دون مالكين، وإنهاء الملكية عن بعضها إذا ما دعت الضرورة. ومن بين النيشجنجيين، كان هناك مسؤولون موهوبون مثل جلال زاده مصطفى، الذي أظهر خبرةً في الأدب والتاريخ، إضافة إلى مزج اللغات العربية والفارسية والتركية ببراعة.

كما ذُكر أعلاه، إن العضوين الأبرز في الديوان هما القاضيان

العسكريان المسؤولان عن الأناضول وروميليا، اللذان يمكن أن نصفهما بدقة بأنهما القاضيان العسكريان في الجيش العثماني. كان هذان المسؤولان يضطلعان بمهمة جوهرية تتمثل بتعيين وترقية القضاة، الأمر الذي يعني الإشراف على عملية إزاحتهم عن مناصبهم ومن ثم انتظار ترقيتهم لمنصب أعلى.

كان وزيرا الأناضول وروميليا، يُشار إليهما باسم حاكمي الأناضول وروميليا، وكانا عضوين في الديوان منذ البداية. ومن الواضح أنه كان هناك مكان في الديوان لأدميرال الأسطول البحري، الذي كان بحاجة إلى متطلبات شرحناها في الفصل الرابع عشر. وإضافة إلى كل هؤلاء الوزراء المستشارين، كان آغا الجيش الإنكشاري، أي قائد جميع الجنود، عضواً في الديوان أيضاً.

كل القضايا المتعلقة بالسلطنة كانت تُناقَش في الديوان. من جهة، كان الديوان يناقش الشؤون الخارجية ويقدم اقتراحات للسلطان حول المسائل الحربية. ومن جهة أخرى، كان مطلوباً منه الاهتمام بمسائل قد لا يتوقع المرء من مؤسسة كهذه الاهتمام بها. على سبيل المثال، كانت تقع على عاتقه المسؤولية الحساسة المتمثلة بضمان تزويد اسطنبول بما يكفي من وقود ومؤن. هنا لا بد من التنويه إلى أن اللحوم والحبوب كانت تؤمَّن وتُخزَّن في اسطنبول منذ الحقبة البيزنطية -رغم أنها مدينة ضخمة بصورة استثنائية عند التفكير في الوسائل التكنولوجية لذلك العصر- وذلك وفقاً لنظام خاص من الاحتكارات الإلزامية وتحديد الأسعار ومراقبة النوعية. وإهمال وتأخير هذه الإجراءات كان يمكن أن يسببان مشاكل كبرى، تصل إلى حدّ الثورة أحياناً.

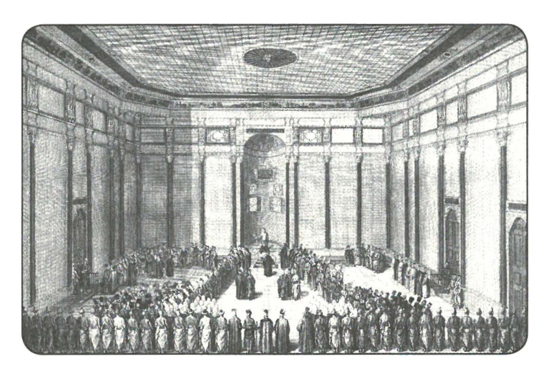
لاشك في أن قرارات الديوان كان لا بد أن تُناقَش مع السلطان، غير أن هذا النقاش كان يتخذ شكل تقدمة رسمية، ومن الخطأ الظن أنه كان هناك نظام فيتو (حق النقض). أولئك الأشخاص تربّوا في الدولة

العليّة -إحدى تسميات السلطنة العثمانية- وكانوا يعرفون حدودهم جيداً.

كان الديوان ينعقد أيضاً يوم الجمعة، يوم العمل الأشد ازدحاماً، ليستمع إلى طلبات المواطنين العاديين. وفي نهاية الجلسة، كان يمنح 50 فلساً لكل شخص اعتنق الإسلام. في الأزمنة العثمانية، كان تبديل الدين يعني التضحية بأقارب المرء ومجتمعه وحتى عمله. ولهذا السبب، كانت النساء الأرامل والرجال المسنّون الوحيدون، الذين كانوا قد بدَّلوا دينهم في السابق، يتلقّون دعماً تقليدياً يشمل المسكن وحتى لوازم العيش.

كان الديوان ينعقد كل ثلاثة أشهر مترافقاً مع مراسم خاصة. ففي ذلك اليوم، كان مسؤولو وممثلو الكتيبة الأولى من الجيش الإنكشاري يدخلون عبر باب السلام، ثم يتابعون طريقهم ويعبرون باب السعادة، ثم يجتمعون في الساحة الثانية حيث يقومون بإطلاق صرخة حرب مدوية تهز الأرض (*gülbank*). بعد ذلك، كان يجري تقديم الحساء للجنود. فإذا بدأ الجنود بتناول حسائهم، فهذا يعني أنهم سيحصلون على رواتبهم، أما إذا امتنعوا، فتلك إشارة على التمرد. كان السلطان نفسه هو العضو الأول، اسمياً، في الكتيبة الأولى. هكذا كان الجنود ينالون رواتبهم كل ثلاثة أشهر. كان السفراء المقيمون في اسطنبول إضافة إلى وفود من دول مجاورة تحضر هذه المراسم الصاخبة ولكن الممتعة.

بعد مواظبته على أداء أنشطته خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، بدأ الديوان يفقد أهميته في القرن الثامن عشر. وأحد الأسباب يكمن في أنه لم يعد ينعقد كثيراً. لقد شهد القرن الثامن عشر نوعاً من الميل نحو اللامركزية في السلطنة، حيث بدا أن المجتمعات في الولايات والمدن الحدودية كانت تحكم نفسها بنفسها. وفي القرن التاسع عشر، جلبت المركزية معها بنية مختلفة كلياً، تتضمن إنشاء



وزارات. كما يمكننا أن نرى، صحيح أن الديوان لم يكن برلماناً بحدّ ذاته، لكن جذور الإدارة المركزية والبيروقراطية التركية كانت موجودة في القصر بالفعل، والديوان كان يمثل الخطوة الأولى على الطريق المؤدي إلى هذه المؤسسات.

كانت هناك هيكليات مشابهة في دول أخرى أيضاً. فعلى سبيل المثال، كانت هناك لجنة مستشارين مشابهة في إسبانيا، ولا يرأسها الملك ولكن يشرف عليها من خلف ستار. وفي موسكو، كان برلمان النبلاء يمثل هيئة استشارية. والعلاقة بين هذه الهيئة والقيصر تشبه العلاقة في الديوان العثماني. مع ذلك، فإن الديوان العثماني -وهذا لا يُفترَض أن يكون تفاخراً- كان يملك بروتوكولاً هو الأكثر أصالة وتميُّزاً وكان يولي أهمية كبرى للأُبَّهة -أي تفصيل دقيق في قواعد السلوك الخاصة به كان يُعتقَد بأنه يحمل معنىً معيناً. حتى تأخير بسيط في أحد عناصر إجراءاته النموذجية كان يُعتبَر بالغ الأهمية. وإذا ما رفع أحد الأعضاء صوته خلال الاجتماع، فإنه كان يتعرض للانتقاد، إذ كان يُنظَر إلى موقفه هذا على أنه نوع من التحدي المشين. قد تحدث نزاعات وخلافات،

لكن الانسجام يبقى مسيطراً. وإذا كان السلطان يتمتع بشخصية قوية أو كان ممثله الشخصي يرأس الاجتماع بكفاءة، فإن الأمور كانت تسير على ما يرام.

تقع المكاتب المسؤولة عن الأعمال الكتابية للقصر بجانب الديوان تماماً. ووثائق هذه المكاتب محفوظة اليوم في أرشيفات رئاسة الوزراء. وقد شغلت مكان هذه الوثائق في قصر توبكابي واحدة من أكثر مجموعات الأسلحة إثارة للإعجاب في العالم. فلنأمل بأننا سنتمكّن، يوماً ما في المستقبل، من عرض هذه الأسلحة في مبنىً منفصل.

الموقع الثاني الذي كان من خلاله يستطيع الديوان الالتقاء بالسلطان هو قاعة مقابلة السلطان (*Audience Chamber*) التي تقع مقابل باب السعادة مباشرةً. هنا كان المواطنون، في أوقات محددة، يقدّمون آراءهم للسلطان وهنا أيضاً كان رئيس الوزراء يقدم رسائله (*telhises*). وأمام باب السعادة أيضاً، كان يوضَع عرش ذهبي حيث كان السلطان يجري مناقشاته مع أعضاء الديوان، وكان العرش يُستخدَم كذلك من أجل التتويج ولتقديم التهنئة والإعراب عن الأمنيات السعيدة في المناسبات الدينية. وكان عَلَم السلطنة يُرفَع هناك في بعض الأحيان، وخاصة عند إعلان الجهاد أو في حالات معينة، مثل الحالة التي حدثت في 1826، عندما حاول السلطان مناشدة الشعب كي يناصروه في نزاعه مع الإنكشارية.

كانت الساحة الثانية (أو الوسطى) شاهدةً على جميع انتصارات وأزمات السلطنة العثمانية. كانت هذه الساحة، من جهة، تُعبِّر عن قوة السلطنة واستمرار تقاليدها. لكنها، من الجهة المقابلة، كانت مسرحاً لأحداث تمرد وعصيان، مثل الحادثة التي دخل فيها الجنود الإنكشاريون عبر باب السلام وأرغموا السلطان على تلبية مطالبهم، فضلاً عن وجود حالات كثيرة سُفكت فيها الدماء فوق هذه الساحة.

على أحد جوانبها تقع مطابخ القصر حسنة التصميم. صحيح أننا لا نعرف على وجه الدقة ما الذي كان يميِّز المطبخ التركي أو السلطاني، لكننا نعرف أن المطابخ في قصر توبكابي تضم واحدة من أكبر المجموعات الخزفية في العالم، إذ تتألف مما لا يقل عن اثنتي عشرة ألف قطعة.

* * *

بجانب الديوان، كان هناك قسم الحريم السلطاني (*Harem-i Hümayun*)، أي أن الحياة العامة للدولة كانت على بعد خطوة واحدة فقط من الحياة الخاصة للسلطان. يُعتبَر برج العدل (قصر العدل) واحداً من أفضل المواقع لرؤية اسطنبول. وما يثير الاهتمام هو أن أبعاد هذا البرج الرائع مشابهة لأبعاد مآذن المساجد التاريخية مثل المسجد الأزرق وهاجيا صوفيا. يرمز البرج -الذي بُني بأسلوب عصر النهضة، والذي يمكن من خلاله رؤية الديوان - إلى القصر، ليس بسبب علوِّه بل لجماله وأناقته. بعد تعرّضه لحريق في القرن السابع عشر، أُعيد بناؤه مجدداً باستخدام الحجارة والقرميد. يمكن رؤية أبراج مشابهة من حيث التصميم في جميع القصور في الأزمنة العثمانية، مثل خانسراي في باهتشيسراي، وقصر أدرنة، وحتى منازل الشخصيات البارزة في القرن الثامن عشر. لكن هذا البرج، الذي يوجد أسفله قبّة، كان فريداً من نوعه لأنه منح الدولة اسمه، إذ إن قاعة الاجتماع الرئيسة للديوان الإمبراطوري، الذي كان يُعتبَر العنصر الأهم في الحكومة العثمانية، كانت تُدعى *Kubbealtı* (تحت القبة) في حين أن أعضاء الديوان كانوا يسمّون *Kubbenişin rıcal* (رجال تحت القبة). ومن هذا البرج، وخاصة عند الغسق، يمكن رؤية القرن الذهبي، كما يعبِّر اسمه.

حالما تدخلون إلى الساحة الثالثة عبر باب السلام ومن ثم عبر باب السعادة، ستجدون أنفسكم أمام أكثر المدارس السلطانية إثارة للاهتمام

في التاريخ العالمي، *Enderun-u Hümayun*. كان القسم الداخلي، أو المدرسة الداخلية، يقع حول هذه الساحة، حيث تُقام معارض الفنون اليوم. إنها المؤسسة التي تربّي وتعلّم وعمل فيها الفتيان المجندون الذين أداروا السلطنة حين كبروا. سنتحدث عن القسم الداخلي بشيء من العمق في فصول لاحقة.

السلطان أحمد

السـلطان-أحمد هـي السـاحة التي تقع في مركـز العالم. إذا كنتم تتسـاءلون ماذا أعني بذلك، فامشـوا باتجاه سـاحة السلطان أحمد، وبين السـاحة وهاجيا صوفيا، عند مدخل خزانات فاسـيليكا المعروفة باسـم القصر الغارق (*Yerebatan Sarayı*)، ستجدون حجر المليون (*Million Stone*). هنـا تبـدأ الطـرق الممتـدة نحـو أصاقع السـلطنة العثمانية. منذ القـرن الرابـع، كانـت اسـطنبول عاصمـة عالمية وقـد حافظت على هذه الخاصية بمساعدة التاريخ والقدر. وبعد بقائها لفترة طويلة على الهامش بسبب الأزمات الاقتصادية، والفقر، والتدمير الذي لحق بها بفعل حربين طاحنتين، ها هي اسـطنبول اليوم في طريقها لتصبح عاصمة للثقافة من جديـد. فـي بعـض الأحيان، يُقام عدد كبير من الحفلات الموسـيقية في اليـوم نفسـه بحيـث يجـد محبو الفن صعوبة بالغة في اتخاذ قرار بشـأن أي الحفـلات سـيحضرون. لكـن اسـطنبول، في الوقت نفسـه، شـاهدةٌ على فقر كبير، ومشـكلات أساسـية، وعدم مساواة في توزيع الخدمات. وعندما نحلُّ كل هذه التحديات، كأمة، فسنكون قد حللنا مشكلات هذه العاصمة الثقافية العظيمة.

لسـوء الحظ، خلال الخمسـين سـنة الماضية، شُـيِّدت عدة مباني مرتفعـة بالقـرب مـن القصـر الغارق، وهناك أبنية شـاهقة يجـري بناؤها الآن، وذلك بسـبب تطويع القوانين لصالح بعض الأشـخاص. في زمن الإمبراطوريتيـن الرومانيتيـن، علـى سـبيل المقارنـة، ومـن أجـل حماية خزانـات باسـيليكا وخزانـات ميـاه أخـرى، لـم يكن بالإمكان بنـاء أبنية عالية في المنطقة المحيطة بساحة الخيول (بُنيت بين 330 و340)، وقد

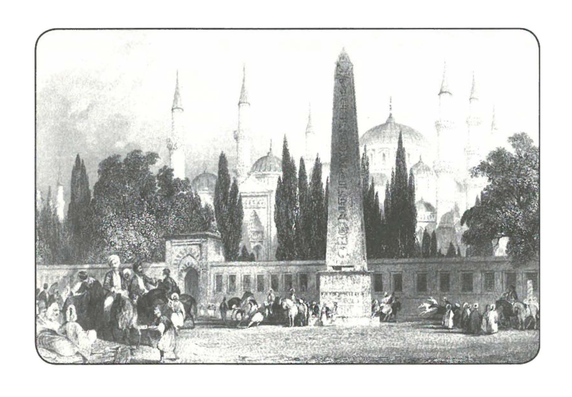
استمر هذا الإجراء حتى العصر العثماني، حينما أصبحت المنطقة تُعرَف باسم *At Meydanı*. وحتى الآن، ليس هناك أبنية عالية في هذه الساحة، باستثناء أبنية مثل قصر إبراهيم باشا؛ وجامعة مرمرة، التي كانت كلية للتجارة في القرن التاسع عشر؛ ومكتب اسطنبول لسندات الملكية، الذي كان يُعرَف باسم *Defterı Hakani Nezareti*. ولكن، هنالك مخاوف من تغيير خلفية هذه المنطقة عاجلاً بسبب رواج بناء الفنادق. وإذا ما انبثقت بالفعل أبنية عالية في ساحة "*At Meydani*" فإن هذا سيفسد قوام وجمالية المنطقة بأكملها. إضافة إلى ذلك، إن الناس قلقون من أن يؤدي حفر الأرض من أجل وضع أسس أبنية في المستقبل إلى تدمير الثروات الآثارية القابعة أسفل المدينة.

يوجد اليوم الكثير من الأبنية البشعة حول الساحة. ومن بين هذه الأبنية، محكمة السلطان أحمد، التي وإن صُمِّمت من قبل مهندس معماري شهير، إلا أنه يصعب تصنيفها بين أفضل أعماله، كما أنها تفسد منظر الساحة، وتسبب مشكلة مرورية غير ضرورية بسبب حركة المحكمة المحمومة.

أي شعب وبلد يملكان مكاناً مثل ساحة السلطان أحمد والأبنية التاريخية حولها لديهما الحق بأن يُعرَفان ويُمدَحان لثقافتهما وتاريخهما الفريديْن. ولكن، إذا سمحنا بتدمير أو إهمال هذه المواقع الثمينة، وغضينا الطرف عن الأبنية البشعة حولها، فإننا لن نستحق الشهرة ولا المديح.

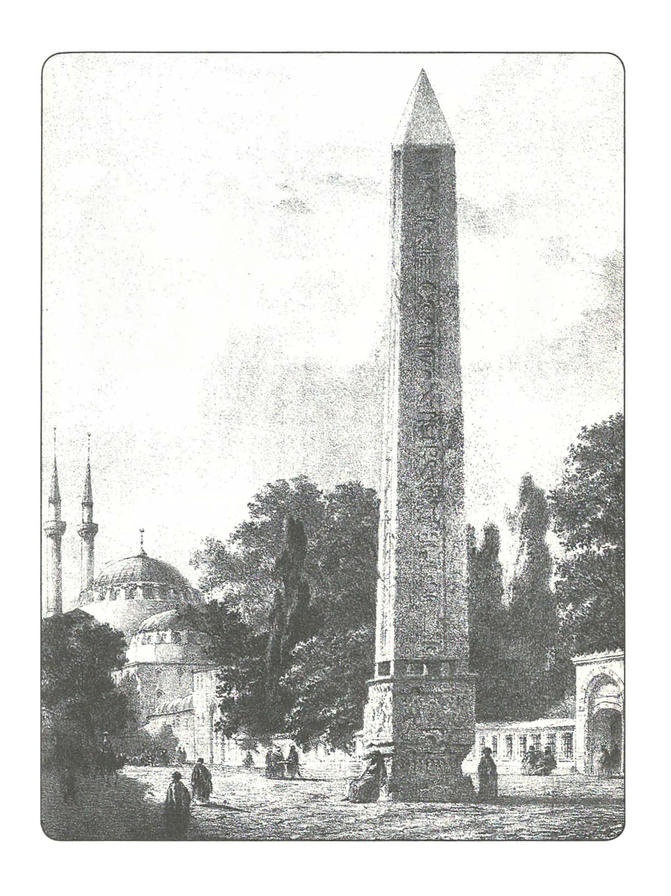
* * *

كانت ساحة الخيول تُعتبَر النقطة المركزية في هذه المدينة، التي بقيت لمدة خمسمائة عام عاصمة العالم. عندما تنظرون إلى الأبنية التاريخية هناك، فستدركون السبب. في المنتصف تنتصب مسلّة تعود إلى زمن تحتموس الثالث جُلبت من مصر خلال عهد الإمبراطور



ثيودوسيوس. وهذا يبيِّن لنا أن عادة جلب المسلات من مصر إلى عاصمتي القوتين الاستعماريتين الكبريين في التاسع عشر، بريطانيا وفرنسا، كان لها جذور في تركيا. لكن هذه المسلة الجميلة تشكل مع منظر مسجد السلطان أحمد الواقع خلفها لوحة مشابهة بصورة مذهلة لواجهات المعابد المصرية القديمة. لا بل إنها تبدو أكثر جمالاً، لأن المسلة تنسجم بصورة مثالية مع التصميم المعماري للمسجد. أنصحكم بالاستمتاع بهذا المنظر من متحف الأعمال الإسلامية، الذي كان في السابق قصر ابراهيم باشا.

بجوار المسلة يوجد أحد أعمدة المذبح البرونزي الضخم، المصنوع على شكل قِدْر، الذي قُدِّم عند معبد أبولو في دلفي في اليونان، كرمز للسلام بعد الحرب البيلوبونيسية، الحرب الأهلية الشهيرة في العصر اليوناني الكلاسيكي. كان في الأصل عموداً برونزياً مع تاج على شكل رأس أفعى. حسب علمي، إن رأس الأفعى، الذي سقط عن التاج، معروض في متحف اسطنبول للآثار. نُصِّب العمود الثالث من



قبل الإمبراطور قسطنطين، المعروف باسم قسطنطين بروفيروجينيتوس، والكلمة الأخيرة تعني "وُلد في اللون الأرجواني"، اللون الذي كان يرمز إلى الإمبراطورية البيزنطية. وكان قسطنطين هذا -الذي كان مولعاً بإقامة الاحتفالات المسرفة في الأبهة والعظمة، ونظَّم منها الكثير- قد أمر بتغليف العمود بالنحاس الأصفر كي يتلألأ كما الذهب. لكن صليبيي حملة العام 1204، أي الرعاع المتوحشون الوقحون الذين هبطوا على اسطنبول من أوروبا، قاموا بنزع الغلاف النحاسي، لاعتقادهم بأنه كان ذهباً، وأخذوه معهم. وفي هذا الخصوص، تساءل صديق لي من النمسا مازحاً: "من هم الأكثر غباءً وقلة ذوق؟ الأشخاص الذين نزعوا الغلاف، لظنهم بأنه من الذهب، أو أولئك الذين وضعوا الغلاف أساساً؟ من الصعب التحديد".

لقد اختبرت ساحة الخيول في العصر العثماني أنواع الأحداث نفسها التي شهدتها منذ العصر البيزنطي. وستنتهي المرحلة العظيمة والمبهرجة من تاريخ ساحة السلطان أحمد مع اجتماع جماهيري في العام 1919 طالبت فيه الكاتبة خالدة أديب أدوار بمقاومة الأتراك لاحتلال إزمير. واليوم تُعتبَر ساحة السلطان أحمد موقعاً سياحياً. ولكن، ينبغي لنا ألا ننسى أنها ليست فقط مجرد موقع سياحي، بل قلب الحضارة والتاريخ التركيين.

كانت هاجيا صوفيا ثمرة ثورة نيكا التي حدثت في العام 532، والسبب هو أن المتمردين الثائرين على الإمبراطور جوستنيان وزوجته ثيودورا كانوا يصيحون نيكا (وتعني، نصر) وفي الوقت نفسه كانوا يحرقون كنيسة خشبية تحمل اسم هاجيا صوفيا. والنصب التاريخي الذي نراه اليوم شُيِّد بعد أن أمرَ الإمبراطور جوستنيان بإعادة بناء هذه الكنيسة. وبقيت الكنيسة الضخمة، التي افتُتحت في العام 537، مكان العبادة الأضخم في العالم لمدة ألف سنة تالية، إلى حين بناء كنيسة

سـان بيير في كان، ومسـجد السـليمانية في اسـطنبول، الـذي تبعه بعد خمسـين عاماً إنهاء بناء مسـجد السـلطان أحمد الذي يقع بجوار هاجيا صوفيا. كان هذا المبنى مثار حسد وإعجاب جميع الأمم، المسيحية منها والإسـلامية. ومن خلال الأسـاطير الكثيرة المتعلقة به، حفر هذا المبنى التاريخي مكاناً له في حياة وتاريخ هذه الأمم.

ومـا يميِّـز هاجيـا صوفيـا هـو قبّتهـا الضخمة. لقد وُجـدت القبب الكبيـرة قبـل وقـت طويـل من هاجيـا صوفيا، ومعبد البانثيـون في روما يمتلك واحدة منها. لكن القبة الأخيرة تبدو مثل نصف تفاحة موضوعة فوق كأس، والتقنية المسـتخدمة في مثل هذا النوع من الفن المعماري أبسط بكثير من تلك المستخدمة في هاجيا صوفيا. ففي الحالة الأخيرة، نجح مهندسـان معماريان شـهيران، إسـيدوروس من تراليس وأنثيميوس مـن ميليتـوس، فـي دعـم القبة الضخمة بواسـطة أعجوبة مثلثة الشـكل، أي عبـر وضـع قاعدتهـا علـى أعمـدة. ورغم أنها تعرَّضـت لانهيار بعد وقـت قصيـر مـن بنائها، وأُعيد إصلاحها مرتين بعد ذلك، إلا أنها بقيت حتـى زمـن سـنان المعماري، وإلى يومنـا هذا، من دون الحاجة إلى أي إصلاحـات كبيـرة. وآخر الإصلاحات نفّذها الأخوة فوسـاتي الإيطاليين خلال حكم السـلطان عبد المجيد. في ذلك الحين، نُشـر كتاب يحوي الرسـومات الجصية القديمة الموجودة على القبة وفي أمكنة أخرى من المسـجد. ومـع أن القيصـر الروسـي كان قد عرض، كتابـةً، تمويل هذا النشـر، إلا أن السـلطان عبد المجيد هو الذي دفع التكاليف في الواقع. بل إن أول دليل شامل لهاجيا صوفيا -أي دليل الفن العلمي في هاجيا صوفيا- أُهدي للسلطان عبد المجيد خان.

كمـا ذكـرت سـابقاً، ظلـت هاجيـا صوفيـا دون مثيـل حتـى القرن السادس عشر، ولا يمكن أن يكون هناك شك في أنها حُوِّلت إلى مسجد من قبل الغزاة العثمانيين للمدينة. كل الشعائر، وطريقة الآذان، والخطب

فـي هـذا المسـجد تُنفَّـذ وفق طقـوس فريدة. من هنا تأتـي أهمية هاجيا صوفيـاً كمركـز دينـي. إن تحويل هاجيا صوفيا إلى متحف في ثلاثينيات القـرن الماضـي يمكـن فهمه على أنه يعكس رغبـة الجمهورية العلمانية الجديدة بتقديم صورة جديدة للمجتمع الدولي.

يعود سـبب إعادة تسـمية سـاحة الخيول بسـاحة السـلطان-أحمد إلـى حقيقـة أن السـلطان أحمـد الرابع عشـر، الذي تُـوِّج في عمر مبكر جداً وتوفي في سـن مبكر جداً أيضاً، أمر ببناء مسـجد السـلطان أحمد. وما يميز هذا المسـجد هو أنه يملك سـتة مآذن، الأمر الذي دفع بعض الأشـخاص إلـى إضافـة مئذنـة أخرى إلى مسـجد الروضـة المطهّرة في المدينـة المنـورة، موقـع قبر النبي محمد (ص). لكن مسـجد السـلطان أحمد هو التحفة الأخيرة في التاريخ المعماري العثماني.

عند الدخول إلى مسجد السلطان أحمد، ستلاحظون أن الدعوات للصلاة من مآذنه ومن مآذن المسـاجد المجاورة ترتفع بالتوالي واحدة بعـد الأخـرى، وسـتلاحظون أيضـاً كيف أنهـا تلتقي فـي النهاية معاً في تناغم رائع. وحتى مسـجد سـوكولو محمد باشـا، المعروف أيضاً باسـم مسجد الشهيد محمد باشا، الواقع خارج الساحة، على بعد مسافة قصيرة على طريق منحدر، يبدو متوافقاً مع النموذج المحلي.

شـهدت سـاحة السـلطان أحمد ثورات ونزاعات دموية، مثل ثورة نيكا وحوداث مشابهة في العصر العثماني. كما ذكرنا سابقاً، جلب وزير سـليمان العظيـم، إبراهيـم باشـا، الـذي كان يُسـمَّى حينئذ إبراهيم باشـا المفضَّـل (*Makbul Ibrahim Paşa*)، مـن بـودا فـي هنغاريـا مجموعة من التماثيل تمثّل شـخصيات أسـطورية تُدعى "الروعات الثلاث". أثار تنصيـب هـذه التماثيل أمام قصره الحجري أقاويل وتمرداً. هناك قصيدة اقتبسـها، وربمـا انتحلهـا، شـاعر عثمانـي فـي تلك الحقبة، مـن قصيدة للشـاعر الفارسـي الفردوسـي كان قد كتبها في محمود من غازنا (الذي

كان يحمـل اسـم إبراهيـم أيضـاً). من هذه القصيدة صـاغ فيجاني بيتين يغمز فيهما بوضوح من قناة إبراهيم باشا.

جاء إلى هذا العالم إبراهيمانِ
الأول حطَّم الأصنام، ونصَّبهما الثاني

أغضـب هـذا البيتـان إبراهيم باشـا كثيراً، ولعلهما كانا السـبب في مـوت فيجانـي. بحسـب علمـي، كانت هـذه الروعات الثـلاث التماثيل الوحيدة التي توضَع في ساحة مدينة إسلامية، رغم إمكانية إيجادها في القصور. على سبيل المثال، خلال حكم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، كانت هناك تماثيل مشابهة وقطع فسيفائية فيما يُعرَف اليوم باسم قصر هشام في جيريكو وكذلك في قصر دمشق، ويمكن رؤيتها أيضاً في المواقـع التاريخيـة بعيـداً عن القصور، ولكن لم يقم أي حاكم إسـلامي بتنصيب تمثال في ساحة مرة أخرى إلا في القرن العشرين.

من المثير للاهتمام أنه لا يزال هناك جدل اليوم حول طبيعة قصر ابراهيـم باشـا. هـل هو قصره بالفعـل أم مجرد بناء حجري كانت تُخزَّن فيـه الرايـات والطبول؟ هنـاك احتمال كبير أن يكون القصر يعود لرئيس الوزراء الشهير هذا، الذي أُعدم نتيجة غضب السلطان، فنزل بذلك من إبراهيـم باشـا المقبـول (*Makbul Ibrahim Paşa*) إلـى إبراهيـم باشـا المقتـول (*Maktul Ibrahim Paşa*). يُعتبَـر هـذا القصر اليوم واحد من أبـرز المتاحـف في أوروبا، وتُقـام فيه معارض ممتعة جداً بفضل جهود طاقم المتحف المكوَّن من الدكتورة نازان أولتشير وزملائها.

حافظت ساحة السلطان أحمد على وضعها في القرن التاسع عشر أيضاً. تخليداً لزيارة القيصر البروسي ويلهيلم إلى اسطنبول، بُنيت نافورة وفق الأسلوب الذي كان سائداً زمن حكم الإمبراطور البيزنطي موريك، وكذلك في ألمانيا والعالم الألماني. غير أن النافورة لا تناسب الساحة

أبداً، فهي لم تُبنَ لأسباب جمالية، وإنما نتيجةً لرؤية سياسية معينة – بسبب الخوف وشعور بالالتزام. في الحقيقة، ليس هناك أي تناغم بين هذه النافورة ونافورة السلطان أحمد التي تبعد عنها عدة أمتار فقط.

* * *

في هذه الأيام، تواجه ساحة السلطان أحمد، التي كانت ذات يوم محاطة بأبنية خشبية وأحياء آسرة، خطر خنقها بالإسمنت. ولكن، بسبب أهميتها السياحية، يحاول عدد من الماكرين حجب هذا الخطر عن المؤرخين والناس الذين يتمتعون بحسن الذوق من خلال وضع سور خشبي يخفي تلك الأبنية الشاهقة غير القانونية.

كل متر مربع من ساحة السلطان أحمد يجب استخدامه بحكمة وحمايته. وتبدأ حدود الساحة في الجنوب بجوار منطقة كاغالوغلو، المهمة لتجارة الكتب، وتمتد وصولاً إلى البحر. وفي الغرب، تمتد على طريق ديوانيولو حتى تصل إلى منطقة بيازيد المشهورة بساحتها وجامعتها وأبنيتها القديمة. لكننا نجد في هذه المنطقة أيضاً عدداً من الورشات المهنية، التي تجلب أعمالاً خاصة بالبناء وتسبب ازدحاماً مرورياً. وهذا يشكل خطراً على ساحة السلطان أحمد، الصالون المفتوح الأكثر جمالاً في أوروبا. يجب أن نفعل شيئاً لحماية هذه الساحة التي تضم أعمالاً فنية لا نظير لها من تاريخ يمتد على مساحة 1500 عام. لا توجد ساحة في أوروبا تبزّ هذه الساحة من حيث العراقة؛ لا سان ماركو في فينيسيا، ولا الكونكورد في باريس، ولا سان بيترو في روما.

الولايات المستقلة ضمن النظام الإداري العثماني

تُسمى السلطنة العثمانية أحياناً روما الثالثة، لأن حدود السلطنة العثمانية كانت تشبه كثيراً حدود الإمبراطوريتين الأولى والثانية. في الواقع، كانت أوسع منهما. إننا نعرف اليوم أن السلطنة كانت تمتد من الخليج شرقاً إلى حدود المغرب غرباً، ومن سهول أوكرانيا في الشمال إلى الصومال وأريتريا في الجنوب بعكس الاعتقاد العام الذي يقول إن الأجزاء الجنوبية كانت تصل إلى إثيوبيا. حتى حوض نهر الدانوب وصولاً إلى المجر والفرات في بلاد ما بين النهرين كانت تقع ضمن هذه الحدود. مع ذلك، فإن أياً من الكتب المدرسية أو المنشورات الأكاديمية لم تتطرق كثيراً إلى كيفية عمل نظام الولاية في هذه الأرض الشاسعة.

الفئة الأولى من الولايات هي تلك التي كان يُسيطَر عليها من خلال إرسال ضباط عسكريين وموظفين حكوميين ذوي روابط قوية مع الحكومة المركزية، بالتوازي مع نظام الإقطاعيات الصغيرة المتعلق بملكية الأراضي العثمانية. وكانت السيطرة تجري أيضاً من خلال دعم الاقتصاد الزراعي بشكل أساسي، في هذه الإقطاعيات. ومن الأمثلة على هذه الفئة الأولى من الولايات، سيفاس (التي كانت مقاطعة رومية في ذلك الحين) وكارَمان في منطقة الأناضول الأوسط، وبلغاريا التي كانت ذات مرة تابعة لروميليا، وتيميشوارا (في رومانيا اليوم)، وبودين (في هنغاريا اليوم).

أما الفئة الثانية من الولايات فكان لها دور جوهري في النظام

الإداري العثماني وحياة العثمانيين أيضاً. وتتألف من ولايات (كانت تُدعى الولايات الممتازة) تتمتع بنوع من الاستقلال ومنزلة مميزة، وهي مملكة القرم، ومملكة أرديل التي تتحدث اللغة الهنغارية والواقعة في الجزء الغربي من رومانيا المعاصرة، ووالاكيا (أرض الفلاكيين)، وأخيراً بوغدانيا، التي تشكل اليوم جمهورية مولدوفا. تضم مملكة القرم الجزء الغربي بأكمله من الولايات القوقازية، حيث كان كازاخيو كوبان (*Kuban Kazakhs*) يعيشون أيضاً، بالإضافة إلى المناطق الجنوبية من أوكرانيا. كانت مملكة القرم شبه المستقلة تقع نوعاً ما على شبه جزيرة القرم، لكن جزءاً كبيراً من شبه الجزيرة لم يكن ينتمي للمملكة بل كان تابعاً مباشرةً للحكومة المركزية العثمانية. وهذه الأرض تُسمَّى مقاطعة كَفَه، وهي تمتد إلى سوداك ويالطا في الجنوب وبحر أزاك في الشمال.

وعندما نتحول إلى الولايات الجنوبية، فإننا نأتي إلى دولة مصر الضخمة، الولاية التي كانت تمتلك منزلة مثيرة للاهتمام. وهناك منطقة الحجاز التي كانت تُحكَم بطريقة خاصة، بسبب قربها من المدينتين المقدستين، مكة والمدينة. فبالمقارنة مع الولايات الأخرى في السلطنة، لم تكن الحجاز تجلب أي دخل، لا بل إنها كانت تتطلب نفقات إضافية. ففي بعض الأحيان، وبسبب قلة الحرفيين المؤهلين المحليين ونقص المواد، كان يصعب بناء سور حول قبر أو بناء أو إصلاح نافورة أو سبيل ماء للحجاج مما يضطر السلطات لإرسال الحرفيين ومواد البناء إلى المنطقة من أماكن أخرى. مثل هذه العملية كان يمكن أن تستنفد كل العوائد الجمركية السنوية لأحد الموانئ في الغرب. كما أن جزءاً من الدخل الآتي من ولاية مصر الغنية كان يُرسَل إلى هذه المنطقة للمساهمة في تحسين شروط عيش سكان مكة والمدينة والمساعدة في بناء وصيانة المساكن هناك. كل هذه المساعدة، بالطبع، كانت تهدف إلى إبراز صورة

معينـة. الـدول الحديثـة أيضـاً تقـوم بهذا النوع من الاسـتثمارات، حيث تُرجَّح الاعتبارات السياسية على الاقتصادية منها. على أي حال، كانت السـلطنة العثمانيـة تولي أهمية كبرى لسـيادتها علـى الحجاز. في القرن السـادس عشـر، عندما أصبحت السـلطنة العثمانية تمتلك خاصية القوة العالمية بحق، فضَّل السـلطان سـليم، الذي غزا هذه المناطق، اسـتخدام لقب خادم الحرمين الشريفين، بدلاً من لقب خليفة. وكان اللقب الأول يُستخدم فـي خطـب صـلاة الجمعة. وهذا يتطابق مـع كلمة الرعاية في المسيحية الغربية. كما نعرف جميعاً، لم تستطع الدول المسيحية الغربية السيطرة على القدس إلا لفترة قصيرة فقط، ومع ذلك فهي أعارت أهمية كبيرة لرعايتها على المدينة، وفسَّرت حمايتها وخدمتها للقدس على أنها مهمة ربّانية شـريفة. بعبارة أخرى، إن عبارتي خادم الحرمين الشـريفين والرعاية تُظهران تشابهاً جديراً بالاهتمام.

كمـا هـو معلـوم، خلال ذلك الزمن الذي نناقشـه، كانت المدينة مجـرد مدينـة ريفيـة لا يتجـاوز عـدد سـكانها بضع آلاف، مـع موارد اقتصاديـة محـدودة جـداً. في حين كانت مكة، بلا شـك، مركز العالم الإسـلامي بأسـره. لم يكن المسـؤولون الذين خدموا كحكام لهاتين المدينتيـن يُدعَـون بصفتهـم الوظيفيـة بـل كانـوا يُعطـون ألقابـاً مثـل شـيخ المدينـة. وبالطريقـة نفسـها، كان قضـاة مكـة والمدينـة (وكانوا يُدعـون *haremeyn mevleviyyeti*) يتمتعـون بموقـع رفيع جداً ضمن البروتوكـول. وبرهانـاً علـى ذلـك، كان من غير العـادي إلى حدٍّ بعيد أن يُعيَّـن فـي منصـب كبير قضاة اسـطنبول رجل لـم يكن قاضي مكة أو المدينة في السابق.

إذاً، كان الممثلون العثمانيون في مكة والمدينة يُعتبَرون مسؤولين رفيعـي المسـتوى ويحملـون ألقابـاً مميـزة. علـى سـبيل المثـال، كان الموظفـون المسـؤولون عن حمايـة وإدارة مياه بئر زمزم يحظون بموقع

رفيع جداً ضمن طبقة العلماء. لقد حافظت ولاية الحجاز على مكانتها حتى نهاية القرن التاسع عشر، لا بل حتى سقوط السلطنة. وللدلالة على ذلك، يمكننا أن نذكر الخط الحديدي الذي أنشأه السلطان عبد الحميد خان الثاني من دمشق إلى المدينة، والذي لعب فيه المهندسون والعمال الأتراك دور رئيساً. في الواقع، كان هذا المشروع محركاً جوهرياً في تطور التاريخ التقني التركي. أما الأموال التي لزمت لبنائه فقد جاءت عبر تبرعات خيرية من مسلمين ضمن حدود السلطنة العثمانية وخارجها، وكان الواهبون يُمنَحون ميدالية الحجاز لقاء مساهمتهم هذه.

لقد قاوم فخر الدين باشا البريطانيين والعرب في هذه المنطقة مدة خمسة أشهر بعد هدنة مودروس عند نهاية الحرب العالمية الأولى. كما نجح في إعادة البقايا المقدسة إلى تركيا.

في الجنوب، كانت مصر، من دون أدنى شك، المنطقة التي مكَّنت السلطنة من بسط سيطرتها على البحار وإظهار عظمتها، فضلاً عن الثروة الكبيرة التي كانت تقدمها. وكانت مصر، في السابق أيضاً، بمثابة الجوهرة في تاج الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، اللتين لم تستطيعا الاستغناء عنها أبداً. وما إن فقد البيزنطيون مصر حتى بدأوا في طريق الانحطاط، والأمر نفسه ينطبق على السلطنة العثمانية أيضاً.

أولاً، كانت مصر مصدراً وفيراً للحبوب. ثانياً، كانت قاعدة عظيمة لمراقبة المنطقة الإقليمية المحيطة بها. وثالثاً، كانت تقدم الكثير للسلطنة من الناحية المالية. يشدد المؤرخون دائماً على أن الإمبراطورية الرومانية لم تصبح إمبراطورية بمعنى الكلمة إلا عندما احتل يوليوس قيصر مصر، وأن يوليوس قيصر لم يتمكن من تأسيس الخزينة إلا بعد أن عرف كيف كان يُطبَّق النظام المالي والضريبي في مصر.

بعد نصر الريدانية في نيسان 1517، حوَّل السلطان سليم مصر إلى ولاية وألحقها باسطنبول. ثم قسَّم هذه الولاية الغنية إلى سبع

عشـرة مقاطعة، ووضع ثلاثاً منها -الإسـكندرية ودمياط ورشـيد- تحت سـلطة جـزر البحـر المتوسـط، وهـذا يعنـي، عملياً، أن الدخـل الوارد مـن هـذه المقاطعـات كانـت تُعطـى لأدميـرال الأسـطول. وكان سـبب إعطـاء المقاطعـات الثـلاث هذه المنزلة الخاصـة هي أنها كانت مصادر آمنـة ووفيـرة للحبـوب والدخـل، وتحوي قواعـد عسـكرية وتُعتبَر قيمةً استراتيجيةً كبرى للقوة البحرية. وقد نصَّ "قانون ياووز سـلطان سـليم خـان" علـى أن تُـدار المقاطعات الأربع عشـرة الأخـرى من قبل حكّام مماليـك محلييـن شـريطة أن يتحدثوا اللغة التركيـة. في الواقع، بعضهم كان من أصل تركي أو جركسـي. وللإشـراف على كل واحد من هؤلاء الحـكّام، جـرى تعييـن خـازن بيت المـال (دفتردار) بمنزلـة *beylerbey* (ويعنـي حرفيـاً بيـه البهـوات) ودرجة وزير. في هـذا الخصوص، يجب أن نتذكر أن رتبة خازن بيت المال المناطقية كانت مهمة ضمن الإدارة الماليـة للسـلطنة، وأنـه كان يتوجـب على الدفتـردار أن يكون خبيراً في الحساب وإدارة الموارد.

كان كبيـر قضـاة مصـر يحظى بمنزلة خاصة، وكان يجب أن يكون زعيـم مذهـب مختلـف عـن معظم زملائـه. وهذا لأن غالبية المسـلمين المصريين كانوا ينتمون للمذهب المالكي في حين أن عدداً قليلاً منهم كانـوا ينتمـون للمذهـب الحنفي الذي كان سـائداً فـي المركز العثماني. وبهـذه الطريقـة يصبـح بمقـدور كبيـر القضاة الحفاظ علـى هيمنته على القضاة المحليين.

كانـت مهمـة والـي مصر تتمثل في إنفاق العوائد التي يجمعها من مصر عليها. ولهذا السبب، لا تزال هناك الكثير من بقايا التأثير العثماني فـي مصـر. كمـا كان يرسـل حصة معينة من المـال (*Cib-i Hümayun*) إلى اسطنبول من أجل نفقات السلطان الشخصية. انتهى الحكم العثماني لمصر مع ضم بريطانيا لمصر خلال الحرب العالمية الأولى واسـتبدال

الخديوي[17] العثماني-المصري عباس حلمي باشا بالسلطان كمال ومن بعده الملك فؤاد، الذي ينتمي لفرع عائلي مختلف عن سَلَفه. ولكن، حتى ذلك الحين، كانت مصر ما تزال جزءاً من الدولة العثمانية.

بسبب الغنى الذي كانت تتمتع به مصر، أظهرت في القرن التاسع عشر رخاءً واضحاً ونمط حياة بورجوازي امتد إلى العاصمة العثمانية نفسها. خلال العصر الكلاسيكي، كانت مصر منطقة بالغة الأهمية بالنسبة إلى العثمانيين بسبب ثرائها. وكانت هذه الولاية تعيِّن شخصاً مسؤولاً عن الإشراف على طرق الحج إلى مكة، وكان مقرُّه في السويس ويُسمّى الأمير المصري على طرق الحج -لقب مشابه للقب والي سوريا.

يعني هذا أن الشؤون المتعلقة بالحج كانت تُدار من مصر. وكان يُقتطَع من ميزانية مصر أربع وعشرون مليون فلس -تشكل جزءاً كبيراً من الميزانية- من أجل النفقات المتعلقة بمكة والمدينة. ولولا الحبوب والأرز التي كانت تُرسَل إلى الحجاز من مصر، لأصاب الجوع سكان الحجاز. أضف إلى ذلك أن مصر كانت من بين الولايات التي ترسل مبالغ سنوية إلى مركز السلطنة.

أما الولايات الهامة الأخرى فهي والاكيا، وبوغدانيا، وأرديل، وأخيراً مملكة القرم. كان السلطان محمد الفاتح، المؤسس الفعلي للسلطنة، هو من ابتكر فكرة الولايات ذات الامتيازات الخاصة، وهو من نفَّذها على أرض الواقع أيضاً. دعونا نتحدث قليلاً هنا عن والاكيا وبوغدانيا. تشكل والاكيا الجزء الجنوبي من رومانيا الحالية، أي المنطقة المحيطة ببوخارست وتارغوفيست. في حين أن بوغدانيا هي جمهورية مولدافيا اليوم، لكنها كانت مقاطعة نمت حول مدينتي سوجيفا

(17) ملاحظة المترجم: يعني لقب الخديوي "الأمير الوصي" ويشير إلى والي مصر شبه المستقل، وبدأ استخدامه بعد الثروة التي قام بها محمد علي باشا، حاكم مصر، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

وإياشي في شمال رومانيا. لا بد أن السكان في هاتين المقاطعتين كانوا يتحدثون لغتين مشابهتين للغة الرومانية، اللغة الحية الأقرب إلى اللاتينية القديمة. قبل الغزو العثماني، كانت بوغدانيا، التي كانت واقعة تحت الحكم البولندي؛ ووالاكيا، التي كانت محكومة من قبل مملكة المجر، مجرد دولتين صغيرتين هامشيتين، لكنهما أصبحتا تحت الحكم العثماني دولتين شبه مستقلتين يحكمهما حاكمان محليان (*voivodes*) معيَّنان من قبل العائلات الأرستقراطية المحلية.

عندما نتأمل في التطور الثقافي للأمة الرومانية واتجاهها نحو الاستقلال، فإننا سنجد بوضوح أن سنوات الحكم العثماني في والاكيا وبوغدانيا لعبت دوراً جوهرياً. وفي هذا الخصوص يقول نيكولاي يورغا، وهو مؤرخ روماني شهير ووزير سابق للشؤون الخارجية، إن السيادة العثمانية على هاتين المنطقتين حالت دون غرق هذا المجتمع اللاتيني في بحار السلافيين والجرمانيين المحيطة به ومكَّنته من مواصلة مساره التاريخي. ولهذا السبب، بحسب يورغا، فالرومانيون مدينون للعثمانيين. ويجب التنويه أيضاً إلى أن حاكماً شهيراً -في زمن السيادة العثمانية- يُدعى قسطنطين برانسيفارو، أسهم في النهضة اللاتينية والهيلينية من خلال تأسيس الأكاديمية اللاتينية اليونانية السلافية. لكن القيصر الروسي بطرس الكبير أقنع الأمير البوغداني ديميتري كانتيمير، الذي كان أسيراً في اسطنبول قبل العام 1711، بالقتال ضد العثمانيين، وخيانته هذه أدّت إلى تسليم بوغدانيا ووالاكيا إلى حكام أرستقراطيين روم.

كان أوائل الحكام الأرستقراطيين الروم ينتمون للعائلة التركية-اليونانية البارزة، عائلة ماوركورداتو، التي كانت تعرف ديميتري كانتيمير أثناء وجوده في اسطنبول. في هذه الفترة تطورت الثقافة الرومانية. مُنحت ولايتا بوغدانيا ووالاكيا المزيد من الاستقلال إلى أن توحّدتا في العام

1859 وشكّلتا إمارة رومانيا المستقلة إلى حدٍّ ما، حيث كانت بوخارست عاصمة لها وكان أميرها أشبه بملك. خلال الحرب الروسية-التركية، تحالفت هذه الإمارة مع القيصر الروسي ألكسندر الثاني.

في العصر الكلاسيكي من التاريخ العثماني، كانت هاتان الولايتان ترسلان عدداً معيناً من الجنود إلى الجيش العثماني وتساهم بمبالغ سنوية أثناء الحروب في أوروبا. وبعيداً عن هذا، فقد كانتا تزودان اسطنبول باللحوم المذبوحة، وخاصة الأغنام، وترسلان القمح من دوبرودجا إلى متعاقدين مختارين وفقاً لنظام الاحتكارات الإلزامية. ولم يكن ممكناً لأي حاكم لهاتين المنطقتين أن يبقى في منصبه إذا لم يثبت قدرته على تأمين هذه البضائع.

وهكذا، برزت من هاتين المقاطعتين الشماليتين شبه المستقلتين دولتان بلقانيتان لا تزالان اليوم مقربتين سياسياً وروحياً من تركيا. وبعيداً عنهما، كانت هنالك أيضاً إدارات مستقلة في دوبروفنيك وأرديل ومملكة القرم وشامخالات كوموك في القوقاز، التي كانت بشكل أساسي تحكم قبائل معينة. ولكن، رغم أن هذه الكيانات السياسية كانت تتمتع بمكانة شبه مستقلة، إلا أن الحكومة العثمانية لم تكن تقبل أي مساومات فيما يتعلق بالشؤون العسكرية والخارجية. وهذا أدى عملياً إلى وحدة السلطنة وساعد في تشكيل بنيتها.

الآثار العتيقة

(Asar-ı Atıka)

ليس هناك شـك في أن أحد أهم مظاهر الثقافة التركية يكمن في غنـى البلـد بالآثـار العتيقـة (*asar-ı atıka*)، أو بكلمـات أخرى، القطع الفنيـة والآثـار التاريخيـة القديمـة. بالفعل، تُعتبر تركيـا واحدة من أغنى البلدان فيما يتعلق بكمية التحف الفنية التاريخية التي تحويها. إن أعمال التنقيب التي تجري اليوم في الصين أو مصر أو إيطاليا تكتشف من دون أدنى شـك أشـياء مذهلة، ولكن مع ذلك، فإن تركيا ربما تكون الرائدة في هذا الميدان ليس بسبب عدد تحفها القديمة وحسب، وإنما لتنوعها المدهش أيضاً.

ظهرت أولى المستوطنات في تركيا في المرحلة النيوليثية (المرحلة الأخيرة من العصر الحجري) من الحضارة، التي دامت حتى 8000 قبل الميلاد تقريباً. كما نعلم جميعاً، كانت مسـتوطنة تشـاطلهويوك أهم هذه المستوطنات، والحفريات التي أُجريت هناك أثارت اهتمام العالم بأسره. واليوم إن الأشياء التي اكتُشفت في هذه المستوطنة محفوظة ومعروضة في متحف الحضارات الأناضولية في أنقرة، الذي يُعتبَر مركزاً هاماً بحق.

غالبيـة المـواد التاريخيـة والآثاريـة المكتَشـفة في تركيـا تعود إلى المرحلـة التـي تلـي العصـر البرونزي وما بعد العـام 2000 قبل الميلاد، عندما بدأ استخدام الكتابة. وتنوُّع هذه التحف الثمينة مدهش فعلاً. لقد أظهرت الحضارات التي جعلت من تركيا موطناً لها خصائص وأساليب

شـديدة الاختـلاف، ففـي بعـض الأحيـان كان نمط إحـدى الحضارات الأناضوليـة مناقضـاً قطرياً لنمط حضارة أخرى. إن الثراء واللون اللذين جلبتهمـا المرحلـة الكلاسـيكية فـي اليونـان القديمة والمرحلـة الهيلينية والعصر الروماني إلى هذه الأرض واضحان لجميع من يرى.

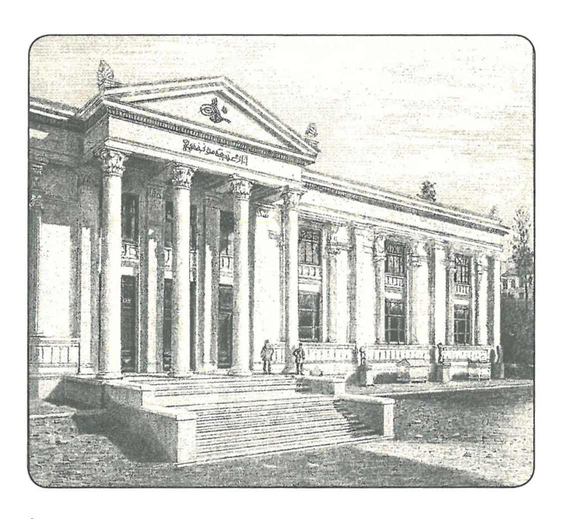
كانـت تركيـا مركـز الإمبراطوريـة البيزنطيـة وموطـن الحضـارة السـلجوقية. وهنـاك أيضـاً بقايـا جورجيـة وأرمنية في شـرق الأناضول. لكن المرحلة الأشد أهمية وتأثيراً في تاريخ تركيا الطويل هي المرحلة التي ندعوها عصر \الإقطاعيات التي دامت ألف عام. وينبغي لنا ألا ننسى أن الأجزاء الأهم في السلطنة العثمانية كانت تقع في هذه الأراضي.

تديـن تركيـا بثرائها في المـواد التاريخية ليس فقط لوجود المعالم التاريخيـة وحسـب، مثـل الخانات وأماكـن العبادة والأسـواق المغطاة، وإنمـا أيضـاً لعـدد لا يُحصَ من التحف التاريخيـة التي تعكس المظاهر المتنوعة للحياة اليومية، وحتى لمقابرها العديدة أيضاً. ولكن، لا شـك فـي أن هـذا الغنـى يجلب معه مشـاكل كبيرة، وما لم نطـور إدراكاً أكثر نضجاً للتاريـخ والتحـف الفنية التاريخية، يفـي حق هذا الثراء التاريخي المحيـط بنـا، فإن هذه المشـاكل سـتتفاقم. والعكـس صحيح أيضاً، فإذا وقـف المواطنـون الأتـراك إلـى جانب إرثهـم القيِّم، فإن هذه المشـاكل ستقل حتماً.

من المسائل التي أود تسليط الضوء عليها هي أنه خلال الأزمنة العثمانية، لم نجد أحداً يقدِّر قيمة المعالم التاريخية للعصر الكلاسيكي، الأمر الذي أدى إلى تخريبها. وهذا النوع من التخريب لم يدمر الأشياء القيِّمـة وحسـب، وإنمـا دمَّـر إدراكنا لها أيضاً. وإضافـة إلى ذلك، قام بعض الأوروبيين باستئصال وانتزاع وسرقة هذه الأعمال الفنية القديمة، وكأن مهمتهم الحضارية أعطتهم الحق لفعل ذلك. والأنكى من ذلك هـو أن هـذه الأفعـال بُـرِّرت، ولا تـزال تُبـرَّر، مـن قبـل الناهبين، أي

الأوروبيين، وبعض الأتراك أيضاً. لكن هذا خطأ. إن لحماية التحف العتيقة تاريخ مؤسف في بلدنا، لذا فإن ما يجب القيام به بشأنها مسألة خلافية بعض الشيء. لا بل إن المشكلة تبدو غير قابلة للحل. مع ذلك، ينبغي لنا ألا ننسى أن إيطاليا نفسها، حجر الزاوية في الحضارة الأوروبية الحديثة، لا يمكنها حماية معالمها التاريخية، لأن إيطاليا أيضاً، رغم خبرة سلطاتها، تجد نفسها عاجزة أمام ذهنية اللصوص وهواة جمع الأشياء الثمينة. وبالمقابل، تملك إسرائيل -رغم أنها بلد أصغر حجماً- وعياً تاريخياً متقدماً جداً وحساً وطنياً قوياً، حيث رفع الإسرائيليون علم الآثار إلى مرتبة رياضة وطنية. ولهذا السبب، نجد أن تهريب التحف التاريخية في إسرائيل ضئيل جداً، لأن هذه الأشياء محفوظة ومحمية بطريقة فعالة.

ومصر أيضاً، مثل تركيا، بلد معرَّض بشكل خاص لتهريب التحف التاريخية العتيقة ولأعمال تنقيب غير قانونية، بالرغم من وجود إدراك قديم لأهمية هذه التحف. وليس مصر وحدها تعاني من الجرائم التي تُرتكَب على أرضها، إذ إن معرفة العالم بأسره بحضارة مصر القديمة مهددة أيضاً. وهذا لأن المهرِّبين وأولئك الذين يساعدون بعض الأشخاص على بناء مجموعاتهم الخاصة من التحف العتيقة المهرَّبة ينقلون هذه التحف من حقل الدراسات الأكاديمية. إن القطعة المعروضة في حديقة أو منزل هذا الشخص أو ذاك تصبح بعيدة عن منال العالم الأكاديمي، كما أن التحف الموجودة في هذا الوضع يمكن أن تختفي بسهولة من دون أن تترك أثراً. في مقالة نُشرت في إنترناشيونال هيرالد تريبيون، قالت سورين ملكيان إن القطع الشرقية القديمة، حتى في مراكز مهمة مثل كريستيز أوكشينيرز، موجودة في حالة من الفوضى الفظيعة، لدرجة أن بعض الطاسات المأخوذة من نيشابور، والمنقوشة بأشعار للفردوسي (شاعر فارسي مهم) تختفي واحدة بعد الأخرى.



لقد أصبحت بعض القبور التي تعود إلى المرحلة العثمانية هدفاً شائعاً للنهب من قبل بعض السوّاح الطائشين وحتى بعض المخربين المحليين، من دون ذكر جامعي التحف التاريخية المفرطي الثراء. لا يمكنكم أن تتخيلوا حقاً كم فقدنا من المعلومات البيوغرافية المتعلقة بالتاريخ العثماني نتيجة سوء التصرف وسرقة القبور.

في الواقع، بوسع تركيا أن تنظر إلى إرث مثير للإعجاب فيما يتعلق بالاهتمام بالعالم القديم. هنا إنني لا أتحدث عن أوليا جلبي، الذي سافر إلى مصر ووصف أهراماتها، مع أنه كان عبقرياً وبارعاً في اكتشاف ووصف الأشياء. ولكن، لا بد أن نعترف أن المعرفة حول الحضارة المصرية في القرن السابع عشر كانت ترتكز على بضع أجزاء معزولة، وهذا كان ينطبق على جلبي كما كان ينطبق على العالم بأكمله.

والسبب هو أن أعمال الحفر والفحص العلمي للقطع القديمة لم تكن قد بدأت بعد في مصر، والأهم من ذلك، هو أن أحداً لم يكن قد حاول أن يفك شيفرة الكتابة المصرية الشهيرة المعروفة بالهيروغليفية.

كما نعلم جميعاً، كان الجنرال بونابرت هو الذي بدأ أعمال التوثيق العلمي في مصر عندما وصل إليها برفقة جيش من النقّاشين الذين أنتجوا نقوشاً ضخمة من دون استخدام التصوير. بعد نجاحه في احتلال مصر، جلب الجنرال بونابرت، الذي سيصبح لاحقاً الإمبراطور نابوليون، لجاناً من العلماء إلى مصر، وطلب منهم أن يرسموا حيوانات ومزروعات مصر، إلى جانب آثارها التاريخية، بطريقة ممنهجة. كما أطلق أولى البعثات الاستكشافية العلمية الضخمة. بالقرب من الإسكندرية، وجد أحد ضباطه حجراً منقوشاً بارتفاع 50 سنتمتراً عند فم ما يسميه الأوروبيون دلتا روزيتا، والتي تُعرَف اليوم باسم دلتا الرشيد. نُقش على هذا الحجر نص بثلاث نسخ، الأولى بالهيروغليفية، والثانية بالإغريقية القديمة، والثالثة بالديموطيقية (*Demotic*)، اللغة القبطية المحلية المكتوبة بأحرف يونانية حديثة.

لقد منح هذا الاكتشاف شامبوليون الفرصة لفك شيفرة الهيروغليفية، وبذلك قدّمت مصر نفسها للعالم الخارجي بكل عظمتها المذهلة. ولأن مثل هذا الاكتشاف لم يحصل خلال حكم العثمانيين في مصر -لم يكن هناك اهتمام بهذا الخصوص في ذلك الحين- فإننا لا نملك إمكانية للوصول إلى أي معلومات حول مصر القديمة من المرحلة العثمانية. بالمقابل، في الفترة التي تلت فقدان العثمانيين لسيادتهم على مصر، حصل هنري ليارد -سفير في اسطنبول- على كمية كبيرة من المعلومات حول الحضارة الآشورية من خلال البحث وأعمال التنقيب التي أجراها. في ذلك الزمن، أي في القرن التاسع عشر، لم يكن هناك شيء اسمه علم آثار أو أعمال تنقيب في السلطنة العثمانية. وهنا، ينبغي لنا أن نتذكر

أن المـرة الأولـى التـي سـمع فيها العثمانيون بورقة القـات، التي تُمضَغ وتُستهلَك في اليمن خصوصاً، كانت في القرن التاسع عشر. وهذا يعني أن استكشـاف الأراضي العثمانية لأغراض جغرافية وتأريخية كان شـبه معدوم ولا يمكن مقارنته بسـعي الأوروبيين، أو حتى الروس، في هذا المجال.

هـذا لا يعنـي بالضـرورة أنـه لم يكن هناك أحد يعرف أي شـيء. فقد أبدى البعض رؤية رائعة للماضي. فعلى سبيل المثال، أجرى أوليا جلبـي فحصـاً دقيقاً جـداً لبقايا الحضـارة المنونية-الميسـينية (*Mioan-Mycenaean*) في جزيرة كريت وتوصل إلى نتائج مثيرة للاهتمام. قال جلبي: "جاء هؤلاء الناس من أفريقيا وكانوا من قبيلة دجينز (*Djinns*)." فيما يبدو، لقد استطاع هذا الرجل، بفضل ذكائه المدهش وقدرته على المقارنـة، أن يجـد علاقـة بيـن الفـن الكريتـي والمصري. ومـع أن هذه المسـألة لا تزال مغلفة بشـيء من الغموض، ولكن هناك إمكانية كبيرة أن يكون الأشخاص الذين بنوا الحضارة الكريتية قد هاجروا إلى هناك من مصر، ادّعاءُ تدعمه دلائل أخرى أيضاً.

في القرن التاسـع عشـر، خلال مرحلة التنوير التركية التي ندعوها التنظيمـات، بـدأ الاهتمام باستكشـاف الماضي، وفي العام 1847، حوَّل المشير فتحي أحمد باشا كنيسة سانت أيرين إلى متحف عسكري. وفي العـام 1869، أنشـأ رئيـس الـوزراء المثقـف، أمين علي باشـا، المتحف السـلطاني الأول. فـي الواقـع، كان النـاس قد بدأوا منذ سـنوات طويلة بإرسال التحف التاريخية القديمة من جميع أنحاء السلطنة إلى المركز. علـى سـبيل المثـال، أمَـرَ حاكم القدس في 1847 برسـم قبر من الرخام وحجـر السـماق، وُجـد فـي عسـقلان في منطقة غزة، وإرسـال الرسـم إلى اسـطنبول. ومع أن هذا الرسـم لا يحمل قيمة علمية، ولكن ينبغي لنـا أن نكـون شـاكرين لوجـود هذا الرسـم البدائي في الأرشـيف. وهو

يحوي ملاحظة موجّهة لرئيس الوزراء تقول: "هل يمكننا أن ننقله إلى العاصمة؟" يبدو أن الرسم كان لا يزال موجوداً في القدس ولم يُنقَل إلى اسطنبول بعد -لكن عمليات النقل هذه كانت تحدث بالفعل. وفي تشرين الأول من العام نفسه، طلب المدير المالي لمحافظة أضنة، أحمد عطا بيه، بجمع عدد من الآثار التاريخية القديمة وإرسالها إلى اسطنبول. إن الدراسات التاريخية التي أُجريت على هذه المرحلة تكشف أن عدداً كبيراً من الأعمال الفنية أُرسلت إلى المتحف السطاني.

في 1827، عيَّن أحمد وفيق باشا، رئيس الوزراء المولع بالمسرح، والذي كان محافظاً أيضاً، عالم الآثار الألماني ديتهير كمستشار علمي في المتحف. والجرد العلمي الوحيد للقطع الموجود في هذا المتحف يعود إلى تلك الفترة. في العام 1880، أُسِّس متحف يُعرَف اليوم باسم تشينيلي كُشك، وهو منزل كبير من عهد السلطان محمد الفاتح، ويقع في حديقة متحف الآثار. ونُقلت الأسلحة المخزنة في متحف سانت أيرين إلى هذا المتحف. وإضافة إلى ذلك، أصدر صبحي باشا تعليماته حول الآثار العتيقة (*Asar-ı Atika Nizamnamesi*) المؤلّفة من 36 فقرة.

ثمة نقطة أخرى ينبغي التشديد عليها، وهي أنه جرى تخصيص حيز كبير للآثار التاريخية للمناطق المختلفة في التقاويم السنوية الحكومية والكتب السنوية المناطقية التي بدأت تُنشَر في ذلك الزمن تقريباً. على سبيل المثال، في الكتب السنوية الخاصة بمحافظة آيدن، التي تغطي إزمير ومانيسا ودانيزلي ومنطقة موغلا الحالية، تُسرَد قصة بيرغامون وإفيسوس بأسلوب مشوِّق للغاية. ويتضمن الكتاب السنوي أيضاً وصفاً ممتازاً لمذبح بيرغامون، رغم ما يُقال أحياناً أننا لم نكن نفهم المذبح ولهذا السبب أعطيناه للألمان. والحقيقة هي أن الألمان كانوا يريدون الحصول على المذبح وحاولوا تفكيكه ونقله لكن محافظ

إزمير لم يسـمح لهم بذلك. ولكن، يبدو أن المذبح سُـلِّم إليهم لاحقاً عقب مفاوضات على مستوى الحكومتين. في هذه الحادثة، من الواضح أن ألمانيا استغلت علاقتها الجيدة مع العثمانيين. وقد طالبوا أيضاً بقبر الإسـكندر الرخامي، لكن المسـؤولين العثمانيين رفضوا تسـليمه إليهم. يُقال إن عثمان حمدي بيه، مدير المتحف في ذلك الحين، غضب بشدة بشـأن المذبـح لدرجـة أنه تعـرَّض لنوبة قلبية خفيفة. لسـوء الحظ، لقد استجاب الإداريون العثمانيون بإيجابية مرة أخرى مع السفير النمساوي بارون بروكيش فون أوسـتن خلال حرب القرم: لقد اكتشـفت شـخصياً أن بعض القطع النقدية ذات القيمة التاريخية أُعطيت للسفير النمساوي، كنوع من الرشوة المتأخرة، جزاء وقوف بلاده على الحياد في الحرب. هذا هو الثمن الذي كان يجب دفعه من أجل الحفاظ على حسن العلاقة بين البلدين.

هنـاك دليـل موثـق على أن ولي العهد الروسـي تلقَّى نقشـاً أعجبه كهدية خلال زيارته إلى تشانكاله، في حين جرى نقل غطاء أحد القبور الحجرية في مسـجد نور العثمانية سـراً إلى مكان آخر ثم أُعطي للسـفير البريطانـي. مثـل هـذه الحـالات تُظهر لنا أن تاريخ علم الآثار لم يُدرَس بطريقة جدية بما يكفي.

هـذه بعـض الأسـباب التي دعت عثمان حمدي بيـه في ثمانينيات القرن التاسـع عشـر إلى إصدار تعليماته الشـهيرة، التي كانت حازمة في عزمهـا علـى منـع تهريب الآثار التاريخية. بعـد تعيين عثمان حمدي بيه مديراً للمتحف من قبل السلطان عبد الحميد خان في العام 1881، بدأ العمل على بناء متحف السلطنة، الذي يقع تحت قصر توبكابي مباشرةً، أعلـى بقليـل مـن حديقة غولهانـه. وهو الآن يحتضن متحف اسـطنبول الآثـاري الرائـع. لقـد صممه مهندس معماري إيطالي شـهير (مولود في اسـطنبول) -ألكسـندر فالوري- على شـكل قبر النسـاء الباكيات، الذي

كان عثمان حمدي بيه قد اكتشف نسخته الأصلية في صيدا. كان فالوري عاشقاً للقبور الحجرية وخبيراً بها. وقد سار الإيطالي الآخر دارونكو على خطى فالوري بتصميمه السفارة الإيطالية السابقة (معهد ماتشكا الفني للبنات اليوم) على شكل أحد قبور عصر النهضة.

كان عثمان حمدي بيه رساماً وعالم آثار عثمانياً هاماً أجرى أعماله التنقيبية في مناطق تقع الآن في سوريا ولبنان، واشتُهر لما حققه من اكتشافات. لقد درس في فيينا وباريس ثم خدم في مجلس محافظة بغداد كجزء من فريق المحافظ مدحت باشا. صحيح أننا مدينون للفيلسوف وعالم اللغات الفرنسي إرنيست رينان لتدقيقه في، وإعادة اكتشافه لـ اللغة الفينيقية، إلا أننا يجب أن نكون مدينين أيضاً لعثمان حمدي بيه لتعريفنا بالمظاهر المادية للحضارة الفينيقية، لأنه هو الذي نقَّب وقدّم لنا مقبرة صيدا، أو بكلمات أخرى، مقبرة الملوك.

لقد درَّب عثمان حمدي بيه خبراء مثل عزيز بيه وتحسين أوز، الذي خدم كمدير لقصر توبكابي بالإضافة إلى ترؤسه أعمال تنقيب في إيفيسوس. وجاء بعد عثمان حمدي بيه كمدير للمتحف السلطاني خليل أدهم بيه. يحتل هذا الخبير الشهير في العملات التاريخية موقعاً هاماً في تاريخنا، فبفضله أُجريت أعمال التنقيب في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بالتوازي مع الإصلاحات التي أُنجزت في حقل التعليم. حدثت بعض هذه الحفريات خلف حدود تركيا الحالية والاكتشافات التي وُجدت فيها وفي أماكن غيرها معروضة الآن في متحف اسطنبول للآثار. لم تعد تركيا بلداً يستمر فيه النهب من دون إعاقة، بل أحد البلدان المهتمة بعلم الآثار بشكل جدي. وإذا كان تهريب التحف التاريخية لا يزال قائماً وإذا كان الضرر لا يزال يصيب الآثار فليس بسبب انعدام الحس أو الجهل، بل بسبب قلة الفرص.

إن تهريب القطع الآثارية والجرائم المشابهة لن تنتهي أبداً في

بلد يُستهجَن فيه أن يشعر المرء بحب كبير لوطنه، ويصعب فيه تلقين الناس ضرورة احترام الآثار القديمة والإيمان بواجب حماية ثقافتهم. ومثال إيطاليا يذكِّرنا بذلك ويبيِّن لنا أن الأمر لا يتعلق بالجهل فقط.

تكمن المشكلة في عدم وجود تعاون كافٍ بين الشعب والدولة، وهناك أمثلة على منع التهريب بواسطة هذا التعاون. ولكن، دعونا لا ننسَ أنه حتى في روسيا، حيث الناس يعرفون الكثير حول الآثار القديمة ويدعمون حضارتهم، عندما برزت أزمة اقتصادية منذ عشر سنوات، سُرقت عدة قطع من المتاحف وبيعت وهُرِّبت إلى الخارج. وهذا يبيِّن لنا أنه ليس سهلاً في الواقع ضمان احتفاظ الناس بإدراكهم لقيمة التحف القديمة.

ما أريد قوله هو أن تركيا اعتنت بإرثها في الماضي ولا تزال تقوم بذلك اليوم. ولكن، ليس هناك تعاون كافٍ في هذا الخصوص، سواء بين المنظمات أو بين الشعب التركي. ونحن بحاجة إلى حل هذه المشكلة بأسرع وقت ممكن.

القسم الداخلي

ظل القسم الداخلي (*Enderun*)، حتى القرن الثامن عشر، أهم مؤسسة موجودة ضمن قصر توبكابي في الدولة العثمانية. وكلمة *Enderun* تعني داخلي أو القسم الداخلي بالفارسية. نطلق اليوم اسم الباحة الداخلية على المنطقة التي ترونها على يسار ويمين غرفة المقابلات عند دخولكم من باب السعادة. والأبنية التي تجدونها على يمينكم بعد دخولهم من هذا الباب هي الغرف الأولى في القسم الداخلي. صحيح أنها، بمعنى من المعاني، صفوف مدرسية، ولكن ينبغي ألا تؤخَذ على أنها تعني صفوفاً في مدرسة.

كما يوحي اسمه، إن الـ *Enderun* هو القسم الموجود في مركز القصر. والمنطقة التي تقع بعد باب السعادة هي المكان الذي تبدأ فيه الحياة الخاصة للسلطان وتنتهي فيه الحياة العامة. يُدخلكم الباب إلى القسم الداخلي، حيث كان الآغاوات المدنيون يُدرَّبون ويخدمون في الوقت عينه. وكما ذكرنا سابقاً، كان الفتيان الذين يُقبَلون في القسم الداخلي الأبرز من بين الفتيان المجندين، جسدياً وذهنياً. وعند سن البلوغ، أي في عمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، كان الفتيان المختارون يُجلبون إلى القسم الداخلي من أماكن مثل قصر أدرنة وقصر غلطة.

عندما تنعطفون يميناً بعد الدخول من باب السعادة، ستجدون ما ندعوهما بالغرفة الكبيرة والغرفة الصغيرة. إن الشبّان الذين أمضوا وقتهم هنا كانوا يُدرَّبون باسم آغوات القسم الداخلي، لكنهم كانوا يفتقدون للخبرة ويُعتبَرون مجرد مرشحين للمنصب. كان الفتية يُسمّون

"*dolamalı*"، أي الملفوفين، وذلك بسبب أسلوب الرداء الذي كانوا يحصلون عليه مرتين في العام. ولم يكونوا يصبحون "*kaftanlı*"، أي لابسي العباءات، إلا بعد اجتيازهم مرحلة خدمة وامتحان، وعندما يصبحون كذلك فهذا يعني أنهم أصبحوا موظفين رفيعي المستوى مع إمكانية الترقي. وكان لابسوا العباءات يحصلون على عباءتين في العام أيضاً، وأولئك الذين لا يتمكّنون من اجتياز هذا المستوى كانوا يُرسَلون إلى قوات كابيكيولو (*Kapıkulu*) التابعة للسلطان مباشرةً، وإلى وحدات فرقة الخيّالة (*Sipahis*).

كانت الحياة قاسية في القسم الداخلي، الذي كان أشبه بمدرسة في القصر، ولكن ليس مدرسةً بالمعنى الذي نعرفه. كان التلاميذ يُعلَّمون الثقافة التركية والإسلام بعمق كبير. وقد أصبح بعضهم لاحقاً أشخاصاً بارزين تماماً، مثل ألبيرت بوبفيوس، المعروف باسم علي أُفقي بيه، الذي كان رجل دولة واعد لكنه كان، في الوقت نفسه، نجماً صاعداً في مجال الموسيقى العثمانية. بيد أنه عاش وحيداً، ولا نعرف كيف مات وكيف أمضى أيامه الأخيرة. لكن الكتاب الذي أَلَّفه حول السنوات التي أمضاها في القسم الداخلي جدير بالقراءة، لأنه يقدِّم رؤية واضحة لنظام القسم الداخلي.

إن الفتيان الذين كانوا يعيشون في الغرفتين الكبيرة والصغيرة، كانوا يخدمون في القصر ويتعلَّمون قواعد السلوك والعلوم والفنون في الوقت نفسه. وحالما كان يصبح واضحاً أنهم اكتسبوا البراعة اللازمة، فإنهم كانوا يُرقَّون إلى مستوىً أعلى بأمر شخصي من السلطان.

كان آغوات القسم الداخلي يستيقظون مع آذان الفجر ويذهبون إلى الحمام التركي، إذا كان ذلك لازماً. وبعد قضاء فرض الصلاة، كانت الحياة اليومية تبدأ. أي سلوك طائش أو غير لائق على مائدة الطعام كان يُقابَل بتوبيخ أو عقوبة مثل جلدة على اليد بواسطة مغرفة طعام.

وإذا خاطب أحدهم شخصاً ما بقلة احترام، أو تصرَّف بفظاظة، أو كان فوضوياً، أو لم يلتزم بنظام اللباس الصارم، فإنه كان يلقى عقاباً شديداً.

كان مفروضاً على أعضاء القسم الداخلي أن يتصرفوا بانضباط وبطريقة رسمية مع بعضهم البعض. وهذا النظام الصارم يشبه إلى حدٍّ بعيد نظام الطائفة اليسوعية في القرن السادس عشر. إن ما يزعمه بعض الأشخاص حول أن أولئك الذين كانوا يعيشون في القسم الداخلي كانوا يتصرَّفون بخشونة هو إشارة إلى مدى قلة معرفتنا حول هذه المؤسسة.

وبعد التخرّج من الغرفتين المذكورتين أعلاه، كان الفتيان ينتقلون إلى "*Seferli Koğuşu*"، أي مهجع فتيان المهمات العسكرية. أُسِّست هذه الغرفة في القرن السابع عشر عندما كان مراد الرابع يأخذ آغوات القسم الداخلي معه في حملاته العسكرية. وقد سُمُّوا كذلك لأن الفتيان الذين كان يتم اختيارهم من ذلك المهجع لمرافقة مراد الرابع كان يتوجب عليهم تنفيذ واجباتهم وسط ظروف حربية. والغرفتان الواقعتان حيث توجد الخزينة اليوم بُنيتا بأمر من السلطان محمد الثاني، وهما مهجع مسؤولي تخزين الطعام (*Kilerliler*) ومهجع الخازندار (*Hazinedar*)، أي المسؤول الخاص عن الخزينة. كان الفتيان الموجودون في الغرفة الأولى، التي تقع على الجهة اليسرى، يعملون في مخزن الطعام إضافة إلى خدمة السلطان نفسه، وخرج منهم مسؤولون بارزون في القصر. وهي الآن مكتبٌ لمدير قصر توبكابي.

عند تعيين المتخرجين من القسم الداخلي -أي الذين بلغوا مستوى لابسي العباءات- للعمل خارج القصر، فإنهم كانوا يبدأون على الأقل من رتبة بريغادير جنرال، (عميد). على سبيل المثال، كان الآغوات المتخرجون من مهجع مسؤولي التخزين مؤهَّلون لنيل رتبة حاكم ولاية. أما نخبة آغوات القسم الداخلي فكانوا يمثلون أعضاء القسم السلطاني الخاص (*has odalılar*)، وكان يُشرف عليه رئيس

هـذا القسـم، وهـو وزير مع رتبة مارشـال القصر. وكانـت خصوصيتهم تظهر في طرق مشوقة. على سبيل المثال، في مسجد الآغوات في القسم الداخلـي، كانـوا يـؤدون الصـلاة مع السـلطان في قسـم خـاص جدرانه مغلفة بالبورسلان، في حين كان الآغوات في المهاجع الأخرى يؤدون صلاتهـم فـي قسـم مختلف جدرانه مطلية باللـون الأبيض فقط. وهكذا نـرى أن الفـوارق فـي المرتبـة كانـت تنعكس ليس فقط فـي نوع الثياب واللقب، بل في مكان العبادة أيضاً.

وبسبب موقعهم الهام، كان أعضاء القسم الملكي مسؤولون أيضاً عن حراسة الممتلكات المقدسة للنبي محمد (ص) والخليفة، والمسمّاة الأمانـة المقدسـة (*Emanat-ı Mukaddese*)، الموجـودة فـي غـرف بورسـلانية خاصـة داخـل القصـر. وكان رئيـس القسـم الملكي الخاص يمتلـك رتبـة مارشـال القصـر، ويليـه في الرتبـة رئيس حاملي السـيوف (*silahtar ağa*)، المسـؤول أيضاً عن برتوكول المراسـم والاحتفالات. وقد استمرت هرمية السلطة هذه بالطريقة نفسها.

كان القسم الداخلي هو المؤسسة التي تتدرَّب فيها الطبقة الحاكمة المستقبلية فـي السـلطنة. وليـس مـن الصعـب رؤية أن خرِّيجي القسـم الداخلـي –معظمهـم جـاءوا من قـرىً نائية في البلقـان والقوقاز– كانوا يُدرَّبـون فعليـاً ليصبحوا –وأصبحوا– أعضـاء في الطبقة العليا الحاكمة. وليـس مـن المبالغـة القول إن رجال الدولة هؤلاء هم الذين بنوا صورة الدولـة، ليـس فقـط عبـر مظهرهم الخارجـي وإنما من خلال سـلوكهم أيضـاً. لـم يتمكـن أي أجنبـي أو كاتـب مسـافر قَـدِمَ إلى اسـطنبول من مقاومة وصف أحد المواكب التي اشـترك فيها هؤلاء الشـبّان، وبتفصيل شـديد. كان عامّـة النـاس والأجانـب في اسـطنبول يحضرون المراسـم التي كانت تُقام خارج القصر مثل موكب السـيف ومراسـم يوم الجمعة خصيصـاً مـن أجـل رؤية فتيان القسـم الداخلي. كانـوا يُفتَنون بجمالهم

الجسـدي، وألبسـتهم، وخصوصاً الحليّ المزركشـة بالريش التي كانت تزيِّن طربوش السـلطان أو كبار المسـؤولين، والتي كانت تُعرَف باسـم "*peyk*". لا عجـب أن يقـول درويـش فقيـر من طائفة البكداشـيين، أثناء مشـاهدته إحدى هذه المراسـم: "يا الله! انظر إلى خدم السـلطان وانظر إلى حالتي المزرية، حالة خادمك المتواضع".

مـن بيـن أولئـك المتخرجيـن مـن القسـم الداخلـي، كان هنـاك موسـيقيون اسـتثنائيون، مثـل علي أُفقي بيه، المذكـور أعلاه. وهناك من حفـروا أسـماءهم فـي التاريخ بسـبب تفوقهم في مجـال الرياضة. وكان منهم أيضاً من صنع لنفسه مجداً في حقلي الأدب والفلسفة. لكن الأهم من ذلك هو أن القسم الداخلي ظل يؤمِّن المارشالات للسلطنة العثمانية لمدة لا تقل عن ثلاثة قرون. لا حاجة بنا إلى القول إنه كان هناك بين المارشـالات (الذين كانوا السـابق من بين الفتيان المجندين) أشـخاص لـم ينجحـوا في الدخول إلى القسـم الداخلي، ومعظمهم كانوا يُسـمَّون "*acemioğlan*"[18]، وكانـوا يمضـون مدة مـن الزمن في القرى المحيطة باسطنبول من أجل تعلُّم اللغة التركية والإسلام. يُظهر لنا القسم الداخلي أنـه لا حاجـة إلى الأرسـتقراطية أن تكون وراثيـة، إذ يمكن توليدها من خلال التعليم. ويبدو لي أن وصف القسم الداخلي بأنه مدرسة من أجل السلطنة مناسب جداً. ولكن، من المثير للانتباه أن معظم الدراسات التي أُجريـت حـول القسـم الداخلي قام بهـا أجانب كانوا مهتمين بفهم كيفية عمل الحكومة العثمانية من خلال التدقيق في مفاصلها الأساسية.

بيد أن القسـم الداخلي أُحيل إلى الهامش في القرن التاسـع عشـر، وذلك بسـبب اسـتبداله بمؤسسـات تعليمية عصرية مثل مدرسـة العلوم السياسـية، ومدرسـة القانون، والأكاديمية العسكرية. إلى أن أُلغي رسمياً

(18) ملاحظة المترجم: كان هؤلاء إما مجندين في الجيش الإنكشاري أو متدرّبين في أقسام أدنى مستوىً في قصر توبكابي.

في أوائل القرن العشرين مع جميع ملحقاته.

يشغل القسم الداخلي اليوم أربعة أقسام تعرض ألبسة وكنوز السلطان. وكما ذكرنا من قبل، لقد استُبدل مهجع مسؤولي تخزين الطعام بمكتب مدير القصر. ويضم مهجع الخازندار الآن مجموعة من الساعات. في حين توجد البقايا المقدسة وبعض اللوحات في القسم السلطاني الخاص. أما مسجد الآغوات فهو يحتفظ بشهرته كقسم للمخطوطات. وفي نهاية القسم الداخلي، يوجد باب يُفضي من الباحة إلى قسم الحريم. بمعنى من المعاني، كان قسم الحريم هو المكان الذي تنشأ فيه وتتدرب نساء هذه الطبقة الحاكمة. لم تكن هذه الفتيات -اللواتي جئن إما عبر عملية تجنيد الفتيان، أو عبر شرائهن وجلبهن إلى القصر- تُدرَّبن كي تصبحن زوجات أو محظيات السلطان فحسب، وإنما كي تحظين بفرصة أفضل وخيارات بديلة.

لكن، دعونا نعود إلى القسم الداخلي. هذا هو المكان الذي كان يحوي الخزينة العثمانية وخزينة السلطان الشخصية (*iç hazine*)، التي كانت تُقفَل دائماً بختم السلطان سليم خان، ربما لأنها كانت الأكثر ثراءً في عهده. في منتصف باحة القسم الداخلي توجد المكتبة الأنيقة التي تحمل اسم أحمد الثالث، السلطان الذي كان يكنُّ ولعاً خاصة بفن الخط والقراءة. ولكن، لم يبقَ إلا القليل من المخطوطات في هذه المكتبة اليوم، لأنها محفوظة في مسجد الآغوات.

ما يدهش بخصوص نظام التعليم العثماني هو أنه لم يكن مهتماً بإنتاج طبقة نخبة ترتكز على الوراثة بقدر اهتمامه باختيار ومن ثم تدريب شبّان موهوبين يمكنهم تقديم الأفضل اعتماداً على إمكانياتهم. وفي هذا المعنى، كان القسم الداخلي ظاهرة تاريخية فريدة. لم تكن السلطنة العثمانية الدولة الوحيدة التي تستخدم نظام العبيد، أو بعبارة أخرى، نظام تجنيد الفتيان، فالمماليك أيضاً كانوا يستخدمون نظاماً

خاصاً بهم، وكذلك بعض الممالك في آسيا الوسطى. ويمكن ملاحظة نظام مشابه في الإمبراطورية الرومانية أيضاً. لكن القسم الداخلي يُعتبَر الأكثر تميُّزاً.

في الفصل الثالث حول تجنيد الفتيان، قدّمتُ بعض المعلومات المتعلقة بكيفية تعليم التلاميذ. كل ثلاث أو أربع سنوات، كانت السلطات المختصة بالتجنيد تختار فتياناً من البلقان، ولكن بشكل خاص من القوقاز، كي يُجلَبوا إلى قصر غلطة أو قصر أدرنة أو قصر إبراهيم باشا في منطقة السلطان أحمد. واستمرت هذه القصور بأداء وظيفتها التعليمية هذه حتى نهاية القرن السابع عشر، عندما تغير نظام التجنيد، فأصبح الفتيان يُجلَبون إلى قصر توبكابي.

كان تلاميذ القسم الداخلي يطلقون الألقاب على بعضهم البعض، وكانت هذه الألقاب تلتصق بهم لبقية حياتهم. وكان بعض الوزراء ورؤساء الوزراء يحملون ألقاباً تدل على عيوب جسدية فيهم، مثل مسطح القدمين (*tabanıyassı*)، والرقبة المحنية (*boynueğri*) والسمين (*semiz*)، أو تدل على شخصياتهم، مثل الثور (*öküz*)[19]، والمصطنع (*kalaylıkoz*)، وغطاء اليخنة (*yahnikapan*)[20]. في حين كانت ألقاب بعض الأشخاص مستمَدة من مهنهم، مثل رامي السهام (*kemankeş*). وقد اكتسب سوكولو محمد باشا لقبه الطويل (*tavil*) في القسم

(19) ملاحظة المترجم: لا يحدد الكاتب ما المقصود من لقب "öküz"، أي الثور، الذي أُطلق على عدة شخصيات عثمانية بارزة. ولكن في حالة كارا محمد باشا، يُقال إنه كان يشير إلى بنيته الجسمانية الثقيلة وكذلك إلى حقيقة أن والده كان يعمل حدّاداً للمواشي في اسطنبول. لكن كلمة "öküz" يمكن أن تحمل مضامين إيجابية أو سلبية كما في اللغة الإنكليزية.

(20) ملاحظة المترجم: عندما كان عبد الكريم باشا، آخر وزير للمالية في السلطنة، لا يزال طالباً في مدرسة بيازيد، يُقال إنه اكتسب لقب غطاء اليخنة بسبب ولعه بالوجبات التي كانت تُعدُّ في مطبخ الحساء من أجل الفقراء.

الداخلي. واستمر تقليد إطلاق الألقاب في مدرسة غلطة سراي للغات ومدرسة العلوم السياسية.

بعض الطلاب كانوا يُؤخَذون إلى قصر توبكابي في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، بسبب القدرة التي أظهروها على التعلّم والخدمة إما في قصر أدرنة أو قصر غلطة. وكلما كانوا يتعلّمون أكثر ويكتسبون المزيد من الخبرة خلال الخدمة، كلما كانوا يترقّون إلى غرفة أعلى. صحيح أن بعض أولئك الذين دخلوا إلى القسم الداخلي أمضوا حيواتهم بأكملها فيه وداخل القصر، ولكن كان هناك أيضاً فتيان وصلوا إلى مرتبة رئيس القسم السلطاني الخاص، ورئيس الخزينة، ورئيس حاملي الثياب (*Çuhadar ağa*)، ورئيس حاملي الأسلحة، قبل أن يواصلوا ارتقائهم للخدمة برتبة وزير أو حاكم.

بالطبع، كان بعض المتخرّجين من القصر يحتفظون بأثر ما من أصولهم في لفظهم للغة. ويمكن ملاحظة أمثلة على ذلك حتى منذ وقت ليس ببعيد. في الواقع، خلال أول خمس وعشرين سنة إلى ثلاثين سنة تلت تحويل قصر توبكابي إلى متحف، كان بين موظفي الخدمة المدنية العاملين هناك من يحمل هذه السمة اللغوية. غير أن روابط طلاب القسم الداخلي بلغاتهم وأديانهم وقبائلهم السابقة كانت تنقطع بمرور الزمن، ويصبحون في نهاية المطاف جزءاً من بيئة ثقافية جديدة. وهذا ينطبق أيضاً على قاطنات قسم الحريم، لكن الشيء الوحيد الذي كانوا يحتفظون به من ماضيهم هو ذكرياتهم. كان من الممكن أن يجد أحد خرّيجي القسم الداخلي نفسه يترقّى لمرتبة وزير ويعمل في إحدى الولايات البعيدة، كما حدث مع مصطفى باشا -ابن شقيق سوكولو محمد باشا- الذي عُيِّن حاكماً على بودين. ذات يوم، جلب أحد الضباط حقيبة من الحرير تحوي فَرَماناً يقضي بإعدام الباشا، فقبله مصطفى باشا بطاعة تامة. لماذا؟ لأن خرّيجي القسم الداخلي لم يكونوا

يثقون بأي شخص أو أي شيء إلا الدولة. وهذا من بين أسباب عدم شعبية خرّيجي القسم الداخلي بين نظرائهم، ومن الأسباب الأخرى أيضاً، الصراع الحتمي بين المؤسسات المختلفة، والمهارات المتفوقة التي كان يتميز بها فتيان القسم الداخلي، إلى جانب تعجرفهم في بعض الأحيان. على سبيل المثال، كان فتيان الـ *acemioğlan* يدعونهم فئران القصر، وحتى علماء الدين وخريجي المدارس الدينية من موظفي الخدمة المدنية كانوا ينظرون إلى أعدائهم بالطريقة نفسها.

ينبغي لنا ألا ننسى أن العثمانيين كانوا يحاولون، من خلال القسم الداخلي، تدريب قادة مخلصين كي يقودوا السلطنة، وإخلاصهم هذا كان يُولى الأهمية القصوى. بعضهم أصبحوا وزراء أو قادوا الجيش الإنكشاري، في حين استلم آخرون السلطة في مستويات أخرى في الدولة أو ضمن الخدمة المدنية. لكن أياً منهم لم ينسَ أبداً أنه كان عبداً للسلطان وينتمي للفئة التي أُوجدت كي تخدم السلطان. وكانوا يدركون جيداً ماذا كانت تعني الدولة ووحدة الدولة. لهذا السبب، كتب أوجير جيسلين فون بوسبيك، سفير المملكة النمساوية-الألمانية في السلطنة العثمانية خلال عهد السلطان سليمان القانوني، التعليق التالي حول الدولة العثمانية، تعليقٌ يتضمن قدْراً ملحوظاً من المثالية والحسد: "إن الأشخاص الذين يديرون الدولة التركية، دولة وسلطنة الأتراك العثمانيين، موهوبون وأثرياء وجذّابون. إنهم يكتسبون المراتب التي يشغلونها عبر العمل وتطوير الذات وبذل الجهد. إنهم لا يملكون أرستقراطية وراثية مثلنا. ولهذا السبب، لا تُدار سلطنتهم بواسطة أشخاص عاجزين بل بواسطة أشخاص قادرين، ولهذا السبب إنها تنمو وتتحسن وتمسك بالمستقبل".

اختفى نظام القسم الداخلي تدريجياً خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بطريقة مشابهة لانتهاء نظام تجنيد الفتيان. لقد درَّبت

غرفـة الترجمـة فـي البـاب العالي، التـي جُنِّد فيها شـبان ماهرون خلال مرحلـة الإصـلاح الإداري، أشـخاصاً مهميـن جداً، مثل رئيسـي الوزراء محمد أمين علي باشا ومدحت باشا.

لقد شـكَّل القسـم الداخلي نموذجاً مهَّد الطريق في القرن التاسـع عشـر لتأسـيس مـدارس داخليـة تقـدم منَحاً دراسـية مثل مدرسـة الطب البشري ومدرسة الطب البيطري ومدرسة الهندسة، بالإضافة إلى مدارس الإدارة مثل غلطة سراي للغات ومدرسة العلوم السياسية في أنقرة. في القسم الداخلي وفي قسم الحريم، شكّلت السلطنة العثمانية طبقة حاكمة مـن أشـخاص يمتلكـون مهـارات وقدرات على التطـور بدلاً من أولئك الذين ينتمون للطبقة النبيلة. ونجحت السلطنة أيضاً في منع التمرد ضمن أراضي ممالك أخرى بالإضافة إلى الأراضي العثمانية. وهذا جانب آخر وإنجاز آخر للقسم الداخلي يحتاج لدراسة أعمق.

الإمبراطورية الرومانية الأخيرة

كانـت السـلطنة العثمانيـةُ هـي الإمبرطوريـةَ الرومانيـةَ الأخيرة في التاريـخ. تثيـر عبـارةٌ من هـذا النوع قدْراً كبيراً مـن الجدل في الخطاب السياسـي والأكاديمي في تركيا. أحد الأسـباب هو أن الناس لا يعرفون بوضوح ما تعنيه كلمة روما. لكن هذا مثير للدهشـة، لأن روما تشـكِّل أسـاس الحضارة الحديثة وأسـاس هياكلنا القانونية والإدارية. مع ذلك، ورغم اتساع انتشار النظام الروماني، فإن معظم الأمم في العالم لا تدرك هذا الأمر. يعتقد الأوروبيون الغربيون أنهم يفهمون كل ما يحتاجون إلى فهمـه حـول هـذه الحقبـة وأن كل ما خطَّط الرومـان لتحقيقه قد تحقَّق. وفي الوقت نفسه، يعتقد اليونانيون اليوم -لوجود نظريات تاريخية غير صحيحـة وأخطـاء فـي طريقة تعليم التاريـخ- أن الإمبراطورية الرومانية تمثل عصر انحطاط ووحشـية وفجور وتشـهير، وما زالوا يعلِّمونه بهذه الطريقة. ولهذه الرؤية جذورها في الغرب أيضاً، لكن اليونانيين ينظرون إلـى الإمبراطوريـة الرومانيـة علـى أنهـا نسـخة منحطـة عـن حضارتهم الخاصة.

لسـوء الحـظ، إن الأفـكار المتعلقـة بالحضارة الرومانيـة في تركيا المعاصـرة بالـكاد أكثـر تنـوُّراً، رغـم عـدم وجود أي سـبب لذلك. في الواقع، هناك جدل عقيم يدور حول المصطلح المحرَّم، إمبراطورية، لأن الناس يربطون الإمبراطورية بالإمبريالية، مع أن المفهومين لا يشـتركان في الكثير من النقاط، وخاصة في العصر الروماني، حيث لم تكن كلمة الإمبريالية تُستخدَم بطريقة سلبية أبداً. وقد تفاقم هذا الوضع كثيراً -وهنا يملك علم الاجتماع إجابات كثيرة- لدرجة أن فرنسـا الاسـتعمارية في



القرن التاسع عشر، فرنسا نابوليون الثالث، قُدِّمت كأنموذج للإمبراطورية، في حين كانت الدولة العثمانية توصَف بأنها دولة ولا تملك أي شيء مشترك مع هذه الكينونة الخاطئة والمعيبة. ولهذا السبب، أولئك الذين كانوا يجدون صعوبةً في سرد تاريخ مفهوم الدولة رأوا أنه من المناسب التمييز بين الدولة والإمبراطورية.

كل هذا يجعل من الواضح تماماً أن مفكِّرينا في التاريخ والسياسة لا يفهمون حقاً الذهنية الرومانية وبنية الإمبراطورية الرومانية. لكن هذا لا ينطبق على أجدادنا، في الواقع. فبالنسبة إليهم، كانت روما تمثل إمبراطورية عالمية. وبناء مثل هذه الإمبراطورية كان يمثل مهمة مقدسة، وأولئك الذين كانوا مترددين أو غير قادرين على تحمُّل مسؤولية هذه المهمة، كانوا يتركونها للقادرين منها.

في الحقيقة، بالنسبة إلى أجدادنا، كانت السيادة على روما والرومانيين تعني امتلاك ما كان يُسمَّى ديار الروم (*Diyar-ı Rum*)، أي أرض الروم، وهذه المهمة لم تكن مهمة مجتمع الأناضول الأوسط

الناطق باليونانية، والأناضول الغربي، وآسيا الصغرى، إذ إن السلاجقة والعثمانيين هم الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ هذه المهمة. ولتحقيق ذلك، لم يكن لدى العثمانيين أدنى شك في أنهم كانوا بحاجة إلى الاستيلاء على عاصمة روما الجديدة، اسطنبول؛ وهذا ما فعلوه.

كان حاكم الأتراك خاكاناً (*Hakan*) تركياً، وخليفة جميع المسلمين، وقيصر الروم في آن واحد. لكن، ينبغي لنا أن ننوِّه إلى أن استخدام لقب خليفة -بعكس أسطورة ظهرت في تركيا القرن الثامن عشر- لم يبدأ فقط في القرن السادس عشر عندما احتل السلطان سليم الحجاز والقاهرة كجزء من توسعه نحو الشرق الأوسط، إذ تشير السجلات إلى أن سلاطين قبله استخدموا هذا اللقب، وأن آخرين استندوا إليه أيضاً. على الأقل، هذا ما تخبرنا به السجلات التاريخية الرسمية. علاوة على ذلك، لم يستخدم السلطان سليم الأول وسليمان القانوني لقب الخليفة بقدر ما سيستخدمه السلطانان اللاحقان عبد الحميد الثاني وعبد العزيز.

هناك شيء ينبغي إيضاحه هنا، وهو أن العامل الأساسي في تاريخ الإمبراطورية الرومانية الأخيرة هو الأتراك المسلمون. ففي النهاية، كانت لغة الجيش تركية وكان الجيش مؤسسة تركية. صحيح أنه كان هناك مجندون من أصل مسيحي (جُنِّدوا في سياق عملية تجنيد الفتيان)، لكنهم كانوا يتكلمون التركية، وأصبحوا عثمانيين، كما أن القوات التي شُكِّلت من هؤلاء المجندين (*Kapıkulu Corps*) كانت تمثل نواة الجيش المركزي. وهذه الحالة لم تكن تنطبق على جيوش الدول كثيفة السكان المجاورة للسلطنة العثمانية. طوال تاريخ السلطنة، كان الجيش هو العنصر الأساسي في هذه الدولة التركية، وفيه كانت اللغة التركية هي المستخدَمة، بدون أي استثناء.

وما يثير الاهتمام أن اللغة المستخدمة في السفارات والخدمات

القنصلية للسلطنة هي اللغة التركية أيضاً. بمعنى آخر، رغم أن اللغة التركية لم يكن يُتحدَّث بها على نطاق واسع، إلا أنها استُخدمت في جميع المراحل. سيكون من الخطأ الفادح الاعتقاد أنه، في مرحلة زمنية ما في ولاية تركية ما، رُفض طلب أو استرحام مكتوب باللغة التركية لأن السلطات التي كانت تتولى معالجته لم تتمكن من فهمه. بالطبع، من الطبيعي تماماً أن تُستخدم اللغة الفارسية في الخدمة القنصلية للدولة السلجوقية العظيمة في إيران. ولكن، ليس هناك أي دليل على أن اللغة التركية لم تكن مستخدمة في النظام البيروقراطي لتلك الدولة. وعلى أي حال، كانت اللغة التركية لغة القيادة في جيش تلك الدولة.

هنالك مسألة أخرى تستحق اهتمامنا. عبر التاريخ، عاشت شعوب أخرى وعملت مع الأتراك، الأمر الذي أدى إلى تأثير عناصر من ثقافاتها وتواريخها في الحياة الثقافية والنسيج الثقافي للأتراك. ففي ميدان الفولكلور وعلم الاجتماع، نجد التعبير الألماني المثير للاهتمام "*Volksfrommıgkeit*"، ويعني تقوى شعبي. كما أننا نجد أحياناً في البيئة العثمانية عادات مسيحية ويهودية وإسلامية ممتزجة معاً، كعادة زيارة المسيحيين لقبور أولياء المسلمين، ومشاركة المسلمين في اسطنبول في الاحتفالات والأعياد الدينية، مثل عيد مريم العذراء، وكلنا نعلم أن بعض التقاليد اليهودية متَّبعة عند المسلمين مسبقاً. وهذا يعني أن بعض المؤسسات والعادات واللاعبين في الدولة العثمانية والمجتمع العثماني أبدت، وأبدوا، إمكانية الانتقال.

* * *

لنقل ذلك بصراحة، إن التاريخ العثماني هو تاريخنا نحن الأتراك، تاريخ الدولة التركية. لكنه في الوقت نفسه التاريخ المشترك لما يزيد عن عشر أمم تعيش في الجزء المحيط بنا من العالم (يضم نحو



عشـرين دولـة)، كل واحـدة منهـا كانـت موطنـاً لقبائل تتحـدث لغات مختلفـة وتتبـع أديانـاً مختلفة. ينبغي لنا أن نقبـل هذه الحقائق. وعندما نفعل ذلك، سندرك أنه من دون معرفة التاريخ العثماني واللغة التركية، لن يكون ممكناً بالنسـبة إلى الناس في البلقان أو الشـرق الأوسـط أو القوقاز أو جنوب روسيا أن يدرسوا التاريخ ويفهموه. أي ما لم يعرفوا اللغـة التركيـة ويدخلـوا إلـى المصـادر التركيـة، فإنهم لـن يتمكنوا من كتابـة تاريـخ أممهم بالذات. بطريقة ما، فهم الهنغاريون والإسـرائيليون (وهـؤلاء الأخيـرون هـم آخر الوافدين لهذه المنطقة) هذا الأمر. لكننا، لسـوء الحظ، لا نسـتطيع أن نقول إن الشـعوب الأخرى التي كانت في السـابق جـزءاً مـن السـلطنة العثمانيـة قد أبدت فهمـاً مشـابهاً. لكن هذا الوضع يصح في الاتجاه المعاكس أيضاً، بمعنى أننا لا نستطيع أن نفهم تاريخ وحياة وعقائد هذه السـلطنة الشاسـعة بمجرد النظر في المصادر العثمانية-التركية.

هـل يمكـن لشـخص يملـك معرفـة سـطحية باللغتيـن العربيـة والفارسـية ودرجـة مقبولـة -فـي أحـس الأحوال- من الإلمـام باللغة التركيـة العثمانيـة أن يسـمي نفسـه مؤرخـاً عثمانيـاً؟ الجـواب هو لا. ويستحيل على أي شخص أن يفهم أصول وخصائص الدولة العثمانية إذا لم يكن يعرف اللغة اليونانية، ولم يكن ملمًّاً بالإمبراطورية البيزنطية، وإذا لم يكن يملك علماً بالثقافة السياسية والاجتماعية للسلافيين في العصـر الوسـيط. وهـل يمكنـه أن يفهم العثمانيين مـن دون أن يكون عارفاً بالثقافة العربية في الشـرق الأوسـط في العصور الوسـطى؟ مرة أخرى، الجواب هو لا.

هناك من يقول إن "الدولة العثمانية تعرَّبت في القرن السادس عشر". بالطبع، إنهم يتفوهون بكلمات فارغة ويطلقون استنتاجات متسرِّعة. هل حدثت عملية التعريب هذه؟ وهل ظهرت العناصر اللازمة لإحداث مثل هذا التغيير غير العادي؟ وما هي هذه العناصر؟ كيف يمكن لمؤرخ أو عالم اجتماعي تركي أن يطلق هذا الادعاء الطفولي من دون أن يدرس العالـم العربـي فـي مرحلتي الفاطميين والمماليـك ومن دون أن يدرس سوريا وبغداد وفلسطين في ذلك الزمن؟ رغم أن المشاكل التي أشرت إليهـا جوهريـة، ولكن يبـدو أن أكاديميينا ومؤسسـة التعليم العالي لدينا يسيرون في الطريق الخاطئ فيما يتعلق بالبحث العلمي.

إن طلاب التاريخ في الجامعات الفرنسية أو حتى الروسية يقرأون ويعرفـون مـا الـذي كان يجري في تلـك الأجزاء من العالم العربي التي احتلّها العثمانيون، لكننا لا نستطيع قول الشيء ذاته بالنسبة إلى الطلاب في تركيا. لم تُكتَب فقرة صغيرة واحدة حول هذا الموضوع. وإذا بحثتم فـي كتبنـا، فإنكـم لـن تجـدوا فقرة واحدة حول الوضع فـي البلقان قبل وصـول العثمانييـن أو كيـف تغيَّرت الحياة بعـد ذلك. عندما قرأنا رواية

إيفو أندريتش **الجسر فوق نهر درينا**[21]، التي أكسبت الكاتب جائزة نوبل، أحسسنا بالصدمة والإثارة معاً. تخيّلوا معي الوضع: لم يخبرنا أحد أي شيء حول هذا التاريخ، فتأتي رواية تاريخية مكتوبة بقلم كاتب قومي كرواتي مهم وتتحدث حول الأوضاع في جسر درينا، وتآسرنا، رغم أن محتواها لم يكن يلائمنا. لماذا أحدثت هذا التأثير؟ لأننا لم نكن نعرف أي شيء حول ذلك العالم.

إليكم ملاحظة مدهشة أخرى. لم يقم أي باحث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بإنتاج مؤلف شامل حول تاريخ السلطنة العثمانية. من قام بذلك هما الباحث النمساوي جوزيف هام رفون بورغستال والمؤلف الألماني المغمور يوهان ويلهيلم زينكيسين. من دون مراجعة المصادر الموجودة في الأرشيفات التركية -بل إن زينكيسين لم يكن يعرف اللغة التركية- ولكن عبر اتباع الإشارات إلى هذه السلطنة العالمية في أرشيفات فينيسيا والنمسا وألمانيا وفرنسا، نجح هامر وزينكيسين في كتابة شروحات مسهبة على نحو رائع حول تاريخ السلطنة العثمانية. إذا سألتم أي شخص اليوم، فسيقول لكم إنها أصبحت قديمة ولم تعد صالحة، ولكن، طالما أننا لم نستبدل حذاءنا القديم بواحد جديد، فسنضطر لمواصلة ارتداء الحذاء القديم، حتى لو كان الطقس ماطراً أو مثلجاً. ولهذا السبب، من الصعب على أي شخص التعمُّق في موضوع تاريخي يتعلق بالسلطنة العثمانية من دون مراجعة هامر أولاً. لكن المجتمع بصورة عامة بحاجة إلى إطلاعه على معالجات جدية لهذه السلطنة المترامية الأطراف. ما نحن بحاجة إليه هو أدب شعبي وأدب تاريخي يجد قبولاً بين عامة الناس. لكن أياً من هذا

(21) ملاحظة المترجم: تتحدث هذه الرواية، التي تتضمن تجسيداً متخيَّلاً لقصة سوكولو محمد باشا، حول العلاقات التي كانت قائمة بين المجموعات الإثنية والدينية المختلفة في بلدة فيشيجراد البوسنية تحت الحكم العثماني.

لم يكن موجوداً حتى عهد قريب. الناس من جيلي كانوا يطَّلعون على هـذا التاريـخ مصادفـةً في صفحات المجلة الشـعبية **مجلـة تاريخ الحياة** (*Hayat Tarih Mecmuası*). حتـى ذلـك الحيـن، لم يكن لدى طلاب المدارس وطلاب الجامعات وأي شخص آخر مهتم أي مكان يلجأون إليه إذا كانوا يبحثون عن شرح بديل ومشوق لتاريخهم.

* * *

إن المصادر التاريخية العثمانية أشبه بلغز صعب الحل. نحن نعرف أن هذه السلطنة ظهرت في بداية القرن الرابع عشر، رغم أن البروفيسور خليل إنالجيك يعتقد أن هذا حدث في وقت لاحق. ولكن، خلال المائة وخمسين عاماً التالية تقريباً، أي حتى العام 1450، ليس لدينا أي شيء حـول قصـة هـذه السـلطنة مـن أتراك ذلـك الزمـن، لأن أول موجة من المؤرخين، مثل عاشـق باشـازاده وأوروتش بيه ومحمد نصري، ظهرت بيـن منتصـف ونهايـة القرن الخامس عشـر. بالطبع، لقد كتبوا كل شـيء سمعوه حول الماضي. لكننا لا نعرف على وجه اليقين ما هي المصادر المكتوبة التي استندوا إليها، والأهم من ذلك، ما نوع وجهة النظر نحو العالم التي أثَّرت في سـردهم للحوادث التاريخية. على سـبيل المثال، لم تبقَ أي نسـخة من أعمال ياهشـي فقيه، الذي يذكره عاشـق باشـازاده كمصدر. لو أننا نملك كتاب تاريخ مكتوب في العام 1350، لربما أطْلَعَنا علـى حـوادث مـن منظور مختلف تماماً، ذلك أن المؤرخين المحترمين الذين ذكرتهم للتو كانوا يكتبون التاريخ في جو سلطنة.

لـدى الألمـان تعبيـر لطيـف جـداً لمثـل هـؤلاء المؤرخيـن: إنـه "*Reichshistiker*"، أي مؤرخـو الدولـة، أو مؤرخـو الإمبراطوريـة. فـي الحقبـة التـي احتـل فيهـا السـلطان محمـد الفاتـح البوسـنة وألبانيا واسـطنبول وأصبح حاكم دولة عظيمة فرضت نفسـها كقوة عالمية، كان هؤلاء المؤرخون يكتبون حول تأسـيس الدولة العليَّة. فهل كان بوسـع

هـؤلاء فعـل أي شـيء إلا أن يصبغـوا هذا التأسـيس بجـو مختلف إلى حـد بعيـد عـن الجـو الأصلـي؟ يمكن للأسـطورة أن تمتزج مـع الواقع بسهولة كبيرة. لسوء الحظ، إن دراساتنا التاريخية المعاصرة ليست أكثر موثوقية، وبحسب رأيي الشخصي، ما لم ننقِّب عميقاً في أرشيفات دول معاصرة للعثمانيين، مثل المماليك وفينيسيا وتوسكانا وجنوى، فستزداد صعوبة الحصول على معلومات جديدة في المسـتقبل. وهنالك مسـألة أخرى -تتميز بصعوبة خاصة لأسباب لغوية- بحاجة إلى حل، ألا وهي الأرشيفات المتعلقة بموسكو في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهي غنية لكنها لم تُستخدَم بعد.

إن نوع التحديات التي نصادفها عند البحث في المرحلة التأسيسية للسـلطنة العثمانية ينطبق على مجالات أخرى من البحث أيضاً. فعندما تبحثون في السجلات فإنكم لن تجدوا أي سجل حول ملْكية الأراضي والضرائـب يعـود تاريخـه إلى ما قبل القرن الخامس عشـر. إن "سـجل التعليمات والأوامر" هو أول سجل ينشره بنجاح أرشيف رئاسة الوزراء، وهو قيد الدراسة الآن من قبل زملاء متنوعين في قسم العلوم الإنسانية، لكنهـم هـم أيضـاً ذكـروا بصراحـة أن المصادر لا تعود إلـى فترة أقدم. ولهذا السبب، لا خيار لدينا سوى أن نواصل المحاولة لاكتشاف وفهم تاريخ هذه السلطنة العالمية، التي لا نشك أبداً في وجودها لكن أسرارها القديمـة تقبـع محجوبـة في الظلام. نحن الأتراك، كتَّاباً كنا أم مثقفين أم مواطنين عاديين، خبراء في إساءة فهم وإساءة تفسير السلطنة العثمانية، وفي تصديق أن الأشياء كانت مخالفة تماماً لما كانت عليه في الواقع. دعونا نأمل بأننا سنعوِّض عن ذلك في المستقبل.